رواية

اغتيال العقل

تأليف

عمارة عبدالمالك

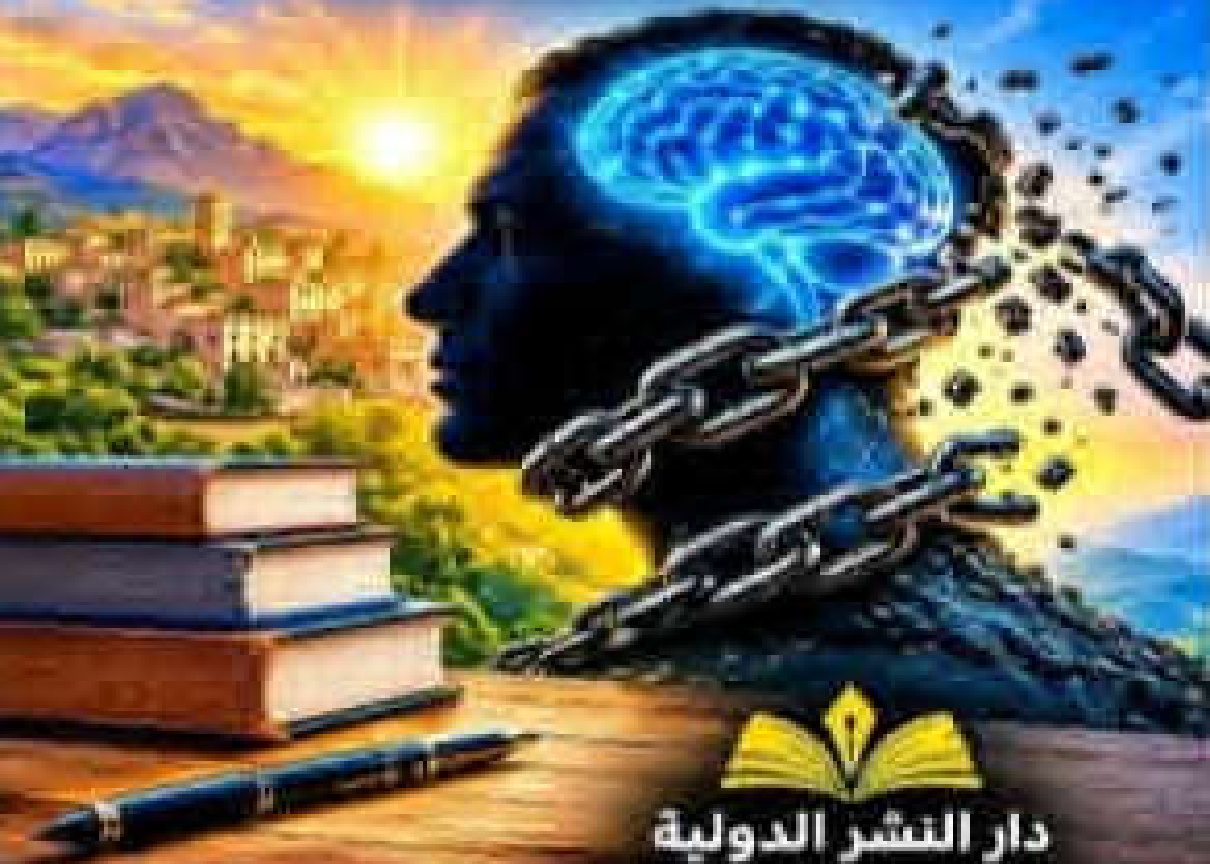

دار النشر الدولية

كتب تصنع الفرق

رواية

اغتيال العقل

عمارة عبدالمالك

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

2026

اغتيال العقل
رواية اجتماعية فكرية

إهداء

إلى كل عقلٍ أُسكت لأنه سأل، وإلى كل إنسانٍ عُوقب لأنه شكّ، وإلى الذين ورثوا الخوف قبل أن يتعلموا التفكير.

إلى كل من ظل يبحث عن الحقيقة في زمنٍ صار فيه الوهم أكثر رواجًا من المعرفة، وإلى أولئك الذين آمنوا بأن السؤال ليس جريمة، وأن الشك بداية الطريق إلى اليقين، وأن الإنسان لا يكون حُرًّا ما دام عقله رهينةً في أيدي الآخرين.

أهدي هذه الرواية إلى العقول التي قاومت الظلام، حتى حين لم يكن في الأفق سوى شمعة صغيرة.

عمارة عبدالمالك

كلمة المؤلف
رواية: «إغتيال العقل»

ليست هذه الرواية مجرد حكاية عن قرية تعيش على وقع الخرافات والأوهام، وليست محاولة لإدانة أشخاص بعينهم، وإنما هي رحلة في أعماق مجتمع أصبح فيه الخوف أحيانًا أقوى من الحقيقة، والوهم أسبق من التفكير، والموروث غير الممحص سلطةً تتحكم في عقول الناس وقراراتهم.

اخترت عنوان «**اغتيال العقل**» لأنني أؤمن بأن أخطر أنواع الاغتيال ليس اغتيال الجسد، بل اغتيال قدرة الإنسان على التفكير والسؤال والتمييز بين الحقيقة والزيف. فعندما يتخلى الإنسان عن عقله، ويمنح الآخرين حق التفكير نيابة عنه، يصبح فريسة سهلة لكل من يتاجر بخوفه أو يستغل جهله أو يوظف حاجته لتحقيق مصالحه.

من خلال شخصية عامر، وبقية شخصيات الرواية، حاولت أن أطرح قضايا اجتماعية وفكرية تمس حياتنا اليومية، مثل الشعوذة والدجل واستغلال الدين والموروث، ونشر الشائعات، وتغييب الوعي، ومقاومة التفكير النقدي.

كما حاولت أن أبين أن احترام التراث لا يعني تقديس كل ما ورثناه، وأن الإيمان لا يتعارض مع اعمال العقل، وأن السؤال ليس عيبًا، بل هو الخطوة الأولى نحو المعرفة.

لم يكن هدفي أن أجعل من عامر بطلًا يمتلك الحقيقة المطلقة، أو أن أصور كل من يتمسك بالموروث عدوًا للوعي، بل أردت أن أؤكد أن المجتمعات لا تتقدم بإلغاء ماضيها، وإنما بقراءته بعقل منفتح، والاحتفاظ بما ينفعها، والتخلي عما يضرها.

إن هذه الرواية دعوة إلى تحرير العقل من الخوف، وإلى بناء ثقافة تقوم على السؤال والحوار والدليل، وإلى إدراك أن الإنسان لا يحمي نفسه بتصديق كل ما يسمع، بل بقدرته على التحقق والتفكير والاختيار.

وأرجو أن يجد القارئ بين صفحات هذا العمل ما يدفعه إلى مراجعة بعض المسلمات، والتأمل في واقعنا الاجتماعي، وطرح سؤال جوهر: ي هل نعيش بعقولنا، أم نسمح للآخرين بأن يفكروا ويقرروا نيابة عنا؟ فحين يُغتال العقل، لا يموت التفكير وحده، بل تتراجع الحقيقة، ويصبح الوهم قادرًا على قيادة الإنسان والمجتمع.

عمارة عبدالمالك

مقدمة

لم يكن أحد في تلك القرية الصغيرة يتخيّل أن أخطر جريمة يمكن أن تُرتكب في حق الإنسان ليست قتله برصاصة، ولا خنقه بحبل، ولا دفنه تحت التراب، بل أن يُقتل فيه شيء لا يُرى بالعين، ولا يُقاس بالميزان، ولا يُكتشف أثره بسهولة... أن يُغتال عقله وهو لا يزال حيًّا، يمشي بين الناس، ويتحدث معهم، ويضحك حين يضحكون، ويبكي حين يبكون، لكنه فقد، دون أن يدري، فقد القدرة على التفكير بحرية، وعلى التمييز بين الحقيقة والوهم، وبين ما يستحق الإيمان وما يستوجب الشك والسؤال.

هناك، في ذلك المكان الذي تتعانق فيه البيوت المتواضعة مع الأزقة الضيقة، وحيث تتناقل الألسن الأخبار أسرع مما تنتقل الحقائق، كانت الحياة تسير وفق إيقاع قديم، كأن الزمن نسي أن يطرق أبواب القرية ليخبرها بأن العالم قد تغيّر. كانت الشمس تشرق كل صباح على الوجوه نفسها، وتغيب خلف التلال نفسها، بينما ظلت العقول أسيرة حكايات وُلدت في عصور بعيدة، وتناقلتها الأجيال جيلاً بعد جيل، حتى أصبحت بعض الأكاذيب حقائق لا يجوز الاقتراب منها، وبعض الأوهام مقدسات لا يُسمح بمناقشتها، وبعض الأسئلة جرائم تستحق العقاب الاجتماعي والتشهير.

لم تكن المشكلة أن الناس لا يعرفون القراءة والكتابة فحسب، بل إن بعضهم تعلّم الحروف، وحفظ النصوص، وحصل على الشهادات، ثم ظل عاجزًا عن ممارسة أبسط حقوق العقل: أن يسأل، وأن يبحث، وأن يشك حين يكون الشك طريقًا إلى الحقيقة، وأن يعترف بالخطأ حين تظهر الأدلة. فقد يكون الإنسان أميًّا لا يعرف كتابة اسمه، لكنه يمتلك حكمة فطرية تجعله يرى الأمور على حقيقتها، وقد يكون متعلمًا يحمل أعلى الشهادات، لكنه يستسلم لخرافة عابرة إذا وجد فيها ما يريح خوفه أو يوافق هواه.

وفي تلك القرية، كانت الخرافة ترتدي أحيانًا ثوب الحكمة، ويتخفّى الجهل وراء كلمات الحكمة الشعبية، وتُستعمل هيبة الكبار لإسكات الصغار، ويُعامل السؤال وكأنه تمرّد، والاختلاف كأنه عداوة، والتفكير المستقل كأنه خروج عن الجماعة. كان الناس يخشون نظرات الآخرين أكثر مما يخشون الوقوع في الخطأ، ويحرصون على إرضاء المجتمع أكثر من حرصهم على معرفة الحقيقة.

فإذا مرض طفل، بحث بعضهم عن تفسير غيبي قبل البحث عن طبيب. وإذا تعثرت فتاة في حياتها، أسرع البعض إلى نسج الحكايات حول الحسد والسحر والنحس. وإذا فشل شاب في مشروعه، لم يسألوا عن أسباب الفشل، ولا عن

نقص الخبرة أو سوء التخطيط، بل فتحوا أبواب التأويلات التي لا تنتهي. وإذا وقعت حادثة غامضة، تنافست الألسن في اختراع الأسباب، حتى تصبح الرواية الأكثر إثارة أقوى من الحقيقة نفسها.

وكان الأخطر من كل ذلك أن أصحاب العقول التي تجرؤُ على السؤال كانوا يجدون أنفسهم في مواجهة جدار من الرفض. فمن يُحاول أن يُفسّر ظاهرة تفسيرًا علميًّا يُتّهم بالتعالي، ومن يدعو إلى مراجعة الأفكار القديمة يُوصف بقلة الاحترام، ومن يطالب بالدليل يُسأل عن نيته بدلًا من مناقشة حجته. وهكذا، شيئًا فشيئًا، صار الصمت أكثر أمانًا من الكلام، وصارت المسايرة أقل كُلفة من المواجهة، حتى بدأ العقل يتراجع إلى زاوية مظلمة في داخل الإنسان، ينتظر فرصة يستعيد فيها صوته.

لكن العقول لا تموت كلها في لحظة واحدة؛ إنها تُهزم على مراحل.

تبدأ الحكاية حين يُمنع الطفل من السؤال، ثم حين يُطلب منه أن يُصدّق دون أن يفهم، ثم حين يُعاقب لأنه خالف ما اعتاد عليه الآخرون. تكبر الأسئلة معه، لكنه يتعلم إخفاءها. ويكبر فضوله، لكنه يتعلم الخجل منه. ثم يأتي يوم يصبح فيه جزءًا من الحشد الذي كان يخشاه، فيكرر ما

سمعه، ويدافع عما لم يفكر فيه، ويحارب الأفكار التي لم يمنح نفسه فرصة لفهمها.

وعندما تكتمل الدائرة، يصبح الإنسان حارسًا للسجن الذي يقيم فيه عقله، يرفض أن تُفتح أبوابه، ويخشى النور الذي قد يكشف له أنه عاش سنوات طويلة خلف قضبان غير مرئية.

ومن هنا تبدأ الحكاية...

لم يكن بطل هذه الرواية رجلًا يبحث عن الشهرة، ولا فيلسوفًا يريد أن يغيّر العالم بخطبة نارية، ولا ثائرًا يحمل سلاحًا ليواجه به أبناء قريته. كان شابًّا عاديًّا، نشأ بين الناس، وأكل من خبزهم، وشرب من مائهم، وسمع حكاياتهم منذ طفولته، حتى كادت بعض تلك الحكايات تستقر في ذهنه باعتبارها حقائق لا تقبل النقاش.

كان يرى الكبار يتحدثون بثقة عن أمور لم يشهدوها، ويحكمون على أشخاص لم يعرفوهم، ويؤكدون وقائع لا يملكون عليها دليلًا سوى أن فلانًا سمعها من فلان، وأن فلانة أقسمت بأنها رأت ذلك في المنام، وأن رجلًا عجوزًا قال يومًا إن الأمر صحيح، ولذلك لا داعي إلى البحث فيه مرة أخرى.

ومع مرور الأيام، بدأت تتسلل إلى ذهنه أسئلة لم يكن يعرف كيف يتخلص منها.

لماذا نصدّق بعض الحكايات لمجرد أننا ورثناها عن آبائنا وأجدادنا؟ وهل تصبح الفكرة صحيحة لأنها قديمة؟ وهل يتحول الخطأ إلى حقيقة إذا آمن به عدد كبير من الناس؟ ولماذا يشعر البعض بالإهانة عندما يُطلب منهم تقديم دليل على ما يقولون؟ وهل يمكن للإنسان أن يكون محبًّا لأهله ومجتمعه، وفي الوقت نفسه يرفض بعض أفكارهم ومعتقداتهم؟

كانت تلك الأسئلة تبدو بسيطة في ظاهرها، لكنها كانت تفتح أمامه أبوابًا واسعة على عالم لم يعرفه من قبل؛ عالم لا تكفي فيه الإجابات الجاهزة، ولا تُحسم فيه القضايا بعلو الأصوات، ولا تُقاس فيه الحقيقة بعدد المصفقين لها.

وفي كل مرة كان يطرح سؤالًا، كان يكتشف أن المشكلة لا تكمن دائمًا في غياب الإجابة، بل في خوف الناس من السؤال نفسه.

ذات يوم، وجد نفسه أمام موقف جعله يدرك أن السكوت عن الخطأ ليس حيادًا دائمًا، وأن بعض الأفكار لا تكتفي بالعيش داخل العقول، بل تتحول إلى قوة تتحكم في مصائر البشر، وتدفعهم أحيانًا إلى ظلم الأبرياء، واتهام المخلصين، ورفض كل محاولة للإصلاح. عندها بدأ يفهم أن الخرافة ليست مجرد قصة غريبة تُروى في مجلس عابر، وأن

الجهل ليس دائمًا نقصًا في المعلومات، بل قد يصبح نظامًا كاملًا من التفكير، يحمي نفسه بالخوف، ويستمد قوته من التكرار، ويُعاقب كل من يحاول كشف تناقضاته.

لقد رأى كيف يمكن لكلمة واحدة أن تُشعل فتنة بين عائلتين، وكيف يمكن لإشاعة أن تهدم سمعة إنسان قضى عمره في بناء مكانته، وكيف يمكن لحكاية لا أساس لها أن تتحول إلى حُكم يصدره المجتمع على شخص بريء. ورأى أيضًا كيف يقف العقل أحيانًا عاجزًا أمام سلطة العادة، وكيف يتراجع الدليل حين تتقدم العاطفة، وكيف يصبح الدفاع عن الحقيقة مغامرة قد يدفع صاحبها ثمنها من راحته وصداقاته ومكانته بين الناس.

ولم يكن الصراع الذي ينتظره صراعًا بينه وبين الجهل وحده، بل بينه وبين الخوف الذي يسكن داخله أيضًا.

فمن السهل أن ينتقد الإنسان أخطاء الآخرين وهو بعيد عنها، لكن الأصعب أن يراجع الأفكار التي تربّى عليها، وأن يعترف بأن بعض ما آمن به طويلًا قد يكون خاطئًا، وأن يواجه احتمال أن يكون قد ظلم غيره يومًا لأنه صدّق حكاية لم يتحقق منها. إن تحرير العقل لا يبدأ باتهام الناس بالجهل، بل يبدأ بالاستعداد لمراجعة الذات، وبالتواضع أمام الحقيقة،

وبالاعتراف بأن الإنسان، مهما بلغ من العلم، يظل قابلًا للخطأ.

ومن هنا، لم يعد السؤال الذي يشغل بطلنا هو: كيف أقنع الآخرين بأنني على حق؟ بل أصبح يسأل نفسه: كيف نصل جميعًا إلى الحقيقة، حتى لو اضطررنا إلى التخلي عن أفكار أحببناها، أو الاعتراف بأخطاء اعتدنا الدفاع عنها؟

غير أن الطريق إلى الحقيقة لم يكن مفروشًا بالورود. فالمجتمع الذي اعتاد إجابات محددة قد يرى في السؤال تهديدًا لاستقراره، والجماعة التي بنت مكانتها على فكرة موروثة قد تعتبر مراجعتها اعتداءً على تاريخها، والأشخاص الذين يستمدون نفوذهم من خوف الآخرين لن يقبلوا بسهولة أن يتعلم الناس كيف يفكرون بأنفسهم.

وهكذا، وجد الشاب نفسه أمام معركة لم يكن مستعدًّا لها؛ معركة لا تُرفع فيها الرايات، ولا تُسمع فيها أصوات المدافع، لكنها قد تكون أشد قسوة من الحروب الظاهرة. معركة بين من يريدون للعقل أن يرى، ومن يفضّلون له أن يبقى مغمض العينين؛ بين من يطالبون بالدليل، ومن يكتفون بترديد ما وجدوا عليه آباءهم؛ بين من يعتبرون المعرفة حقًّا للجميع، ومن يخشون أن تؤدي المعرفة إلى فقدان سلطتهم على الآخرين.

ومع كل خطوة يخطوها نحو الوعي، كان يكتشف أن الحقيقة ليست دائمًا مريحة، وأن اكتشاف الخطأ لا يعني بالضرورة أن الناس سيشكرونك على كشفه. فقد يغضب منك من أحببتهم لأنك رفضت مجاملتهم، وقد يبتعد عنك أصدقاء الأمس لأنك لم تعد تردد ما يرددونه، وقد تجد نفسك وحيدًا في لحظة تحتاج فيها إلى من يفهمك، لا لأنك أخطأت الطريق، بل لأنك اخترت طريقًا لم يعتد الآخرون السير فيه.

ومع ذلك، ظل يؤمن بأن العقل الذي يتعلم كيف يفكر لا يمكن أن يعود بسهولة إلى حالته الأولى، وأن السؤال الصادق، مهما بدا صغيرًا، قد يكون بداية تغيير كبير. فالفكرة التي يختبرها الإنسان بنفسه تصبح أكثر رسوخًا من فكرة يفرضها عليه الآخرون، والحقيقة التي يصل إليها بالبحث لا تشبه الحقيقة التي يتلقاها دون نقاش.

لكن هل يكفي أن يستيقظ عقل واحد حتى يتغير مجتمع كامل؟ وهل يستطيع شاب أن يواجه منظومة من المعتقدات الراسخة دون أن يخسر شيئًا من حياته؟ وهل كل من يرفع شعار الحقيقة يبحث عنها فعلًا، أم أن بعض الناس يستخدمونها ستارًا لمصالحهم، كما يستخدم آخرون الخرافة وسيلة لإخضاع غيرهم؟

أسئلة كثيرة ستتوالد مع أحداث الرواية، وستقود القارئ من مشهد إلى آخر، ومن مواجهة إلى أخرى، حيث لن يكون كل شيء كما يبدو، ولن تكون الشخصيات جميعها على الصورة التي تقدم بها نفسها. فبين الوجوه الهادئة قد تختبئ مخاوف عميقة، وبين الكلمات المنمقة قد تسكن مصالح ضيقة، وفي بعض المواقف التي يظن الناس أنهم يدافعون فيها عن الحقيقة، قد يكتشفون أنهم يدافعون عن أوهام ألفوها حتى صارت جزءًا من هويتهم.

إن «**اغتيال العقل**» ليست حكاية عن قرية وحدها، بل عن الإنسان أينما كان؛ عن تلك اللحظة التي يتوقف فيها عن التفكير ويبدأ في الترديد، وعن تلك المسافة الدقيقة التي تفصل بين احترام الموروث والخضوع الأعمى له، وبين الإيمان بما يملك الإنسان من أسباب وبين الاستسلام لما لا دليل عليه، وبين الانتماء إلى المجتمع والتنازل عن حقه في التفكير المستقل.

إنها دعوة إلى أن نعيد النظر في علاقتنا بالمعرفة، وأن نفهم أن احترام الإنسان لا يعني الموافقة على كل أفكاره، وأن نقد المعتقدات والأفكار لا ينبغي أن يتحول إلى إهانة لأصحابها، وأن محاربة الخرافة لا تكون بالسخرية من

البسطاء أو احتقارهم، بل بالتعليم والحوار وتوفير المعرفة وتشجيع التفكير النقدي.

فليس كل من صدّق خرافة جاهلًا بطبيعته، وليس كل من امتلك شهادة متحررًا من الأوهام. قد يقع الإنسان في الخطأ لأنه خائف، أو لأنه لم يجد من يرشده إلى مصدر موثوق، أو لأنه يعيش في بيئة تعاقب الاختلاف، أو لأنه يبحث عن تفسير سريع لأحداث يعجز عن فهمها. ولذلك فإن مواجهة الخرافة تبدأ بفهم أسباب انتشارها، ثم تقديم المعرفة التي تساعد الإنسان على التحرر منها، لا بإذلاله أو تحويله إلى عدو.

وفي قلب هذه الرواية، ستظل هناك حقيقة واحدة تفرض نفسها كلما تقدمنا في الأحداث: أن العقل لا يحتاج إلى من يفكر بدلًا منه، بل إلى من يمنحه فرصة التفكير؛ لا يحتاج إلى إجابات جاهزة بقدر ما يحتاج إلى أدوات البحث؛ ولا يحتاج إلى من يخبره دائمًا بما يجب أن يصدقه، بل إلى من يعلمه كيف يميز بين ما يستحق التصديق وما يحتاج إلى التحقق.

قد تتغير الأزمنة، وتتبدل الوجوه، وتظهر وسائل جديدة لنقل المعرفة، لكن الخطر يبقى قائمًا كلما تحولت الشائعة إلى حقيقة، والتعصب إلى فضيلة، والتقليد إلى بديل عن التفكير. وقد لا يكون اغتيال العقل حادثة تقع مرة واحدة، بل عملية

صامتة تتكرر كل يوم، حين يُمنع سؤال، أو تُحجب معلومة، أو يُشوَّه دليل، أو يُدفع إنسان إلى الخجل من استعمال عقله.

ولعل أخطر ما في هذه الجريمة أن ضحاياها قد لا يعرفون أنهم ضحايا، بل قد يتحول بعضهم إلى مدافعين عنها، يحمون القيود التي تكبلهم، ويقاومون الأيدي التي تحاول مساعدتهم على التحرر منها.

فهل سينجح بطل الرواية في كسر تلك القيود؟ وهل ستجد الحقيقة طريقها إلى عقول أغلقت أبوابها طويلًا؟ أم أن المجتمع سيحاكمه لأنه تجرأ على طرح الأسئلة التي اعتاد الجميع الهروب منها؟ وهل ستكون رحلته نحو الوعي بداية نهضة فكرية، أم بداية صراع يدفع فيه ثمن اختلافه؟

تلك هي الحكاية التي تنتظرك بين صفحات هذه الرواية؛ حكاية قد تجعلك تبتسم أحيانًا، وتغضب أحيانًا أخرى، لكنها ستدعوك في كل مرة إلى التوقف قليلًا، وإعادة النظر في بعض الأفكار التي ربما اعتدت قبولها دون أن تسأل عن أصلها أو دليلها.

فحين تطوي الصفحة الأخيرة، لن يكون السؤال الأهم هو ما الذي حدث لبطل الرواية، ولا من انتصر في صراعه مع الآخرين، بل سؤال آخر أكثر عمقًا وإلحاحًا:

كم فكرة نؤمن بها لأننا اختبرنا صحتها، وكم فكرة نؤمن بها لأننا لم نجرؤ يومًا على الشك فيها؟ ومن هنا، تبدأ رواية «**اغتيال العقل...** » من حيث تنتهي الأسئلة السهلة، وتبدأ المواجهة الحقيقية بين الإنسان وأوهامه، وبين الخوف والوعي، وبين سلطة الموروث وحرية التفكير.

فالعقل الذي لا يُسمح له بالسؤال قد يتحول إلى سجين، والعقل الذي يخشى الحقيقة قد يصبح عدوًّا لها، أما العقل الذي يتعلم كيف يبحث ويفحص ويناقش، فإنه يظل قادرًا على فتح النوافذ مهما طال إغلاق الأبواب. لأن العقول لا تتحرر حين تتلقى الأجوبة فحسب، بل حين تمتلك الشجاعة لتسأل. ولأن المجتمعات لا تتقدم بكثرة ما تردده من أفكار، بل بقدرتها على اختبار تلك الأفكار وتصحيح أخطائها، فإن معركة الوعي ستظل واحدة من أهم المعارك التي يخوضها الإنسان في سبيل كرامته ومستقبله.

فهل نملك الشجاعة لننظر إلى الحقيقة دون خوف؟ وهل نستطيع أن نحرر عقولنا قبل أن نورّث قيودها لأبنائنا؟ أم أننا سنواصل اغتيال العقل، جيلًا بعد جيل، ثم نتساءل في كل مرة:

لماذا لا نتقدم؟

عمارة عبدالمالك

التعريف بأبطال رواية
«اغتيال العقل»

1- عامر: بطل الرواية وصوت العقل

عامر شاب ريفي طموح، نشأ في قرية جزائرية صغيرة، بين أحضان الطبيعة وعادات المجتمع وتقاليده الموروثة. منذ طفولته، كان يميل إلى التساؤل والبحث عن الأسباب الحقيقية للأشياء، ولم يكن يقتنع بسهولة بما يسمعه من حكايات وأساطير تتناقلها الألسن جيلاً بعد جيل.

كان يؤمن بأن الإنسان لا يستطيع أن يبني مستقبله ما لم يتحرر من الخوف، وأن الجهل لا يُحارب بالصراخ، بل بالعلم والمعرفة والحوار.

وعندما تحصل عامر على شهادة البكالوريا، غادر قريته متوجهًا إلى الجامعة، حاملًا معه أحلامًا كبيرة وأسئلة كثيرة. وقبل رحيله، دار بينه وبين جده حوار عميق ترك أثرًا بالغًا في نفسه؛ فقد نصحه الجد بألا يجعل العلم وسيلة للتكبر على الناس، وألا يظن أن كل ما ورثه المجتمع باطل، بل أن يُخضع أفكاره للبحث والتمحيص.

في الجامعة، بدأ عامر يكتشف عالمًا مختلفًا، وراح يصطدم بأفكار وممارسات تكشف له كيف يمكن للخرافة أن

تتحول إلى سلطة، وكيف يستطيع بعض الناس استغلال خوف الآخرين لتحقيق مصالحهم. ومن هنا بدأت رحلته الحقيقية؛ رحلة لم يكن هدفها الحصول على شهادة جامعية فحسب، بل تحرير العقول من القيود التي تمنعها من التفكير.

2- الجد: حكمة الماضي وضمير التجربة

كان الجد رجلًا مسنًا، عاش سنوات طويلة بين أهل القرية، وشهد تحولات المجتمع وتبدل أحوال الناس. امتلك حكمة اكتسبها من التجربة، وكان يعرف طبائع البشر، ويدرك أن بعض العادات التي يتمسك بها الناس ليست بالضرورة صحيحة لمجرد أنها قديمة.

لم يكن الجد عدوًا للتراث، ولم يكن يدعو إلى هدم كل ما ورثته الأجيال، لكنه كان يميز بين الحكمة والخرافة، وبين القيم النبيلة والمعتقدات التي تستعبد العقول.

كان يرى في حفيده عامر أملًا لمستقبل أفضل، ولذلك حرص على توجيهه قبل مغادرته القرية. وقد أوصاه بأن يحترم الناس، وأن يتعلم منهم، وألا يتنازل عن الحقيقة خوفًا من غضب المجتمع.

يمثل الجد في الرواية الجسر الذي يربط بين الماضي والحاضر، ويجسد فكرة أن الحكمة الحقيقية ليست في

التمسك الأعمى بالموروث، وإنما في القدرة على التمييز بين ما يستحق البقاء وما ينبغي تجاوزه.

3 - **الأب:** رجل بسيط بين ضرورات الحياة وموروث المجتمع. يمثل الأب صورة الرجل الذي نشأ في بيئة ريفية تحكمها العادات والتقاليد، فاعتاد احترام ما يقوله الكبار، وتجنب الدخول في نقاشات قد تثير الخلاف بين أفراد المجتمع.

كان حريصًا على مستقبل ابنه، ويتمنى أن يراه ناجحًا ومتعلمًا، لكنه لم يكن يدرك دائمًا حجم الصراع الذي ينتظر عامر عندما يبدأ في مناقشة بعض المعتقدات السائدة.

ومن خلال هذه الشخصية، تكشف الرواية عن الفجوة التي قد تنشأ داخل الأسرة الواحدة بين جيل تربى على التسليم بالموروث، وجيل جديد يسعى إلى الفهم والتحليل.

فالأب ليس عدوًا للعلم، وإنما هو ابن بيئته وظروفه، وقد يحتاج إلى وقت حتى يدرك أن السؤال لا يعني التمرد، وأن التفكير لا يعني احتقار الماضي.

4 - **الأم:** قلب الأسرة وملاذ الأمان

الأم امرأة ريفية بسيطة، تحمل في قلبها حبًا عميقًا لابنها عامر ، وتخشى عليه من قسوة الحياة ومن صراعات المجتمع.

لم تكن تملك من العلم ما يسمح لها بمناقشة الأفكار الفلسفية أو العلمية المعقدة، لكنها كانت تمتلك فطرة إنسانية سليمة، تجعلها تشعر بأن مستقبل ابنها يستحق التضحية والصبر.

كانت تخاف من ابتعاده عن القرية، كما تخاف من أن يصبح غريبًا عن أهله بسبب أفكاره الجديدة. ومع ذلك، ظل قلبها متعلقًا بنجاحه وسعادته. وتكشف الأم من خلال مواقفها أن الحب وحده قد لا يكفي لفهم الآخرين، لكنه يستطيع أن يكون بداية الطريق نحو التفاهم والتغيير.

5- الشيخ المشعوذ: تاجر الخوف والأوهام

شخصية محورية في الصراع الفكري الذي تتناوله الرواية، يمثل نموذج الإنسان الذي يستغل حاجة الناس إلى الطمأنينة، فيحول مخاوفهم إلى وسيلة للسيطرة عليهم.

كان يتحدث بلغة غامضة، ويحيط نفسه بهالة من الأسرار، ويستفيد من استعداد بعض الناس لتصديق كل ما يعجزون عن تفسيره. وكلما واجهته الأسئلة، لجأ إلى التهويل وإثارة الخوف بدل تقديم الأدلة. لم تكن قوته الحقيقية في امتلاك معرفة خارقة، بل في قدرته على استغلال الجهل والظروف الاجتماعية الصعبة، وإقناع الآخرين بأن الاعتراض

عليه قد يجلب لهم المصائب. وعندما يبدأ عامر في مساءلة أفكاره وممارساته، يشعر الشيخ «فاضل» بأن مكانته أصبحت مهددة، فيحاول تشويه صورة الشاب واتهامه بأنه يريد زعزعة استقرار المجتمع.

ومن خلال هذه الشخصية، تطرح الرواية سؤالًا مهمًا: كيف يمكن للإنسان أن يتحول إلى أسير لشخص آخر، لا لأنه أقوى منه، بل لأنه يخاف مما لا يعرفه؟

06- عائشة: الفتاة التي أرادت أن تتعلم

إن عائشة ليست مجرد فتاة حُرمت من دخول الجامعة، بل هي رمز لكل إنسان يسعى إلى المعرفة، فيجد أمامه من يحاول إغلاق أبواب المستقبل في وجهه. ومن خلال معاناتها، تؤكد الرواية أن «**اغتيال العقل**» لا يحدث دائمًا بالقوة والعنف، بل قد يبدأ بكلمة مضللة، أو نصيحة زائفة، أو خوف يتحول إلى قرار يحطم حياة إنسان.

وهكذا تصبح عائشة إحدى الشخصيات التي تمنح الرواية عمقها الإنساني والفكري، وتجعل قضية محاربة الخرافة قضية تتجاوز الجدل النظري، لتلامس حياة الناس وأحلامهم وحقوقهم في اختيار مستقبلهم.

7- والد عائشة: يرفض دخول ابنته الجامعة

والد عائشة معلم متقاعد، يمثل شخصية الأب الذي استسلم للخوف والأفكار الخاطئة وتأثير الشيخ فاضل، فرفض السماح لابنته بمواصلة دراستها الجامعية وتحقيق حلمها في دراسة الطب. وقد جسّد موقفه الصراع بين العقل والخرافة، وبين الرغبة في حماية الأبناء وحرمانهم من حقوقهم. ومن خلال هذه الشخصية، تكشف رواية «**اغتيال العقل**» كيف يمكن للجهل والتعصب أن يدمّرا أحلام الشباب ويعطّلا مسيرة العلم والتقدم.

8- **جعفر**: والد الطفل المتوفى

جعفر رجل من أبناء القرية، عاش مأساة قاسية بعد وفاة طفله، فغلبه الحزن والخوف، وأصبح يبحث عن تفسير لما حدث لابنه. وفي ظل الألم والحيرة، وقع تحت تأثير الخرافات وأقوال المشعوذين، معتقدًا أنهم قادرون على كشف أسباب المصيبة. ويجسد جعفر في الرواية صورة الأب الحائر الذي يستغل المشعوذون ضعفه وحزنه، فيصبح ضحية للخرافة بدلًا من البحث عن الحقيقة بعقل واعٍ وتفكير سليم. ومن خلال شخصيته، نكشف كيف يمكن للجهل والخوف أن يقودا الإنسان إلى تصديق الأوهام واتخاذ قرارات تزيد معاناته.

9 – **الطبيب كمال**: صوت العلم والعقل

كمال طبيب شاب عاد إلى قريته بعد سنوات من الدراسة والعمل، حاملًا معه العلم والمعرفة والرغبة في خدمة أهل قريته. وقد صدمه انتشار الخرافات وسيطرة المشعوذين على عقول بعض السكان، خاصة عندما يتعلق الأمر بالأمراض والمصائب التي تحتاج إلى تفسير علمي وعلاج مناسب. قرر كمال أن يؤدي رسالته الإنسانية، فواجه الجهل بالحوار، والأوهام بالحقيقة، والخوف بالتوعية، محاولًا إقناع الناس بأن المرض لا يُعالج بالشعوذة، وأن إنقاذ الأرواح يتطلب اللجوء إلى الطب والعلم. ويمثل كمال في الرواية رمزًا للعلم.

10- العم عاشور: الرجل الذي يخشى مخالفة الجماعة

رجل من أبناء القرية، يحظى باحترام بعض أهلها، ويؤمن بأن الحفاظ على استقرار المجتمع يقتضي عدم التشكيك في المعتقدات والعادات المتوارثة.

ليس شريرًا بطبيعته، لكنه يخشى التغيير، ويعتقد أن الأسئلة التي يطرحها عامر قد تفتح أبوابًا للخلاف والاضطراب.

يمثل العم عاشور فئة من الناس الذين قد يدركون بعض الأخطاء، لكنهم يفضلون الصمت خشية فقدان مكانتهم الاجتماعية أو الدخول في مواجهة مع المحيط الذي يعيشون فيه. وتتطور مواقفه كلما اشتد الصراع بين عامر والمدافعين

عن الخرافة، ليصبح مثالًا على الصراع الداخلي بين قناعة الإنسان الشخصية وضغط الجماعة.

11 - وليد: الصديق الذي يختار طريق الحقيقة

وليد شاب يتعرف إليه عامر خلال دراسته الجامعية، ويصبح أحد أقرب أصدقائه. يتميز بالفضول الفكري وحب النقاش، لكنه أكثر حذرًا في التعبير عن آرائه، خاصة عندما تتعارض مع أفكار المحيطين به. يساعد عامر على فهم بعض القضايا العلمية والاجتماعية، ويشاركه البحث عن الأسباب التي تجعل الخرافات تستمر رغم تقدم المعرفة. غير أن وليد يمر بدوره بلحظات من التردد، إذ يكتشف أن الدفاع عن الحقيقة ليس دائمًا أمرًا سهلًا، وأن بعض الناس قد يرفضون الفكرة الصحيحة لمجرد أنها تهدد مصالحهم أو تصوراتهم القديمة.

وتؤكد هذه الشخصية أن الصداقة الحقيقية لا تقوم على الاتفاق الدائم، بل على القدرة على الحوار والاختلاف دون أن يفقد الإنسان احترامه للآخر.

12- الحاج احمد: صاحب النفوذ الاجتماعي

الحاج احمد رجل معروف في القرية، يمتلك مكانة اجتماعية تجعله مؤثرًا في مواقف كثير من السكان. يحرص

على بقاء الأمور كما اعتادها الناس، لأن التغيير قد يهدد نفوذه أو يضعه أمام أسئلة لا يرغب في مواجهتها. لا يعتمد بالضرورة على الخرافة لأنه يؤمن بها جميعًا، بل لأنه يدرك أن بعض المعتقدات تمنح أصحاب النفوذ قدرة على توجيه الآخرين.

وتكشف هذه الشخصية جانبًا آخر من المشكلة؛ فبعض الخرافات لا تستمر بسبب الجهل وحده، وإنما قد تستفيد منها مصالح اجتماعية واقتصادية تجعل التغيير أمرًا غير مرغوب فيه لدى بعض الأطراف.

13 - نصيرة: المرأة التي حاصرها الاتهام

نصيرة أرملة تعيش في طرف القرية مع ابنها سالم، الذي بلغ الخامسة عشرة من عمره. تعمل في الخياطة لتوفر لقمة العيش وتربي ابنها في ظروف قاسية، بعدما وجدت نفسها وحيدة في مواجهة أعباء الحياة.

لكن حياة نصيرة لم تكن صعبة بسبب الفقر وحده؛ فقد لاحقتها شائعة قديمة جعلت منها ضحية لأفكار متخلفة وأحكام ظالمة. اتهمتها بعض نساء القرية بأنها امرأة منحوسة، وأنها السبب في مرض جاراتها وما يصيب بعض الأسر من مصائب، دون أن يملكن دليلًا واحدًا يثبت ادعاءاتهن.

كانت نصيرة تتحمل نظرات الاحتقار والهمسات الجارحة بصمت، وتخفي وراء هدوئها ألمًا عميقًا لا يعرفه أحد. لم تكن تريد سوى أن تعيش بكرامة، وأن ترى ابنها يكبر بعيدًا عن الإهانات التي تطاردها.

تمثل نصيرة في الرواية ضحايا الخرافات والشائعات، وتكشف معاناتها كيف يستطيع الجهل أن يحول إنسانًا بريئًا إلى متهم في أعين المجتمع، دون محاكمة أو دليل أو رحمة.

14- سالم: ابن نصيرة - ضحية الخرافة

سالم فتى في الخامسة عشرة من عمره، يعيش مع أمه نصيرة، ويجد نفسه في مواجهة قسوة اجتماعية لم يرتكب ذنبًا يستحقها.

كان يذهب إلى المدرسة أو يلتقي بأقرانه، فيسمع كلمات جارحة عن أمه، ويتعرض أحيانًا للسخرية بسبب الشائعات التي التصقت بها. وكان يعود إلى البيت مثقلًا بالحزن، محاولًا إخفاء ألمه حتى لا يزيد معاناة أمه.

لم يكن سالم يفهم لماذا يكره بعض الناس أمه، ولا كيف يمكن أن يصدقوا اتهامات لا دليل عليها. وكان السؤال الذي يؤرقه دائمًا: كيف يحكم الناس على إنسان من خلال كلام الآخرين، بدلًا من النظر إلى أفعاله وأخلاقه؟

يمثل سالم الأطفال والمراهقين الذين يدفعون ثمن الخرافات والأحكام المسبقة التي يتبناها المجتمع. ومن خلال شخصيته، نبرز الأثر النفسي للتنمر والشائعات على الأبناء، ويدعو إلى بناء مجتمع يحترم كرامة الإنسان ولا يعاقب الأبرياء على أوهام الآخرين.

15- خالد: زميل الدراسة

خالد هو زميل سالم، ورفيقه الذي يشاركه بعض تفاصيل حياته اليومية. تجمعهما علاقة صداقة تنمو وسط أجواء القرية والدراسة وما يسودها من أحاديث وشائعات ومعتقدات متوارثة.

يمثل خالد شخصية الصديق الذي يجد نفسه أمام اختبار حقيقي: هل ينساق وراء ما يقوله الناس عن نصيرة، أم يقف إلى جانب صديقه ويبحث عن الحقيقة؟

ومن خلال علاقته بسالم، تتاح للرواية فرصة لإبراز الصراع بين ضغط الجماعة ونداء الضمير. فالصداقة الحقيقية لا تُقاس بوقت الراحة والمرح وحده، بل تظهر قيمتها عندما يتعرض أحد الأصدقاء للظلم ويحتاج إلى من يسانده.

ويمكن أن يؤدي خالد دورًا مهمًا في تطور الأحداث، من خلال مساعدة سالم على مواجهة التنمر، وتشجيعه على

عدم الاستسلام لكلام الناس، والمشاركة في كشف زيف الاتهامات التي تطارد أمه.

إن شخصية خالد تذكر القارئ بأن الصمت أمام الظلم قد يزيده قوة، بينما يمكن للموقف الصادق والشجاع أن يفتح بابًا للأمل والتغيير.

16 –أم الخير: المرأة التي تحمل أسرار القرية

أم الخير امرأة من نساء القرية، ترتبط شخصيتها بالأجواء الاجتماعية التي تتحرك فيها أحداث الرواية. ويمكن أن تكون من الشخصيات المؤثرة في انتشار الحكايات والمعتقدات الشعبية، أو من اللواتي يبدأن في مراجعة ما يؤمن به الناس عندما تظهر الحقائق.

تحمل شخصيتها أهمية خاصة في سياق الرواية؛ لأن بعض الخرافات لا تستمر بقوة المشعوذين وحدهم، بل تجد طريقها إلى عقول الناس عن طريق الحكايات المتناقلة، والتأويلات الخاطئة للأحداث، والخوف من المجهول.

ومن خلال أم الخير، نستطيع أن نصور كيف تنتقل الشائعة من مجلس إلى آخر، وكيف تتحول كلمات عابرة إلى أحكام قاسية تؤثر في حياة الآخرين. ويمكن أن تتطور شخصيتها مع تقدم الأحداث، فتواجه مسؤولية ما قالته أو

ساهمت في نشره، وتكتشف أن الكلمة التي يطلقها الإنسان دون تفكير قد تترك جرحًا عميقًا في حياة بريء.

إن أم الخير ليست مجرد شخصية ثانوية، بل يمكن أن تكون مفتاحًا لفهم البيئة الاجتماعية التي سمحت للخرافة بأن تتحول إلى قوة تتحكم في مصائر الناس.

دلالة هذه الشخصيات في رواية «اغتيال العقل»

تضيف شخصيات نصيرة و سالم وخالد وأم الخير بُعدًا إنسانيًا واجتماعيًا إلى الرواية، إذ تنقل الصراع من مجرد مواجهة بين العقل والخرافة إلى معاناة يومية يعيشها أشخاص حقيقيون في مجتمع تحكمه الشائعات والأحكام المسبقة.

فنصيرة تمثل الإنسان البريء الذي يقع ضحية للجهل، و سالم يمثل الجيل الصاعد الذي يعاني نتائج تلك المعتقدات، وخالد يمثل الصداقة والوفاء في مواجهة ضغط المجتمع، بينما تجسد أم الخير الدور الذي قد تؤديه الأحاديث الشعبية في ترسيخ الخرافة أو المساهمة في كشفها.

ومن خلال هذه الشخصيات، تؤكد الرواية أن الخرافة ليست مجرد فكرة خاطئة، بل قد تتحول إلى سلاح يهدم

العلاقات الإنسانية، ويزرع الخوف في النفوس، ويظلم الأبرياء، ويحرم الإنسان من حقه في العيش بكرامة.

17 - **أهل القرية**: الشخصية الجماعية للمجتمع

لا تكتمل صورة الرواية دون أهل القرية، فهم ليسوا كتلة واحدة، بل مجموعة من الشخصيات المختلفة في أفكارها ومواقفها ومصالحها. منهم من يتمسك بالخرافة عن اقتناع، ومنهم من يصدقها خوفًا، ومنهم من يشك فيها لكنه لا يجرؤ على التصريح بذلك، ومنهم من يبحث عن الحقيقة لكنه يحتاج إلى من يساعده على فهمها.

وبين هؤلاء جميعًا يتحرك عامر، محاولًا أن يفتح نافذة للحوار، وأن يثبت أن احترام الناس لا يعني الموافقة على كل ما يقولونه، وأن نقد الفكرة لا يعني الإساءة إلى صاحبها.

ومع تطور الأحداث، تصبح القرية ساحة لصراع أوسع من الخلاف بين شاب ورجل أو بين جيلين؛ إنها ساحة مواجهة بين التفكير الحر والاستسلام، وبين الدليل والوهم، وبين الخوف والشجاعة.

ختام التعريف بالشخصيات

تتعدد شخصيات رواية «**اغتيال العقل**»، وتتباين مواقفها، لكنها تلتقي جميعًا عند قضية واحدة: مصير العقل الإنساني عندما يقع تحت سلطة الخوف والجهل والتضليل.

ومن خلال رحلة عامر من القرية إلى الجامعة ثم عودته إلى مواجهة قضايا مجتمعه، حاولت أن اطرح أسئلة تتجاوز حدود المكان والزمان: لماذا يصدق الإنسان ما لا يستطيع إثباته؟ ولماذا يخاف بعض الناس من المعرفة؟ وكيف تتحول الخرافة إلى قوة تتحكم في حياة الأفراد والجماعات؟ إنها رواية عن الإنسان الذي يبحث عن الحقيقة، وعن المجتمع الذي يقف أحيانًا بين الرغبة في التغيير والخوف منه، وعن العقل الذي قد يُحاصر طويلًا، لكنه يظل قادرًا على استعادة حريته متى امتلك الإنسان الشجاعة ليسأل ويفكر ويتحقق.

هكذا تصبح رواية «**اغتيال العقل**» دعوة إلى التفكير قبل التصديق، والتحقق قبل إصدار الأحكام، والاحتكام إلى الدليل بدلًا من الاستسلام للخوف والأوهام.

عمارة عبدالمالك

الفصل الأول:
القرية التي تخاف السؤال

لم تكن قرية «عين النسر» تختلف كثيرًا عن القرى الجزائرية المنتشرة عبر الجبال والسهول، تلك القرى التي تستيقظ مع أول خيط من خيوط الفجر، حين تتعالى أصوات الديكة من وراء الأسوار الطينية، وتخرج النساء إلى الأفنية لجلب الماء وإشعال المواقد، بينما يتجه الرجال إلى الحقول أو الأسواق، يحملون على أكتافهم هموم الحياة وأحلامًا صغيرة لا تكاد تتجاوز حدود يومهم .

كانت «عين النسر» تستند إلى سفح جبل عتيق، تحيط بها أشجار الزيتون واللوز والتين، وتتخلل بيوتها أزقة ضيقة تتعرج كأنها تحفظ أسرار الأجيال التي مشت فوق حجارتها. وفي أسفل القرية كان جدول صغير يشق طريقه بين الصخور، لا يجري فيه الماء إلا شتاءً، لكنه ظل يحمل اسم الوادي حتى في السنوات التي جف فيها تمامًا.

وعلى الرغم من بساطة الحياة فيها، كانت القرية تبدو للناظر من بعيد مكانًا هادئًا، تسوده الألفة، وتجمع أهله روابط القرابة والجوار، وتظل أبواب البيوت مفتوحة في المناسبات والأفراح والأحزان.

لكن القرية كانت تخفي وراء هدوئها عالمًا آخر لا يظهر للغرباء.وراء ذلك الهدوء كانت تختبئ حكاية أخرى.

حكاية قرية يخشى أهلها من أشياء كثيرة، غير أنهم كانوا يخشون السؤال أكثر من أي شيء آخر.

لم يكن الخوف في «عين النسر» يأتي دائمًا من الظلام أو من أصوات الرياح التي تعوي بين الجبال، بل كان يأتي أحيانًا من كلمة يتفوه بها طفل، أو من سؤال تطرحه فتاة، أو من رجل يحاول أن يفهم سبب مرض أو موت أو حادثة لم يجد الناس لها تفسيرًا.

كان السؤال، في نظر بعضهم، بابًا للمشكلات، والبحث عن الحقيقة مغامرة لا تحمد عقباها، أما من يجرؤ على مناقشة الحكايات المتوارثة، فسرعان ما يجد نفسه متهمًا بقلة الاحترام، أو ضعف الإيمان، أو التمرد على تقاليد الآباء والأجداد.

كان أهلها يؤمنون بأشياء كثيرة لا يستطيعون تفسيرها، ويخافون أشياء أكثر مما يعرفون. كانوا يعلقون قطع القماش على أبواب بيوتهم اتقاءً للعين، والعجلات المطاطية تُعلق فوق الأسطح، ويرشون الملح عند العتبات، ويضعون حدوة حصان على المداخل، ويستدعون أصحاب الأسرار كلما أصاب أحد أطفالهم مرض، أو تأخرت فتاة عن الزواج، أو ذبلت شجرة زيتون دون سبب واضح.وهكذا، شيئًا فشيئًا، تحولت بعض الحكايات إلى حقائق لا يجوز الاقتراب منها، وصارت كلمات

بعض الأشخاص أقوى من الأدلة، وأصبح الصمت فضيلة حتى عندما يكون الكلام ضرورة.

لم يكن جميع أهل القرية على هذا الحال؛ فقد كان بينهم رجال ونساء طيبون، يؤمنون بالعلم والعمل، ويعرفون قيمة التفكير، لكنهم كانوا أقلية صامتة، لا تملك دائمًا الشجاعة لمواجهة تيار اعتاد السير في اتجاه واحد.

وفي قلب هذه القرية بدأت حكاية عامر.

1- طفل يسأل أكثر مما ينبغي

كان عامر طفلًا في العاشرة من عمره، نحيل الجسم، واسع العينين، كثير التأمل، لا تفوته حركة صغيرة ولا تمر أمامه حادثة من دون أن يحاول فهمها .

كان يعيش مع والديه في منزل متواضع يقع بالقرب من المدرسة الابتدائية، في بيت تتوسطه ساحة صغيرة تنمو في ركنها شجرة تين عجوز، اعتادت أمه أن تجلس تحتها في أمسيات الصيف وهي تخيط الملابس أو تصلح ما تمزق منها.

كان أبوه رجلًا بسيطًا، يعمل في الأرض حين يتوفر العمل، ويذهب إلى السوق أحيانًا ليبيع ما تجود به مزرعة صغيرة يشارك فيها أحد أقاربه. أما أمه فكانت امرأة صبورة، تؤمن

بأن العلم هو الطريق الذي يمكن أن يخرج أبناءها من ضيق الحياة إلى رحاب أوسع.

منذ سنواته الأولى، كان عامر يختلف عن أقرانه في أمر واحد: لم يكن يكتفي بسماع الحكاية، بل كان يريد معرفة السبب.

إذا رأى نملة تحمل قطعة خبز أكبر من حجمها، جلس يتابعها حتى تختفي في شق من شقوق الجدار.

وإذا رأى سحابة سوداء تتجمع فوق الجبل، سأل أباه عن سبب نزول المطر. وإذا سمع الرعد في ليلة شتوية، لم يكتفِ بالاختباء تحت الغطاء، بل كان يخرج رأسه من النافذة ويتأمل السماء، محاولًا أن يفهم كيف يصدر ذلك الصوت الهائل.

وذات يوم، بينما كان يجلس إلى مائدة الطعام مع والديه، سمع صوتًا غريبًا يأتي من الخارج. كان كلب الجيران ينبح بعنف، ثم تعالت أصوات بعض النساء في الزقاق.

نهض الأب من مكانه ونظر عبر النافذة .

قالت الأم بقلق:

- ما الذي يحدث؟

أجاب الأب:

- يبدو أن ابن عمي مريض مرة أخرى .

رفع عامر رأسه وسأل:

- ولماذا يمرض كلما اشتد البرد؟

نظر إليه أبوه وقال:

- لأن جسمه ضعيف، ولأن البرد يؤثر فيه.

فكر الطفل قليلًا، ثم تابع:

- وإذا كان البرد هو السبب، فلماذا لا يمرض جميع الناس في الوقت نفسه؟

توقف الأب عن تناول الطعام، ونظر إلى ابنه نظرة امتزج فيها الاستغراب بشيء من الضيق.

- يا بني، لا تسأل عن كل شيء. بعض الأمور يعرفها الكبار أكثر منك.

لم يقتنع عامر، لكنه صمت.

لم يكن يريد إحراج أبيه، ولم يكن يبحث عن الجدال من أجل الجدال، بل كان يشعر أن لكل شيء سببًا، وأن معرفة السبب أفضل من البقاء في الظلام.

في تلك الليلة، ظل مستيقظًا وقتًا طويلًا، يتأمل سقف الغرفة المظلمة.

قال في نفسه:

«إذا كان الكبار يعرفون كل شيء، فلماذا يختلفون فيما بينهم؟ وإذا كان لكل مرض سبب، فلماذا يفسرونه أحيانًا بأشياء لا يستطيع أحد رؤيتها؟»

لم يجد جوابًا. لكنه أدرك، من دون أن يعرف كيف يصوغ ذلك في كلمات، أن بعض الأسئلة قد تكون مزعجة للآخرين، حتى عندما تكون بريئة.

حين أخبره أحدهم أن البومة تجلب الموت إذا وقفت فوق سطح المنزل، سأل:

- وإذا وقفت البومة فوق شجرة الزيتون، فهل تموت الشجرة أيضًا؟

ضحك الأطفال. لكن أحد الرجال الذين سمعوا السؤال، قال لأبيه:

- ابنك كثير الأسئلة يا الطاهر. انتبه إليه، فليس كل ما يُعرف يُقال. لأن القرية لم تكن تتقبل أسئلته دائمًا؛ فبعض أهلها كانوا يرون في كثرة التساؤل خروجًا عن المألوف، بينما كان آخرون يصفونه بالطفل العنيد الذي لا يقتنع بسهولة. أما جده، فكان يراقبه بصمت، ويبتسم كلما رآه يناقش الكبار، ثم يقول له:

«يا بني، لا عيب في السؤال، ولكن العيب أن ترفض الحقيقة لأنك اعتدت تصديق غيرها. تعلّم أن تفكر بعقلك، ولا تجعل الخوف يقودك إلى حيث يريد الآخرون.»

كانت كلمات الجد تستقر في ذاكرة عامر، دون أن يدرك آنذاك أنها ستصبح يومًا ما سلاحه الأقوى في مواجهة الجهل والخرافة.

لقد كانت تلك المغامرات البسيطة في القرية بداية رحلة طويلة، رحلة طفل نشأ في قرية تحكم بعض عقول أهلها حكايات قديمة ومعتقدات راسخة، لكنه كان يحمل في داخله بذرة الشك الإيجابي، ورغبة صادقة في معرفة الحقيقة. ولم يكن عامر يعلم أن مغامرات الطفولة، التي بدت يومًا مجرد ألعاب واكتشافات بريئة، ستقوده لاحقًا إلى مواجهة أفكار متجذرة في المجتمع، وأن معركته الحقيقية لن تكون مع الأشباح التي يخشاها الناس، بل مع الخوف الذي يسكن عقولهم، ويجعلهم يرون الوهم حقيقة، والحقيقة خطرًا يجب الهروب منه.

2- درس في المدرسة ودرس خارجها

في صباح اليوم التالي، دخل عامر إلى المدرسة وهو يحمل محفظته القديمة، وقد بدت على وجهه علامات السهر والتفكير.

كانت المدرسة مبنى بسيطًا ذا جدران باهتة، تتوسطه ساحة ترابية، وتحيط به أشجار قليلة قاومت الجفاف والإهمال. في القسم، وقف المعلم أمام السبورة وكتب بخط واضح:

«المعرفة تبدأ بالسؤال.»

ثم استدار نحو التلاميذ وقال:

- من يخبرني كيف يتعلم الإنسان؟

رفع أحد التلاميذ يده وقال:

- بالحفظ يا أستاذ.

أجاب المعلم:

- الحفظ مهم، لكنه ليس كل شيء.

ماذا أيضًا؟

قالت تلميذة تجلس في الصف الأمامي:

- بالمطالعة .

ابتسم المعلم.

- أحسنتِ. وماذا عن التجربة والملاحظة؟

رفع عامر يده.

- يا أستاذ، هل يمكن أن يكون الإنسان متعلمًا إذا حفظ كل شيء، لكنه لم يفهمه؟

توقف المعلم لحظة، ثم أجاب:

- قد يحفظ الإنسان كتبًا كثيرة، لكنه إذا لم يفهم ما يحفظه، ولم يستطع أن يميز بين الصحيح والخطأ، فإن علمه يبقى ناقصًا .

قال عامر:

- وهل يجوز لنا أن نسأل عن كل ما نتعلمه؟

أجاب المعلم:

- بل ينبغي لكم أن تسألوا، بشرط أن يكون هدفكم الفهم، لا السخرية من الآخرين أو إهانتهم. السؤال الصادق لا يسيء إلى أحد، وإنما يساعدنا على اكتشاف ما نجهله.

شعر عامر بشيء من الراحة، وكأنه وجد أخيرًا شخصًا لا يخاف من أسئلته.

لكن أحد التلاميذ، رفع يده وقال:

- يا أستاذ، أبي يقول إن كثرة الأسئلة تجعل الطفل قليل الأدب، وإن عليه أن يسمع كلام الكبار من دون مناقشة.

لم يغضب المعلم، بل وضع الطباشير على الطاولة وقال:

- يا بني، احترام الكبار واجب، لكن الاحترام لا يعني أن نتوقف عن التفكير. يمكنك أن تحترم والدك، وفي الوقت نفسه

تسأله عن السبب. ويمكنك أن تختلف مع شخص أكبر منك سنًا، ما دمت تتحدث بأدب. ثم أضاف:

- ليس كل ما يقوله الكبير صحيحًا لمجرد أنه كبير، وليس كل ما يقوله الصغير خطأ لمجرد أنه صغير. الحقيقة لا تتغير بحسب عمر من ينطق بها.

ساد القسم صمت قصير.

كان بعض التلاميذ يستمعون باهتمام، بينما تبادل آخرون النظرات، وكأنهم يسمعون كلامًا لم يعتادوا سماعه في بيوتهم.

أما عامر، فقد شعر أن نافذة صغيرة انفتحت في جدار كان يظنه صلبًا.

بعد انتهاء الدرس، اقترب من المعلم وسأله:

- يا أستاذ، هل يمكن أن أسألك عن شيء حدث في قريتنا؟

قال المعلم مبتسمًا:

- بالطبع، تفضل.

حكى له عامر عن الحديث الذي سمعه في الساحة، وعن غضب الرجال عندما سألهم عن الشيخ فاضل.

استمع المعلم باهتمام، ثم قال:

- يا عامر، تذكر دائمًا أن الناس لا يخافون من السؤال بالطريقة نفسها. بعضهم يحب أن يفهم، وبعضهم يخشى أن

يكتشف أنه كان مخطئًا. وهناك من تعود أن يجد في إجابات معينة راحة، فيغضب عندما يطلب منه أحد أن يتحقق منها.

سأله عامر:

- وهل يعني ذلك أن كل ما يقوله الشيخ فاضل خطأ؟

أجاب المعلم بحزم هادئ:

- لا يجوز أن نحكم على كل كلامه من دون فحصه، كما لا يجوز أن نصدقه من دون دليل. علينا أن نميز بين النصيحة المفيدة والادعاء الذي لا يستند إلى معرفة. وإذا مرض إنسان، فمن واجبه أن يبحث عن العلاج عند الطبيب، لا أن يكتفي بتفسيرات تزيد خوفه.

ثم اقترب من عامر وقال:

- هناك فرق كبير بين الإيمان بالخالق، وبين تصديق كل حكاية يرويها الناس باسمه. العقل نعمة، والعلم لا يطلب منك أن تتخلى عن إيمانك، بل أن تفهم العالم الذي تعيش فيه، وأن تتثبت قبل أن تحكم على الآخرين.

ظل عامر يفكر في هذه الكلمات طوال طريق عودته إلى المنزل. كانت تلك أول مرة يسمع فيها شخصًا يشرح له أن احترام الناس لا يقتضي التسليم بكل ما يقولونه، وأن التفكير ليس عيبًا، وأن الحقيقة لا ينبغي أن تخاف من السؤال. لكنه

لم يكن يعلم أن هذا الدرس البسيط سيضعه، يومًا ما، في مواجهة مجتمع بأكمله.

3- حكاية الظل الذي يتحرك

مع حلول المساء، انتشر خبر غريب في «عين النسر» قالت إحدى النساء إنها رأت ظلًا يتحرك خلف نافذة منزل مهجور يقع عند أطراف القرية، رغم أن البيت لم يسكنه أحد منذ سنوات.

كانت الحكاية في بدايتها مجرد جملة عابرة، لكن الخوف أخذ يضيف إليها تفاصيل جديدة مع كل مرة تُروى فيها.

قالت امرأة إنها سمعت بكاءً يأتي من داخل البيت. وأكد رجل أنه رأى ضوءًا أزرق خلف النافذة. أما صبي صغير، فأقسم أنه لمح رجلًا طويلًا يقف فوق السطح ثم اختفى فجأة.

وبحلول الليل، أصبح المنزل المهجور في أحاديث الناس مكانًا لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه.

في اليوم التالي، اجتمع عدد من الرجال أمام الدكان، وكان الحديث يدور حول البيت.

قال أحدهم:

- لا بد أن وراء الأمر سرًا خطيرًا.

وقال آخر:

- لقد سمعت أن المكان كان مسكونًا منذ زمن بعيد.

وأضاف ثالث:

- أظن أن أحدًا لا يستطيع الاقتراب منه من دون أن يصيبه مكروه.

كان عامر واقفًا بالقرب من الدكان، يستمع إلى كل كلمة.

رفع رأسه وسأل:

- هل ذهب أحد منكم إلى هناك ليتحقق مما يحدث؟

التفت إليه رجل ممتلئ الجسم، وقال:

- أتريد أن تذهب بنفسك؟

أجاب عامر:

- لا أريد أن أذهب وحدي، لكن يمكننا أن نذهب نهارًا ونرى ما هناك.

ضحك الرجل.

- وهل تظن أن الأمر بهذه البساطة؟

قال عامر:

- إذا كان هناك شخص داخل البيت، فسنراه. وإذا كان هناك ضوء، فسنبحث عن مصدره. وإذا كان الصوت يأتي من مكان آخر، فسنحاول معرفة ذلك.

تغيرت ملامح الرجل.

- أنت لا تفهم. بعض الأماكن لا ينبغي الاقتراب منها.

سأل عامر:

- وكيف عرفتم ذلك إذا لم يقترب منها أحد؟

تدخل رجل آخر قائلًا:

- كفى أسئلة يا ولد! ألا تخاف من أن يصيبك مكروه؟

أجاب عامر بصوت هادئ:

- أخاف من أشياء كثيرة، لكنني أخاف أيضًا من أن أصدق شيئًا غير صحيح لمجرد أن الجميع يصدقونه.

لم يرد أحد.

وبعد لحظات، قال رجل كان يستمع إلى الحديث:

- هذا الولد يحتاج إلى من يعلمه كيف يتكلم مع الناس.

ثم انصرف وهو يهز رأسه.

لم يفهم عامر لماذا تحول الحديث عن بيت مهجور إلى خلاف حول شخصه، لكنه بدأ يدرك أن بعض الناس لا يرون في السؤال محاولة للفهم، بل تحديًا لسلطتهم.

في تلك الليلة، جلس إلى جوار أمه تحت شجرة التين، وأخبرها بما حدث. ابتسمت الأم ابتسامة خفيفة وقالت:

- يا بني، لا تجعل رغبتك في المعرفة تدفعك إلى التهور. إذا أردت أن تعرف حقيقة شيء، فابحث عنها بعقلك، واستعن بأهل العلم، ولا تعرض نفسك للخطر.

سألها:

- لكن لماذا يغضب الناس عندما نسأل؟

نظرت إليه طويلًا، ثم قالت:

- لأن بعض الناس اعتادوا أن يعيشوا مع أفكار معينة سنوات طويلة، حتى تصبح جزءًا من حياتهم. فإذا جاء من يسألهم عنها، شعروا كأنهم هم الذين يتعرضون للهجوم.

قال عامر:

- لكنني لا أريد أن أهاجم أحدًا.

أجابت الأم:

- أعرف ذلك. لكن ليس كل الناس يفهمون نيات الآخرين. ولهذا عليك أن تكون حكيمًا في كلامك، صبورًا في بحثك، وألا تتخلى عن عقلك من أجل إرضاء أحد.

اقترب منها ووضع رأسه على كتفها.

كانت كلماتها تمنحه الطمأنينة، لكنها لم تكن كافية لتبديد الأسئلة التي أخذت تتكاثر في ذهنه.

4 - أبٌ يخشى على ابنه

في المساء، عاد والد عامر إلى المنزل وقد بدا عليه التعب. جلس في الساحة، وغسل وجهه بالماء، ثم طلب من زوجته أن تحضر له الشاي.

كانت الأم تعد الطعام عندما دخل الحاج احمد إلى المنزل.

رحب به الأب، ودعاه إلى الجلوس.

لكن الزائر لم يطل الحديث عن أحوال الحقول والأسعار كما اعتاد في زياراته السابقة، بل قال مباشرة:

- جئت لأحدثك عن ابنك عامر.

توقف الأب عن تحريك كأس الشاي.

- ماذا فعل؟

- لم يفعل شيئًا كبيرًا، لكنه يكثر من الأسئلة في المجالس، ويتحدث بطريقة قد تجلب له المتاعب.

نظر الأب إلى زوجته، ثم عاد إلى ضيفه.

- إنه طفل فضولي. يحب أن يفهم الأشياء.

قال الحاج احمد:

- الفضول لا بأس به، لكن ينبغي أن يعرف الإنسان حدود الكلام. لقد سمعت أنه سأل عن الشيخ فاضل، وتحدث عن البيت المهجور، وكأنه يريد أن يثبت أن أهل القرية لا يفهمون شيئًا.

تدخلت الأم من مكانها:

- لكنه لم يقل ذلك. كل ما في الأمر أنه يسأل عن الأسباب.

نظر إليها الحاج احمد وقال:

- أنت أم، ومن الطبيعي أن تدافعي عنه. لكنني أنصحكما لمصلحته. الناس لا يحبون من يشكك في كل ما يقولونه.

ثم نهض استعدادًا للمغادرة، وأضاف:

- إن أردتما نصيحتي، فعلّماه أن يحترم عادات القرية، وألا يدخل نفسه في أمور لا تخصه.

غادر الحاج احمد، تاركًا وراءه جوًا من القلق.

ظل الأب صامتًا بعض الوقت، ثم قال لزوجته:

- لا أريد لابني أن يصبح حديث الناس.

أجابته:

- وأنا لا أريد ذلك أيضًا، لكن هل نمنعه من التفكير حتى لا يغضب الآخرون؟

تنهد الأب.

- لا أقول إننا سنمنعه من التفكير. أريد فقط أن يكون حذرًا.

في تلك اللحظة، دخل عامر إلى الساحة، وقد سمع جزءًا من الحديث .

جلس أمام أبيه، ثم قال:

- هل فعلت شيئًا خطأ؟

نظر الأب إلى وجه ابنه.

- أخبرني أنت.

لماذا تسأل الناس أسئلة تحرجهم؟

أجاب عامر:

- أنا لا أقصد إحراجهم. أريد فقط أن أعرف الحقيقة.

قال الأب:

- وهل تظن أنك تعرف الحقيقة أكثر من الجميع؟

هز عامر رأسه.

- لا يا أبي. لو كنت أعرفها لما سألت. أنا أسأل لأنني لا أعرف.

لم يجد الأب جوابًا سريعًا.

كانت في كلام الطفل بساطة يصعب الاعتراض عليها، لكن الأب كان يخشى أن تتحول هذه البساطة إلى مصدر للمشكلات.

قال بعد لحظة:

- يا بني، الحياة ليست المدرسة وحدها. هناك أمور تتعلق بعلاقات الناس، وبما يقبلونه وما يرفضونه. عليك أن تتعلم كيف تتحدث معهم.

أجاب عامر:

- سأحترمهم يا أبي، لكن هل يعني احترامهم أن أصدق كل شيء يقولونه؟

تبادل الأب والأم نظرة طويلة.

ثم قال الأب بنبرة أكثر حزمًا:

- لا أريدك أن تدخل في نقاشات مع الشيخ فاضل أو مع رجال القرية. اترك هذه الأمور للكبار، واهتم بدراستك.

خفض عامر رأسه.

- حاضر يا أبي .

لكن الموافقة لم تكن تعني أن الأسئلة اختفت. قد تعلم فقط أن بعض الأسئلة ينبغي أن تبقى في الداخل، حتى يجد لها مكانًا آمنًا تخرج منه.

كبر الصبي، وكبرت معه الأسئلة.

لم يكن يسأل ليهين أحدًا، بل لأنه لم يكن يستطيع أن يصدق شيئًا دون أن يبحث عن سببه.

الفصل الثاني:
وصية الجد قبل الرحيل

كان المساء ينسدل ببطء على القرية، وكانت أشعة الشمس الأخيرة تتسلل بين أشجار الزيتون، كأنها تودّع يومًا من أيام العمر التي لا تعود. في ساحة البيت القديم، جلس الجد على مقعده الخشبي المعتاد، يتكئ على عصاه المصنوعة من خشب الزيتون، وقد بدت على وجهه تجاعيد السنين التي حفرت فيها الحياة حكاياتها وأسرارها.

كان عامر قد عاد لتوّه من المدينة الصغيرة التي قصدها للاطلاع على نتائج البكالوريا، وما إن دخل البيت حتى تعالت الزغاريد، وارتفعت أصوات التهاني، فقد حقق الفتى نجاحًا طالما انتظرته أسرته، وأصبح أول حلم كبير يفتح له أبواب المستقبل.

لكن فرحة النجاح لم تكن وحدها تسكن قلبه؛ فقد كان يعرف أن أيامه في القرية أصبحت معدودة، وأن عليه الرحيل قريبًا إلى الجامعة، حيث تنتظره حياة جديدة، وأفكار مختلفة، ووجوه لا يعرفها، وعالم أوسع من حدود قريته التي نشأ بين أزقتها وحقولها.

اقترب عامر من جده، وجلس إلى جانبه. ظل الشيخ صامتًا لحظات، يتأمل وجه حفيده، ثم قال بصوت هادئ تختلط فيه الفرحة بشيء من الحزن:

الجد:

- مبارك عليك يا بني. اليوم حققت أول خطوة في طريق طويل، ورفعت رأس أبيك وأمك، وأدخلت الفرحة إلى هذا البيت الذي طالما انتظر هذه اللحظة.

عامر:

- الله يبارك فيك يا جدي. لولا دعاؤك وتشجيعك لما وصلت إلى هنا. كنت دائمًا تقول لي إن العلم هو الطريق الذي يخرج الإنسان من ضيق الجهل إلى رحابة المعرفة.

ابتسم الجد، ثم وضع يده المرتجفة على كتف حفيده وقال:

- نعم يا بني، العلم نور، لكن تذكّر أن النور قد يحمله الإنسان في يده، ومع ذلك يظل أعمى إذا أغمض عينيه عن الحقيقة. ليست كل شهادة دليلًا على الحكمة، وليس كل من قرأ الكتب أصبح مثقفًا، وليس كل من امتلك المعرفة عرف كيف يستعملها.

عامر:

- ماذا تقصد يا جدي؟

الجد:

- أقصد أن الجامعة التي ستذهب إليها لن تمنحك العلم وحده، بل ستضعك أمام أفكار كثيرة، بعضها يفتح عقلك، وبعضها قد يغلقه وأنت تظن أنك أصبحت أكثر انفتاحًا. ستسمع آراء مختلفة، وستلتقي بأشخاص يعتقد كل واحد

منهم أنه يملك الحقيقة كاملة. فلا تجعل نفسك تابعًا لأحد، ولا ترفض رأيًا لمجرد أنه يخالف ما اعتدت عليه.

عامر:

- لكن يا جدي، أليس من واجب الإنسان أن يثق بما يتعلمه في الجامعة؟

الجد:

- أن تثق بعقلك شيء، وأن تسلّم عقلك للآخرين شيء آخر. تعلّم يا بني، واسأل، واقرأ، وناقش، ولكن لا تجعل أستاذًا أو كتابًا أو جماعة يفكرون بدلًا منك. الأستاذ قد يخطئ، والكتاب قد يحمل فكرة تحتاج إلى مراجعة، والإنسان مهما بلغ من العلم يظل محتاجًا إلى التعلم.

ثم سكت الشيخ قليلًا، ونظر نحو الحقول الممتدة خلف البيت، حيث كان بعض الفلاحين يستعدون لإنهاء يومهم.

الجد:

- أتدري يا عامر ما الذي أخشاه عليك؟

عامر:

- ماذا تخشى يا جدي؟ أليس النجاح هو ما كنت تتمناه لي؟

الجد:

- بلى، والله إنني أتمنى لك أن تبلغ أعلى المراتب. لكنني أخشى أن تذهب إلى الجامعة بحثًا عن العلم، فتعود إلينا بشهادة

كبيرة وعقل صغير. أخشى أن تتعلم كيف تتحدث عن الحرية، ثم تفقد حريتك في التفكير. وأن تقرأ عن التقدم، ثم تصبح عبدًا لأفكار جديدة لا تجرؤ على مناقشتها.

تأثر عامر بكلمات جده، وقال:

- وهل يمكن للعلم أن يجعل الإنسان جاهلًا يا جدي؟

الجد:

- العلم لا يجعل الإنسان جاهلًا، ولكن الغرور بالعلم قد يفعل ذلك. هناك من يتعلم شيئًا قليلًا، فيظن أنه عرف كل شيء، وهناك من يقضي عمره في القراءة، وكلما ازداد معرفة أدرك كم يجهل. كن من الصنف الثاني يا بني.

عامر:

- سأحاول أن أكون كذلك.

الجد:

- لا تقل سأحاول فقط، بل اجعل التواضع عادة في حياتك. إذا وجدت إنسانًا بسيطًا لا يقرأ ولا يكتب، فلا تحتقره؛ فقد تكون لديه من تجارب الحياة حكمة لا تجدها في الكتب. وإذا وجدت رجلًا يحمل شهادة كبيرة، فلا تنبهر بلقبِه قبل أن تعرف أخلاقه وأفكاره. قيمة الإنسان ليست فيما يعلقه على الجدار من شهادات، بل فيما يحمله في قلبه وعقله من صدق وإنصاف.

رفع عامر رأسه وقال بحماسة:

- يا جدي، أريد أن أتعلم كل شيء. أريد أن أفهم لماذا بقيت قريتنا على حالها، ولماذا يصدق الناس بعض الحكايات دون دليل، ولماذا يحارب بعضهم كل فكرة جديدة، وكأن التفكير خطر يهدد حياتهم.

تنهد الجد، وكأن حفيده قد لمس جرحًا قديمًا في صدره.

الجد:

- لقد سألت عن أمر يؤلمني منذ سنوات. يا بني، إن الجهل ليس دائمًا غياب المعرفة، بل قد يكون رفض المعرفة حين تقف أمام الإنسان واضحة. وقد تكون الخرافة أحيانًا أقوى من الحقيقة، لا لأنها أكثر صدقًا، بل لأن الناس يجدون فيها ما يريحهم من عناء التفكير.

عامر:

- وكيف يستطيع الإنسان أن يواجه الخرافات؟

الجد:

- بالحجة، لا بالسخرية. وبالصبر، لا بالإهانة. لا تذهب إلى الناس متكبرًا لأنك درست في الجامعة، وتظن أنك تستطيع تغييرهم في يوم واحد. افهم أسباب خوفهم، واعرف كيف تشكلت أفكارهم، ثم ناقشهم بهدوء. فالعقل الذي عاش

سنوات طويلة في ظلام الوهم لا يفتح نوافذه لمجرد أن أحدهم صرخ في وجهه بأن الشمس موجودة.

عامر:

- ولكن ماذا أفعل إذا وجدت الناس يرفضون الحقيقة، ويتمسكون بأفكار لا يقبلها العقل؟

الجد:

- قل ما تعرفه، وقدّم دليلك، واترك للآخرين حق التفكير. لا تجبر أحدًا على الاقتناع بك، لأنك إذا حاولت تحرير عقول الناس بالقوة، فقد تصبح أنت نفسك سجانًا جديدًا لها. تذكّر أن هدفك ليس أن تجعل الجميع يفكرون مثلك، بل أن تساعدهم على التفكير بأنفسهم.

ساد الصمت بينهما لحظات، ثم اقتربت أم عامر من الباب، تستمع إلى حديثهما دون أن تقاطعه. كانت عيناها تلمعان بالدموع؛ فرحةً بنجاح ابنها، وحزنًا على فراقه الوشيك.

أما الجد، فقد بدا كأنه يريد أن يقول كل ما ظل يؤجله طوال السنوات الماضية.

الجد:

- هناك أمر آخر أريدك أن تحفظه جيدًا يا بني.

عامر:

- أسمعك يا جدي.

الجد:

- إياك أن تسمح لأحد بأن يشتري عقلك بالخوف، أو يسلب إرادتك باسم المقدس، أو يزرع فيك الكراهية باسم الانتماء. ستجد من يقول لك إن التفكير في بعض الأمور خروج عن الجماعة، وإن السؤال علامة ضعف الإيمان، وإن مخالفة رأي الأغلبية دليل على فساد الأخلاق. لا تصدق كل ما يقال لك، ولا تجعل الخوف من الناس يمنعك من البحث عن الحقيقة.

عامر:

- ولكنني لا أريد أن أخسر أهلي وأصدقائي بسبب أفكاري.

الجد:

- وأنا لا أريد لك ذلك أيضًا. ليس مطلوبًا منك أن تدخل في معركة مع كل إنسان يخالفك. اختر كلماتك، واحترم الناس، وتمسك بحقك في السؤال. لكن لا تكذب على نفسك لإرضائهم، ولا تتظاهر بالاقتناع بما لا يقبله عقلك.

ثم أشار الجد بعصاه نحو الطريق الذي يخرج من القرية ويلتف بين التلال.

الجد:

- انظر إلى ذلك الطريق. كم من الناس ساروا فيه قبلك، وكم منهم عادوا إلى القرية كما ذهبوا، وكم منهم تغيرت عقولهم وقلوبهم! ستغادر هذه القرية غدًا، وقد تعود إليها بعد سنوات

وأنت تحمل شهادة جامعية، لكنني أريدك أن تعود إنسانًا حرًا، لا مجرد رجل يحمل ورقة تثبت أنه نجح في امتحان.

عامر:

- سأعود يا جدي، وسأحاول أن أفعل شيئًا من أجل قريتنا. أريد أن أساعد الناس على التخلص من الخوف والخرافات، وأن أجعل أبناءها يؤمنون بأن مستقبلهم لا يتوقف على أسماء عروشهم ولا على ما ورثوه من خصومات قديمة.

هز الجد رأسه موافقًا، ثم قال:

- هذا كلام جميل، لكن احذر أن تتحول رغبتك في الإصلاح إلى رغبة في السيطرة. بعض الذين يبدءون حياتهم بمحاربة الظلم ينتهون إلى ممارسة ظلم جديد، لأنهم يعتقدون أن امتلاك الحقيقة يمنحهم الحق في التحكم بالآخرين.

عامر:

- وكيف أحمي نفسي من ذلك؟

الجد:

- بأن تراجع نفسك قبل أن تراجع الناس. اسأل نفسك دائمًا: هل أبحث عن الحقيقة، أم أبحث عما يؤكد أنني على حق؟ هل أرفض الفكرة لأنها خاطئة، أم لأن صاحبها لا يعجبني؟ هل أريد للناس أن يتحرروا، أم أريدهم أن يتبعوني؟ هذه الأسئلة يا بني قد تنقذك من نفسك قبل أن تنقذك من الآخرين.

انحنى عامر وقبّل يد جده، ثم وضع رأسه على كتفه كما كان يفعل في طفولته.

عامر:

- أشعر كأنك تخشى عليّ من شيء لا أراه.

الجد:

- لأنني عشت طويلًا يا بني، ورأيت أناسًا دخلوا الحياة بقلوب طيبة، ثم غيرتهم المصالح، وأفسدهم الغرور، وأعمتهم الرغبة في الانتصار لأنفسهم. ورأيت آخرين يضحون بالحقيقة من أجل رضا الجماعة. الإنسان لا يفقد عقله دفعة واحدة، بل يتنازل عنه قليلًا قليلًا، حتى يأتي يوم لا يعرف فيه أين انتهى تفكيره وأين بدأت أفكار الآخرين.

توقف الجد، ثم أضاف بصوت أكثر انخفاضًا:

- لهذا أخاف عليك من اغتيال العقل.

رفع عامر رأسه بسرعة، وكأن العبارة اخترقت أعماقه.

عامر:

- اغتيال العقل؟ ما أعظم هذه الكلمات يا جدي! ومن الذي يغتال العقل؟

الجد:

- كل من يمنع السؤال، ويعاقب التفكير، ويحوّل الوهم إلى حقيقة لا يجوز الاقتراب منها. وكل من يستغل جهل الناس

ليجعلهم أدوات في يده. وقد يكون قاتل العقل رجلًا جاهلًا يخاف المعرفة، وقد يكون رجلًا متعلمًا يعرف كيف يوظف معرفته لخداع الآخرين. فلا تظن أن الخطر يأتي دائمًا من حيث تتوقعه.

أطرق عامر رأسه طويلًا، ثم قال:

- سأضع كلماتك أمام عيني يا جدي، وسأحاول ألا أنسى هذا الحديث مهما ابتعدت عن القرية.

ابتسم الشيخ ابتسامة حزينة وقال:

- لا أريدك أن تحفظ كلماتي، بل أن تفكر فيها. حتى كلامي أنا لا تجعله حقيقة مطلقة لمجرد أنني جدك. خذ منه ما تجده صوابًا، وابحث عن الدليل، ولا تخجل من مخالفتي إذا وجدت أنني أخطأت. فليس من الحكمة أن أطلب منك تحرير عقلك، ثم أجعلك أسيرًا لكلامي.

كانت تلك العبارة آخر ما توقع عامر سماعه من جده. لقد أدرك في تلك اللحظة أن الرجل الذي لم يدخل جامعة، ولم يقرأ إلا القليل من الكتب، كان يمتلك نوعًا آخر من المعرفة؛ معرفة صنعتها التجربة، وصقلتها الخيبات، وعلّمتها الحياة أن الحقيقة لا تُمنح للإنسان جاهزة، بل عليه أن يبحث عنها بنفسه.

نهض الجد بصعوبة، واتكأ على عصاه، ثم دخل إلى غرفته وعاد يحمل كتابًا قديمًا، أوراقه صفراء وقد تآكلت أطرافه.

مدّه إلى عامر وقال:

- خذ هذا الكتاب معك. إنه ليس أغلى ما أملك، لكنه رفيق قديم علّمني أن الإنسان يستطيع أن يختلف مع الآخرين دون أن يكرههم، وأن يبحث عن الحقيقة دون أن يدّعي امتلاكها.

أخذ عامر الكتاب بكلتا يديه، وقلّب صفحاته بحذر، ثم وضعه في حقيبته وقال:

- سأحتفظ به يا جدي، وسأقرأه كلما شعرت أن الطريق أصبح غامضًا أمامي.

الجد:

- لا تجعله تعويذة تحميك من الخطأ، يا بني. اقرأه، وناقشه، وانتقده إن وجدت فيه ما يستحق النقد. الكتب أدوات للتفكير، وليست أصنامًا جديدة نعبدها بعد أن نتحرر من الأصنام القديمة.

ضحك عامر، فضحك الجد معه، وبدت في ضحكتهما لحظة نادرة من الطمأنينة، كأنهما نسيا للحظات ثقل الفراق. لكن الليل كان قد تقدم، وكانت الحقيبة تنتظر عند الباب، وكان الطريق إلى الجامعة ينتظر صاحبه.

في صباح اليوم التالي، وقف عامر أمام بيت العائلة. كانت القرية تستيقظ ببطء، وأصوات الديكة تختلط بحركة الناس في الأزقة الضيقة. حمل حقيبته، وعانق أمه وأباه، ثم تقدم نحو جده الذي كان ينتظره عند عتبة الباب.

أمسك الشيخ بيده وقال:

- اذهب يا بني، ولا تخف من اتساع العالم. لكن تذكّر أن اتساع العالم لا يعني أن كل ما فيه صحيح، وأن كثرة المؤمنين بفكرة لا تجعلها حقيقة، كما أن قلة المؤمنين بها لا تجعلها باطلة.

عامر:

- سأعود إليك يا جدي.

الجد:

- قد تعود، وقد تأخذك الحياة إلى طرق بعيدة. لا أطلب منك أن تبقى قريبًا مني، بل أطلب منك ألا تبتعد عن نفسك. وإذا جاء يوم شعرت فيه أن الجميع يصفقون لك، فتوقف لحظة واسأل نفسك: هل يصفقون لأنني على حق، أم لأنني أقول لهم ما يريدون سماعه؟

ثم اقترب منه، ووضع يده على رأسه كما كان يفعل حين كان طفلًا.

الجد:

- وأوصيك أخيرًا بثلاثة أشياء: لا تحتقر جاهلًا، ولا تقدّس عالمًا، ولا تتخلَّ عن عقلك لإرضاء أحد. فالعقل أمانة، وإذا فرّط الإنسان فيه، فقد يفقد الطريق إلى نفسه وهو يظن أنه يسير نحو المجد.

غادر عامر القرية، والتفت من بعيد فرأى جده لا يزال واقفًا عند الباب، يستند إلى عصاه ويراقبه حتى ابتلع الطريق قامته الصغيرة.

لم يكن عامر يعلم أن تلك الكلمات سترافقه طويلًا، وأنه سيواجه في الجامعة أفكارًا وصراعات ستختبر قدرته على التمييز بين المعرفة والوهم، وبين الحرية والتبعية، وبين البحث عن الحقيقة والرغبة في امتلاكها.

كان يظن أنه ذاهب إلى الجامعة ليتعلم كيف يفهم العالم. امتحان أصعب بكثير من امتحان البكالوريا: امتحان الاحتفاظ بعقله في زمن يحاول فيه الجميع أن يفكروا نيابة عنه.

الفصل الثالث:
عودة الغريب

عاد عامر إلى «عين النسر» بعد غياب سبع سنوات. كان قد أنهى دراسته الجامعية، وعمل مدة قصيرة في مدينة كبيرة، ثم قرر العودة إلى قريته للمشاركة في مشروع تعليمي وثقافي افتُتح حديثًا.

دخل القرية في مساء خريفي، وكانت السماء ملبدة بالغيوم. مرّت سيارة أجرة بجوار ساحة الزيتون، فرأى رجالًا متحلقين حول رجل يرتدي عباءة داكنة ويضع خاتمًا ضخمًا في إصبعه. كان الرجل يتحدث بصوت منخفض، بينما ينصت إليه الواقفون بخشوع.

سأل عامر سائق السيارة:

- من هذا الرجل؟

نظر إليه السائق من المرآة، ثم أجاب:

- ألا تعرفه؟ إنه الشيخ فاضل.

- وماذا يفعل؟

- يعرف أشياء لا يعرفها غيره. يعالج المرضى، ويحل المشكلات، ويكشف الحسد، ويعرف من أصاب الناس بالعين.

ابتسم عامر ابتسامة خفيفة.

- وكيف يعرف ذلك؟

تغير وجه السائق.

- يا بني، ليس كل شيء يحتاج إلى تفسير.

نظر عامر من النافذة، فرأى امرأة تبكي وهي تمسك بيد طفل صغير. كان الطفل شاحب الوجه، وعيناه نصف مغمضتين. أمامها وقف الشيخ فاضل يردد كلمات غير مفهومة، ثم طلب منها أن تحضر له شيئًا من بيتها.

شعر عامر بالقلق، لكنه لم يتدخل. لم يكن يعرف حقيقة ما يحدث، ولم يرد أن يبدأ عودته بمواجهة لا يفهم تفاصيلها.

وكان المساء يوشك أن يمدّ ظلاله على القرية حين وصل عامر إلى المنزل، بعد رحلة طويلة من المدينة الجامعية. حمل حقيبته على كتفه، وتقدّم بخطوات متعبة نحو الباب الذي طالما اشتاق إليه، وإلى ذلك الركن الدافئ الذي لا يجد له مثيلًا في أي مكان آخر: حضن أمه.

ما إن فتح الباب حتى لمحته أمه، فتركت ما كان بين يديها، وأسرعت نحوه بعينين اغرورقتا بالدموع. لم تنتظر منه أن يتكلم، بل ارتمت في أحضانه، وضمّته إلى صدرها بقوة، وكأنها تخشى أن يعود الزمن فيسرقه منها مرة أخرى.

قالت بصوت مرتجف من شدة الفرح:

- يا ولدي! يا نور عيني! الحمد لله الذي ردّك إليّ سالمًا. لقد اشتقت إليك اشتياقًا لا تصفه الكلمات.

ابتسم عامر، ووضع رأسه على كتفها كما كان يفعل في طفولته، ثم قال:

- وأنا أيضًا اشتقت إليك يا أمي. والله إنني كنت أعدّ الأيام والساعات حتى أعود إلى البيت، وأجلس معك، وأسمع صوتك، وأشمّ رائحة هذا المكان الذي كبرت فيه.

أبعدت الأم وجهها قليلًا، وأخذت تتأمل ملامحه، ثم مرّرت يدها على شعره وقالت:

- دعني أنظر إليك جيدًا! لقد تغيّرت يا بني، وكأنك عدت رجلًا آخر. هل أتعبتك الدراسة؟ هل كنت تأكل جيدًا؟ وهل وجدت من يسأل عنك إذا مرضت أو ضاقت بك الدنيا؟

ضحك عامر برفق وقال:

- أسئلتك كثيرة يا أمي، وكأنني عدت من سفر إلى آخر الدنيا!

أجابته وهي تمسح دمعة نزلت على خدها:

- بالنسبة إليّ، كل مكان تكون فيه بعيدًا عن عيني هو آخر الدنيا. قد تكبر أنت، لكنك ستبقى في نظري ذلك الطفل الذي كنت أخاف عليه من برد الشتاء، وأنتظر عودته من المدرسة عند الباب.

جلس عامر إلى جانبها، ووضع حقيبته على الأرض، ثم أمسك يدها وقال:

- أعرف ذلك يا أمي، وأعرف كم تحملتِ من أجلي. كلما شعرت بالتعب في الجامعة، تذكرتك وتذكرت أبي وجدي، وتذكرت

كلمات جدي حين قال لي إن العلم ليس شهادة معلّقة على الجدار، بل مسؤولية يحملها الإنسان أينما ذهب.

تنهدت الأم وقالت:

- رحم الله جدك. كان رجلًا حكيمًا، يحب الخير للناس، ويخاف عليك من الطريق الذي اخترته. كان يقول دائمًا إن العلم نور، لكنه كان يخشى أن يخرج بعض المتعلمين من قراهم فينسوا أهلهم، ويتكبروا على البسطاء، ويظنوا أنهم أصبحوا أفضل من الجميع.

هزّ عامر رأسه وقال:

- لا تخافي يا أمي، لن أنسى أهلي ولا قريتي. أنا ذهبت إلى الجامعة لأتعلم، لا لأحتقر الناس. أريد أن أفهم الحياة، وأن أساعد الناس على فهمها، وأن أكون نافعًا لمن حولي.

سكتت الأم لحظة، ثم قالت بصوت خافت: . هناك شيء يقلقني يا بني، وأريد أن أحدثك عنه.

نظر إليها عامر باهتمام:

- ما الأمر يا أمي؟ هل حدث شيء أثناء غيابي؟

قالت وهي تفرك يديها بتوتر:

- لقد تغيّرت أحوال القرية. ما زال الناس يتحدثون عن الحسد والسحر والعين، ويخافون من أشياء لا يفهمونها. بعضهم يذهب إلى أشخاص يدّعون معرفة الغيب، وبعضهم ينفق

ماله طلبًا للعلاج عند من لا يملك علمًا ولا خبرة. وإذا حاول أحد أن يسأل أو يناقش، اتهموه بأنه لا يحترم عادات الأجداد.

أطرق عامر برأسه قليلًا، ثم رفع عينيه إليها وقال:

- وهل ما زال الناس يصدقون كل ما يسمعونه دون أن يسألوا عن الدليل؟

أجابته:

- نعم يا بني، بل إن بعضهم يخاف حتى من التفكير في مخالفة ما اعتاد عليه. يقولون: وجدنا آباءنا على هذا، وكأن ما ورثوه لا يجوز أن يُناقش أو يُراجع.

تنهد عامر وقال:

- هنا تكمن المشكلة يا أمي. ليس كل ما ورثناه خطأ، وليس كل قديم باطلًا، لكن ليس كل ما ورثناه صحيحًا أيضًا. علينا أن نحترم الأجداد، وأن نأخذ من تجاربهم ما ينفعنا، لكن احترامهم لا يعني أن نتوقف عن التفكير. لقد خلق الله لنا عقلًا لنميّز به بين الحق والباطل، وبين الحقيقة والوهم.

ابتسمت الأم، وكأن كلمات ابنها أعادت إليها شيئًا من الأمل، ثم قالت:

- كنت أخشى أن تغيّرك الجامعة، لكنني أراك ما زلت ابني الذي أعرفه. غير أنني أخاف عليك من الناس يا عامر. ليس

كل من تقول له الحقيقة يقبلها، وليس كل من تنصحه يشكرك.

أمسك عامر يدها بكلتا يديه، وقال:

- أعرف ذلك يا أمي. لقد تعلمت في الجامعة أن الحقيقة لا تحتاج إلى الصراخ، وأن الإنسان لا ينتصر على الجهل بإهانة الجاهلين، بل بالحوار والصبر وتقديم الدليل. لن أعود إلى القرية لأحارب الناس، وإنما لأحارب الأفكار الخاطئة التي قد تضرّ بهم.

قالت الأم:

- ولكن هل تستطيع وحدك أن تغيّر ما عجز عنه غيرك؟ لقد ترسخت بعض هذه الأفكار في عقول الناس منذ سنوات طويلة.

أجابها بثقة هادئة:

- لن أغيّر العالم في يوم واحد، ولن أدّعي أنني أملك كل الإجابات. سأبدأ بمن يريد أن يسمع، وسأناقش من يقبل النقاش، وسأحاول أن أزرع سؤالًا في عقل كل إنسان يكتفي بترديد ما يسمعه. فربما يكون السؤال الصادق بداية طريق طويل نحو الحقيقة.

تأملت الأم وجهه طويلًا، ثم قالت:

- كلامك جميل يا بني، لكنني أريد منك وعدًا.

قال:

- لكِ ما تريدين يا أمي.

قالت وهي تشد على يده:

- مهما بلغت من العلم، ومهما اختلفت مع الناس، لا تجعل قلبك قاسيًا. لا تنظر إلى الفقير باحتقار، ولا تسخر من الجاهل، ولا تجرح إنسانًا لأنه لا يعرف ما تعرفه. تذكّر أنك كنت يومًا لا تعرف شيئًا، وأنك تعلمت لأن هناك من علّمك وصبر عليك.

تأثر عامر بكلماتها، وانحنى يقبّل يدها، ثم قال:

- أعدك يا أمي. سأحمل العلم في عقلي، والرحمة في قلبي. لن أجعل معرفتي سببًا للغرور، ولن أسمح لأحد أن يقنعني بأن الجهل فضيلة أو أن التفكير جريمة.

ابتسمت الأم، وضمّته إليها مرة أخرى، ثم قالت:

- الحمد لله الذي أعادك إليّ. لقد عاد ابني، وعاد معه الأمل.

لكن عامر، وهو يستند إلى كتف أمه، كان يفكر في أمر آخر. لقد رأى في الجامعة كيف يمكن للإنسان أن يتقدم حين يسأل ويبحث ويختبر، وعاد إلى قريته ليجد بعض العقول ما تزال أسيرة الخوف من السؤال، وكأن التفكير باب لا ينبغي فتحه.

أدرك في تلك اللحظة أن معركته الحقيقية لم تبدأ بعد، وأن الشهادة الجامعية التي حصل عليها ليست نهاية الطريق، بل بدايته.

ثم سألها عن أبيه، فعرفت عيناه الجواب قبل أن تتكلم. كان الطاهر قد توفي قبل وقت قريب إثر أزمة قلبية.

جلس عامر صامتًا.

في تلك الليلة، لم يستطع النوم. كان يسمع أصوات الريح تضرب النوافذ، ويتذكر بيت طفولته، والكتب القديمة، ووجه جده، والقرية التي تركها يومًا وهو يظن أن التعليم سيغيرها. لكنه حين عاد، اكتشف أن بعض الأشياء لا تتغير بسهولة. وأحيانًا، لا تكون المشكلة في غياب المعرفة، بل في وجود من يخافون أن تصل إلى الناس.

الفصل الرابع:

الشيخ فاضل

لم يكن الشيخ فاضل رجلًا عاديًا في نظر سكان «عين النسر»، ولم يكن اسمه يُذكر في المجالس كما تُذكر أسماء بقية رجال القرية. كان حضوره يفرض الصمت، وكلماته تُتداول بين الناس كما لو أنها أحكام لا تقبل النقاش، أما نصائحه فكان بعضهم يتعامل معها باعتبارها أوامر لا يجوز مخالفتها.

تجاوز الستين من عمره، كثيف اللحية، عميق التجاعيد، حاد النظرات، يمشي ببطء محسوب، مستندًا أحيانًا إلى عصاه الخشبية، وكأنه يريد أن يمنح خطواته شيئًا من الهيبة. كانت عيناه تضيقان كلما تحدث إليه أحد، ثم تتسعان فجأة حين يشعر أن كلماته بدأت تؤثر في مستمعيه. أما صوته، فكان يعرف كيف يتحكم فيه ببراعة؛ يخفضه حتى يصبح همسًا غامضًا عندما يريد أن يزرع القلق في قلب أحدهم، ويرفعه فجأة عندما يحتاج إلى إخضاع الحاضرين وإسكات المعترضين.

كان يدرك أن الغموض سلاح فعال، وأن الإنسان الخائف يصبح مستعدًا لتصديق أشياء لم يكن ليصدقها لو أنه امتلك شجاعة السؤال.

في طرف القرية، بعيدًا عن البيوت المتلاصقة والأزقة الضيقة، كان يمتلك بيتًا واسعًا تحيط به جدران مرتفعة

وباب حديدي ثقيل. لم يكن البيت يشبه بيوت الفقراء الذين يأتونه كل يوم طلبًا للمساعدة. فقد كانت غرفه كثيرة، وساحته نظيفة، وأثاثه أفضل مما يملكه معظم سكان «عين النسر». وإلى جانب ذلك، كانت لديه أرض زراعية ورثها عن أبيه، وسيارة يركنها أمام المنزل في الأيام التي يكثر فيها زواره .

ومع ذلك، كان يحب أن يظهر بمظهر الرجل الزاهد الذي لا يملك من الدنيا شيئًا، ويكرر أمام الناس أنه لا يبحث عن المال، وأنه لا يريد سوى مساعدتهم وإبعاد الشر عن بيوتهم.

كان يقول بصوت خافت وهو يقلب مسبحته بين أصابعه :

- والله يا جماعة، لو كان الأمر بيدي لما أخذت منكم شيئًا، ولكن هناك أمورًا تحتاج إلى مصاريف، وأشياء لا يعرف قيمتها إلا من خاض هذا الطريق.

وكان الناس، من شدة خوفهم، لا يسألونه عن تلك المصاريف ولا عن حقيقة الأشياء التي يتحدث عنها.

منذ سنوات طويلة، أصبح بيت الشيخ فاضل مقصدًا للناس من «عين النسر» والقرى المجاورة. يأتيه الرجال في الصباح الباكر، وتزوره النساء في ساعات متفرقة، ويصل بعضهم بعد غروب الشمس حتى لا يراهم أحد.

كانوا يأتونه لأسباب مختلفة؛ امرأة تشكو من خلافات زوجية، ورجل يعتقد أن تجارته تعثرت بسبب الحسد، وأم

تخاف على ابنها من كوابيس الليل، وشاب تأخر زواجه، وآخر فقد عمله، وثالث يعتقد أن أحد أقاربه وضع له سحرًا.

وكان الشيخ يعرف كيف يستقبل كل واحد منهم بالطريقة التي تناسب خوفه.

إذا دخل عليه رجل يشكو من تعثر أحواله، أطرق رأسه طويلًا، ثم قال:

- الأمر ليس طبيعيًا كما تظن. هناك شيء يعطّل أمورك، ولكن لا تستعجل، فبعض الأمور تحتاج إلى صبر.

وإذا جلست أمامه امرأة تبكي بسبب مرض طفلها، نظر إليها نظرة طويلة، ثم سألها عن أحوال البيت، وعن الأشخاص الذين يزورونها، وعن الخلافات التي وقعت بينها وبين أقاربها.

كان يستمع إلى التفاصيل بعناية، ويحتفظ بها في ذاكرته، ثم يعيد استخدامها في اللحظة المناسبة، فيبدو للزائر وكأنه يعرف أسرارًا لم يخبره بها أحد. وإذا لمح التردد في عيني أحدهم، غيّر نبرة صوته، وأمال رأسه قليلًا، ثم قال:

- أنا لا أريد إخافتك، ولكن من واجبي أن أحذرك. ليس كل ما يحدث أمامك هو الحقيقة.

كانت هذه العبارة وحدها كافية أحيانًا لتجعل الزائر يغادر منزله وهو أكثر خوفًا مما كان عليه عند دخوله.

ولم يكن الشيخ فاضل يكتفي باستقبال أهل القرية، بل كان يستفيد من سمعة انتشرت حوله حتى وصلت إلى القرى المجاورة. صار بعض الناس يوصون بعضهم بزيارته، ويقولون إن لديه قدرة على حل المشكلات التي عجز الآخرون عن حلها.

ومع مرور الوقت، أصبح اسمه جزءًا من حياة القرية اليومية؛ فإذا مرض طفل، اقترح أحدهم الذهاب إليه، وإذا وقع خلاف بين زوجين، طالب قريب لهما باستشارته، وإذا حدث أمر غريب في أحد البيوت، ارتفعت الأصوات التي تتساءل عما إذا كان وراءه سحر أو عين أو حسد.

وهكذا، تحولت المخاوف الصغيرة إلى حكايات كبيرة، وتحولت الحكايات إلى اعتقادات راسخة، حتى أصبح كثير من الناس يخشون مناقشة ما يسمعونه.

لكن الشيخ فاضل كان يخفي وراء مظهره الهادئ عقلًا يعرف كيف يقرأ الناس ويستغل نقاط ضعفهم.

لم يكن يجهل أن بعض المشكلات التي يعرضونها عليه لها أسباب واضحة؛ فالمريض يحتاج إلى طبيب، والزوجان يحتاجان إلى الحوار، والطالب يحتاج إلى المراجعة، والفلاح الذي تتراجع محاصيله يحتاج إلى معرفة أسباب تلفها.

غير أن الاعتراف بهذه الحقائق كان سيحرمه من كثير من الزوار، ولذلك كان يفضل أن تبقى الأمور غامضة، وأن يظل الناس يبحثون عن تفسير خفي لكل مصيبة تنزل بهم.

وكان أكثر ما يخشاه أن يظهر شخص يسأل عن الأدلة، ويطالب بتفسير منطقي لما يحدث.

فالسؤال، في نظره، أخطر من الفقر، وأشد تهديدًا من خسارة المال؛ لأنه قد يفتح بابًا ظل مغلقًا سنوات طويلة.

وكان يدرك أن سلطته لا تقوم على المعرفة وحدها، بل على الخوف الذي يزرعه في نفوس الناس، وعلى الثقة العمياء التي يمنحونه إياها.

لهذا، كان يحرص على أن يبقى غامضًا، فلا يقدم إجابات واضحة، ولا يسمح لأحد بأن يناقشه طويلًا. وإذا واجهه شخص بسؤال محرج، اكتفى بالقول:

- ليست كل الأمور مما يُقال أمام الناس، فهناك أسرار لا يفهمها إلا أصحاب البصيرة.

ثم يصمت، ويترك خيال السامع يكمل بقية الحكاية. وكان الصمت، في كثير من الأحيان، أكثر فاعلية من الكلام.

في إحدى أمسيات الخريف، جلس الشيخ فاضل في صدر مجلسه، بينما كان ثلاثة رجال ينتظرون دورهم. كانت رائحة القهوة تملأ المكان، وصوت الريح يتسلل من شقوق النوافذ،

فيما أخذ ضوء المصباح الأصفر يرسم ظلالًا طويلة على الجدران.

دخل رجل في أواخر الأربعينيات، تبدو على وجهه علامات الإرهاق، وجلس أمام الشيخ دون أن يرفع عينيه.

قال الرجل بصوت متردد:

- يا شيخ، لم أعد أفهم ما يحدث في بيتي. منذ أشهر ونحن نعيش في مشاكل لا تنتهي. ابني يرفض الدراسة، وزوجتي كثيرة البكاء، وكلما حاولت إصلاح أمر فسد أمر آخر.

ظل الشيخ صامتًا لحظات، يقلب مسبحته ببطء.

ثم سأله:

- هل وقع بينك وبين أحد من أقاربك خلاف مؤخرًا؟

فكر الرجل قليلًا، ثم أجاب:

- نعم، اختلفت مع ابن عمي بسبب قطعة أرض، وانقطعت علاقتنا منذ ذلك الحين.

رفع الشيخ رأسه ببطء، وثبّت نظره في عينيه.

- وهل تعتقد أن ابن عمك رضي بما حدث؟

تغير وجه الرجل.

- لا أدري، لكنه غضب كثيرًا.

اقترب الشيخ منه قليلًا، وخفض صوته حتى اضطر الرجل إلى الإصغاء جيدًا.

- بعض الناس لا ينسون الإساءة بسهولة. لكنني لا أريد أن أقول شيئًا قبل أن تتضح الأمور.

ابتلع الرجل ريقه، ثم سأل:

- وماذا أفعل يا شيخ؟

أجابه فاضل بنبرة جادة:

- اترك الأمر لي، ولا تخبر أحدًا بما دار بيننا. وعد إليّ بعد ثلاثة أيام.

نهض الرجل، وأخرج من جيبه بعض الأوراق النقدية ووضعها أمام الشيخ.

حاول أن يقول شيئًا، لكن فاضل أشار إليه بيده قائلًا:

- لا تشغل بالك بالمال. المهم أن تتبع ما أقول لك.

خرج الرجل من البيت وهو يشعر أن شخصًا ما بدأ أخيرًا يفهم معاناته، بينما أعاد الشيخ النقود إلى جيبه، ثم التفت إلى الرجل الجالس قرب الباب.

قال مبتسمًا:

- الناس لا يحتاجون دائمًا إلى من يحل مشكلاتهم، بل يحتاجون أحيانًا إلى من يقنعهم بأنه يعرف سببها.

لم يرد الرجل، واكتفى بابتسامة صغيرة.

أما الشيخ، فعاد إلى مسبحته، وكأن شيئًا لم يحدث.

غير أن الأيام بدأت تحمل إلى «عين النسر» أصواتًا جديدة، لم يألفها سكانها من قبل.

عاد عامر من الجامعة، يحمل في ذاكرته أسئلة كثيرة، وفي ذهنه أفكارًا تختلف عن الأفكار التي نشأ عليها بعض أبناء القرية. لم يكن يسخر من الناس، ولم يكن ينكر معاناتهم، لكنه كان يرفض أن تتحول كل مشكلة إلى لغز غامض، أو أن يصبح الخوف بديلًا عن التفكير.

بدأ يتحدث عن أهمية التعليم، وعن ضرورة التمييز بين الحقيقة والشائعة، وعن الفرق بين الإيمان بالخالق وتصديق كل حكاية يرويها الناس دون دليل.

وفي البداية، لم يعر الشيخ فاضل هذه الأفكار اهتمامًا كبيرًا. فقد اعتقد أن الشاب المتحمس سيملّ سريعًا، وأن أهل القرية سيعودون إلى عاداتهم القديمة.

لكن ما حدث بعد ذلك أثار قلقه.

أخذ بعض الشباب يحضرون لقاءات عامر في المركز الثقافي، وبدأ عدد من الآباء يسألون عن الأسباب الحقيقية وراء المشكلات التي كانوا يربطونها بالحسد والسحر. وصارت بعض النساء يتساءلن لماذا لا يذهبن إلى الطبيب أولًا عندما يمرض أطفالهن، بدلًا من إضاعة الوقت في انتظار تفسيرات غامضة.

لم تكن هذه الأسئلة كثيرة، لكنها كانت كافية لإزعاج الشيخ.

وفي إحدى الليالي، جلس وحده في غرفته، وأمامه دفتر صغير يسجل فيه أسماء بعض الزوار وما يتعلق بمشكلاتهم. قلب صفحاته ببطء، ثم توقف عند اسم رجل كان يزور عامر في المركز الثقافي.

تجهم وجهه.

أغلق الدفتر، ووضعه في درج مكتبه، ثم نهض ومشى نحو النافذة المطلة على ساحة البيت.

كانت القرية هادئة، والظلام يغطي الطريق المؤدي إلى المركز الثقافي.

همس لنفسه :

هذا الشاب لا يعرف أين يضع قدميه.

ثم عاد إلى مقعده، وأخذ يفكر في طريقة يوقف بها هذا التغيير قبل أن يمتد إلى بقية القرية.

لم يكن يخشى عامر لأنه أقوى منه، ولا لأنه يملك مالًا أو نفوذًا أكبر، بل لأنه جاء بشيء لم يستطع الشيخ السيطرة عليه بسهولة:

السؤال الذي يسبق التصديق، والدليل الذي يسبق الحكم.

وكان يدرك أن الإنسان الذي يتعلم كيف يفكر بنفسه يصبح أقل استعدادًا لأن يسلم عقله إلى غيره.

وهنا بدأت المواجهة الحقيقية.

لم تكن مواجهة بين رجلين فحسب، بل بين عقل يريد أن يفتح النوافذ ليدخل النور، وعقل آخر يخشى أن ينكشف ما اعتاد إخفاءه في الظلام.

وفي «عين النسر»، حيث تعوّد الناس أن يخفضوا أصواتهم كلما ذُكر اسم الشيخ فاضل، كان هناك شاب يستعد لرفع صوته بالحقيقة.

أما الشيخ، فقد اتخذ قراره بصمت. لم يكن ينوي التراجع. ولم يكن يعتقد أن شابًا عائدًا من الجامعة يستطيع أن يهدم في أيام ما بناه هو خلال سنوات طويلة من النفوذ والخوف.

لكنه لم يكن يعلم أن أخطر ما يواجهه ليس خطابًا يلقيه عامر، ولا كتابًا يوزعه على الناس، بل تلك اللحظة التي يبدأ فيها أحدهم بالتفكير، ثم يجرؤ على طرح السؤال الذي كان الجميع يخشون طرحه.

الفصل الخامس:
أول مواجهة

لم يكن افتتاح المركز الثقافي في مبنى المدرسة القديمة حدثًا عاديًا في قرية «عين النسر». فقد ظل المبنى مهجورًا سنوات طويلة، تتآكل جدرانه بصمت، وتغطي الغبار نوافذه الخشبية، حتى ظن أهل القرية أنه لن يعود يومًا مكانًا يجتمعون فيه إلا لاستعادة ذكريات الدراسة وأيام الصبا.

لكن عامر كان يرى في ذلك المكان شيئًا آخر. كان يرى فرصة لإعادة الحياة إلى قرية اعتادت أن تسمع أكثر مما تفكر، وأن تصدق أكثر مما تسأل، وأن تحاكم الناس بالحكايات بدلًا من الأدلة.

عمل مع مجموعة من الشباب على تنظيف القاعات وإصلاح النوافذ وطلاء الجدران. جمعوا الطاولات القديمة، ووضعوا الكراسي في صفوف متقابلة، وعلقوا على الجدار لافتة كتب عليها بخط واضح :

«كيف نفكر قبل أن نصدق؟ »

لم يكتب عامر اسم شخص على اللافتة، ولم يعلق صورة للشيخ فاضل أو لعاشور بائع الأعشاب، ولم يشر إلى أي حادثة بعينها. كان يريد أن يتحدث عن الفكرة دون أن يحول اللقاء إلى محاكمة لأحد.

ومع ذلك، لم يكن يجهل أن بعض الحاضرين سيأتون وهم يحملون في صدورهم أسئلة غاضبة، وأن آخرين

سيجلسون في القاعة لا رغبة في التعلم، بل لمعرفة ما الذي يخطط له هذا الشاب العائد من الجامعة.

في مساء يوم الخميس، بدأت القاعة تمتلئ تدريجيًا. حضر معلمون، ومعلمون متقاعدون، وشباب من أبناء القرية، وبعض النساء اللواتي جلسن في الصفوف الخلفية، ورجال اعتادوا الجلوس أمام الدكاكين لساعات طويلة وهم يتبادلون أخبار الناس.

بلغ عدد الحاضرين نحو ثلاثين شخصًا.

كان عامر يقف أمامهم، وفي يده دفتر صغير، أما عائشة، التي لم تكن تفوت فرصة للاستماع إلى حديث جديد، فقد اختارت مقعدًا في الصف الثاني، ووضعت دفترها الأزرق فوق ركبتيها.

في آخر القاعة، جلس رجل أربعيني بدا عليه الضيق، وأخذ يراقب عامر بعينين ضيقتين. كان الرجل معروفًا بتصديقه السريع لما يتناقله الناس، ولم يكن يخفي اعتقاده بأن الأسئلة الكثيرة لا تجلب إلا المتاعب.

بدأ عامر حديثه دون مقدمات طويلة.

قال:

- أشكركم على حضوركم. لم نجتمع لنتحدث عن شخص معين، ولم نأتِ لنختلف حول من هو الصالح ومن هو الطالح.

اجتمعنا لأننا نعيش في قرية واحدة، ونتقاسم أفراحها وأحزانها، لكننا أحيانًا نسمح للخوف أن يفكر بدلًا منا، وللشائعة أن تتحدث باسم الحقيقة.

تحرك بعض الحاضرين في مقاعدهم، بينما تبادل اثنان من الرجال نظرات سريعة.

واصل عامر:

- كم مرة سمع أحدنا خبرًا عن جاره، فصدقه دون أن يسأله؟ وكم مرة اتهمنا إنسانًا بشيء لمجرد أن شخصًا آخر قال إنه فعله؟ وكم مرة خفنا من حادثة لأن أحدهم ربطها بحكاية قديمة لا نعرف أصلها؟

رفع رجل مسن يده، فأشار إليه عامر بالكلام.

قال الرجل:

- يا بني، نحن لا نعيش في الكتب. نحن نعيش في الواقع، وقد تعلمنا من تجاربنا أن بعض الأمور لا تظهر حقيقتها من أول نظرة.

أومأ عامر برأسه احترامًا، ثم قال:

- أتفق معك. لهذا بالذات يجب ألا نتسرع. التجربة تعلمنا، لكنها تعلمنا أيضًا أن الحادثة الواحدة قد تحتمل أكثر من تفسير. إذا رأيت دخانًا يتصاعد من منزل، فقد تظن أن فيه حريقًا، لكنك لا تستطيع أن تجزم قبل أن تعرف السبب. ربما

احترق الطعام، وربما اشتعلت قطعة خشب، وربما كان هناك حريق بالفعل. العقل لا يمنعنا من التفكير، بل يمنعنا من تحويل الظن إلى حقيقة قبل التحقق.

قال الرجل المسن:

- وماذا عن الأشياء التي عجزنا عن تفسيرها؟

أجاب عامر:

- نقول إننا لا نعرف تفسيرها بعد، ثم نبحث. ليس من الضروري أن نملك جوابًا لكل سؤال في اللحظة نفسها. الاعتراف بعدم المعرفة ليس ضعفًا، بل هو بداية المعرفة.

ثم كتب على السبورة ثلاث كلمات:

المعلومة — الشائعة — الدليل.

استدار نحو الحاضرين وقال:

- المعلومة شيء يمكننا التحقق منه. أما الشائعة فهي خبر ينتقل بين الناس، وقد يكون صحيحًا أو خاطئًا أو محرّفًا. والدليل هو ما يساعدنا على معرفة مدى صحة ما نسمعه. المشكلة ليست في أن تنتقل الأخبار بيننا، بل في أن نمنح كل خبر سلطة الحقيقة قبل أن نفحصه.

رفعت عائشة رأسها عن دفترها، وكتبت العبارة الأخيرة بعناية.

تابع عامر:

- تخيلوا أن أحدهم قال إن امرأة في هذه القرية تجلب المرض لجاراتها. انتشر الكلام، وبدأ الناس يتجنبون بيتها، ثم صار كل من أصيب بالحمى أو الصداع يربط مرضه بزيارتها. هل أصبحت المرأة سببًا للمرض لأن عددًا من الناس قالوا ذلك؟ أم أننا نحتاج إلى معرفة الأسباب الحقيقية، والتحقق من الوقائع، واستشارة الطبيب عند الحاجة؟

ساد صمت قصير.

كان عامر يعرف أن حديثه يقترب من جرح مفتوح في القرية، لكنه تعمد ألا يذكر اسم نصيرة، الأرملة التي ظلت الشائعات تلاحقها سنوات طويلة.

قال شاب من الصف الثالث:

- لكن الناس لا يختلقون كل شيء. أحيانًا تحدث أمور غريبة فعلًا، ثم نكتشف أنها وقعت كما قيل لنا.

أجابه عامر:

- صحيح، فقد تصدق بعض الشائعات مصادفة، وقد يكون الخبر المنقول صحيحًا. لكن صدق خبر واحد لا يعني أن كل الأخبار صحيحة، كما أن وقوع حادثة بعد حادثة أخرى لا يثبت بالضرورة أن الأولى سببت الثانية.

ثم رسم خطًا على السبورة، وكتب على أحد طرفيه:

«حدث»، وعلى الطرف الآخر: «تفسير».

وقال:

- إذا مرض إنسان بعد زيارة مكان معين، فنحن نعرف أنه مرض بعد الزيارة، لكننا لا نعرف من هذه المعلومة وحدها أن الزيارة هي التي سببت المرض. قد يكون السبب عدوى سابقة، أو طعامًا ملوثًا، أو حالة صحية أخرى. علينا أن نفرق بين ما حدث فعلًا وبين التفسير الذي نعطيه لما حدث.

هنا، تحرك الرجل الجالس في آخر القاعة، ورفع يده دون أن ينتظر أن يشير إليه عامر.

قال بنبرة حادة:

- أنت تتحدث عن العقل كأنه قادر على تفسير كل شيء! كأن الإنسان يستطيع أن يعرف أسباب كل ما يحدث في هذه الدنيا. لكن دعني أسألك سؤالًا، وأريد منك جوابًا واضحًا أمام هؤلاء الناس.

التفتت الرؤوس نحوه.

أغلق عامر دفتره وقال:

- تفضل، اسأل ما تشاء.

وقف الرجل، وأسند يده إلى ظهر الكرسي أمامه، ثم قال:

- لماذا مرضت ابنتي بعدما زارت بيت جارتنا؟ كانت ابنتي بخير، تلعب وتضحك، ثم ذهبت إلى بيت جارتنا، وعادت في المساء متعبة، وبعد ساعات ارتفعت حرارتها. أخبرني الآن، يا صاحب

الجامعة والعقل، كيف تفسر ذلك؟ هل ستقول لي إن الأمر مجرد مصادفة؟

ارتفعت همهمات في القاعة.

قال أحد الحاضرين:

- هذا سؤال مهم.

وأضاف آخر:

- نعم، بعض الأمور لا تأتي من فراغ.

أما امرأة كانت تجلس قرب النافذة، فقد وضعت يدها على صدرها وهمست:

- الله يستر بناتنا.

لم يتغير وجه عامر، لكنه أدرك أن اللقاء دخل مرحلته الأصعب. لم يعد الحديث مجرد أفكار عامة يمكن للجميع الموافقة عليها، بل أصبح مواجهة مباشرة بين طريقة تفكير اعتادها أهل القرية، وطريقة أخرى تدعوهم إلى التوقف قبل إصدار الأحكام.

نظر عامر إلى الرجل وقال بهدوء:

- أولًا، أتمنى الشفاء العاجل لابنتك. لا شيء أهم من سلامتها، وأتفهم قلقك عليها. لكن اسمح لي أن أسألك بعض الأسئلة حتى نفهم ما حدث.

رد الرجل بسرعة:

- أنا الذي سألتك، وليس أنت.

لم يرتبك عامر.

قال:

- أعرف، وسأحاول الإجابة، لكنك تطلب مني تفسير حادثة لا أعرف عنها إلا أنها مرضت بعد زيارة جارتكم. إذا أردت جوابًا مسؤولًا، فعلينا أن نعرف بعض التفاصيل. كم كان عمر ابنتك؟ وما الأعراض التي ظهرت عليها؟ وهل أخذتها إلى الطبيب؟ وهل كانت هناك حالات مرض مشابهة في القرية؟

تردد الرجل لحظة، ثم قال:

- ابنتي في التاسعة من عمرها. ارتفعت حرارتها في الليل، وبدأت تشكو من الصداع. لم آخذها إلى الطبيب بعد، لأنني أردت أولًا أن أفهم ما الذي حدث.

قال له عامر:

- اسمح لي أن أطرح عليك سؤالًا آخر. لو أن ابنتك زارت بيت جارتكم، ثم عادت إلى المنزل ووجدت أمها قد أعدت لها طعامًا، وبعد ذلك أصيبت بآلام في بطنها، هل ستتهم الأم بأنها أضرتها؟

قال الرجل:

- لا، إنها أمها!

- ولماذا لا تتهمها؟

- لأنها لا يمكن أن تؤذي ابنتها.

ابتسم عامر ابتسامة خفيفة وقال:

- أنت هنا تستند إلى معرفتك بأمها، وهذا مفهوم. لكن دعنا نفترض أن الطعام كان ملوثًا دون أن تعلم الأم. عندئذ قد يكون الطعام سببًا في المرض، رغم أن الأم لم تقصد إيذاء ابنتها. هل ترى الآن أن وقوع الحدث بعد شيء معين لا يكفي وحده لإثبات أن ذلك الشيء هو السبب؟

لم يجب الرجل فورًا.

تابع عامر:

- نحن لا نطلب منك أن تتخلى عن إحساسك كأب، ولا أن تتجاهل ما حدث لابنتك. نحن نطلب منك فقط ألا تجعل خوفك دليلًا، وألا تحوّل الشك إلى اتهام قد يظلم إنسانًا بريئًا.

قال الرجل بصوت أقل حدة:

- لكن ماذا أفعل إذا لم أجد تفسيرًا؟

أجابه عامر:

- تبدأ بما نعرفه، ثم تبحث عما لا نعرفه. تأخذ ابنتك إلى الطبيب، وتشرح له الأعراض وتوقيت ظهورها، وتتابع حالتها. وإذا احتجت إلى معلومات إضافية، تبحث عنها من مصادر موثوقة. أما أن تتهم جارتك دون دليل، فقد تضيف ظلمًا جديدًا إلى مرض ابنتك، ولن يساعد ذلك في شفائها.

تدخل رجل آخر من الحاضرين، وكان يرتدي عباءة بيضاء:

- كلام جميل، لكننا نعيش في مجتمع له عاداته ومعتقداته. لا يمكنك أن تطلب من الناس تغيير كل ما ورثوه عن آبائهم في جلسة واحدة.

أجابه عامر:

- لم أطلب من أحد أن يغير كل شيء في ليلة واحدة. أنا أطلب أن نفكر في كل فكرة، وأن نميز بين ما يستند إلى دليل وما يستند إلى الخوف. احترام الآباء لا يعني أن كل ما سمعناه منهم صحيح، كما أن احترام الناس لا يعني أن نقبل اتهامهم دون بينة. ثم أضاف:

- هناك فرق بين احترام الإنسان واحترام كل فكرة يقولها. يمكننا أن نحترم شخصًا ونختلف معه، ويمكننا أن نحترم معتقدات الناس دون أن نسمح لها بإلحاق الأذى بغيرهم.

رفعت امرأة مسنة يدها بتردد، ثم قالت:

- يا بني، أحيانًا نخاف من أمور لا نعرفها. عندما يمرض طفل، تبحث أمه عن أي شيء قد ينقذه. لا تلوموا الناس على خوفهم.

التفت إليها عامر، وقد بدا في صوته شيء من التأثر.

قال:

- لا ألوم الخائفين يا خالتي، فأنا أعرف أن الخوف قد يجعل الإنسان يبحث عن أي باب للنجاة. لكن المشكلة تبدأ عندما يستغل أحدهم هذا الخوف، فيقنع الناس بأن لديه معرفة لا يملكها غيره، أو يطلب منهم المال مقابل وعود لا يستطيع إثباتها. عندها يصبح الخوف تجارة، ويصبح الإنسان الضعيف أول ضحاياها.

عند هذه الكلمات، تحرك بعض الحاضرين في مقاعدهم. كان اسم الشيخ فاضل حاضرًا في أذهانهم، وإن لم ينطقه أحد. فقد اعتاد عدد من أهل القرية اللجوء إليه عندما تضيق بهم السبل، وكان بعضهم يخرج من عنده مطمئنًا، بينما يعود آخرون أكثر خوفًا من ذي قبل.

أما عاشور، الذي كان يبيع الأعشاب ويستفيد من انتشار الحكايات المخيفة، فقد بدأ يشعر بأن الحديث قد يفتح أبوابًا لم يكن يريد لأحد أن يقترب منها.

قال شاب من الصف الأول:

- وماذا عن الأمور التي لا يستطيع الطبيب تفسيرها؟ هل نترك المريض يعاني ونقول إننا لا نعرف؟

قال عامر:

- وهذا هو جوهر حديثنا الليلة. ليس المطلوب أن نجيب عن كل سؤال، بل أن نتعلم كيف نبحث عن الجواب الصحيح.

هناك فرق كبير بين إنسان يقول: «لا أعرف، فلنبحث»، وإنسان يقول: «لا أعرف، إذن لا بد أن يكون الأمر سحرًا أو لعنة أو فعلًا غامضًا.»

قال الرجل الذي أثار السؤال الأول:

- أنت تتحدث وكأن الناس جميعًا قادرون على البحث والتحقق. نحن أناس بسطاء، لا نملك شهادات جامعية ولا نعرف هذه المصطلحات.

رد عامر:

- التفكير السليم ليس حكرًا على أصحاب الشهادات. الفلاح الذي يراقب أرضه ويتعلم متى يزرع ومتى يسقي يستخدم الملاحظة والتجربة. والنجار الذي يقيس الخشب قبل قطعه يتجنب الخطأ بالتحقق. والأم التي تلاحظ تغير حرارة طفلها وتطلب المساعدة الطبية تمارس نوعًا من التفكير المسؤول. ليست المشكلة في بساطة الناس، بل في أن يقنعهم أحد بأن السؤال عيب، وأن التفكير اعتراض، وأن البحث عن الدليل قلة احترام.

ثم نظر إلى الحاضرين واحدًا واحدًا، وقال بصوت أكثر قوة:

- ليس عيبًا أن تجهل شيئًا، ولكن العيب أن ترفض معرفته.

كانت عائشة تكتب بسرعة في دفترها الأزرق، بينما تبادل بعض الشباب نظرات تحمل شيئًا من الإعجاب. أما الرجل

الذي وقف معترضًا، فقد عاد إلى مقعده، لكنه ظل شاردًا، ينظر إلى الأرض وكأنه يعيد ترتيب أفكاره.

بعد لحظات، وقف رجل آخر وقال:

- لدي سؤال. إذا كانت الشائعة تظلم الناس، فلماذا يصدقها الجميع؟ لماذا تنتشر بسرعة أكبر من الحقيقة؟

أجاب عامر:

- لأن الشائعة في كثير من الأحيان تقدم جوابًا سهلًا عن مشكلة معقدة. عندما يموت طفل، يشعر الناس بالحزن والخوف، فيبحثون عن تفسير سريع. وعندما يمرض شخص بعد زيارة جاره، يربط بعضهم بين الحدثين، لأن العقل البشري يميل أحيانًا إلى البحث عن روابط حتى عندما لا تتوافر أدلة كافية عليها. ثم تنتقل الحكاية من شخص إلى آخر، ويضيف كل واحد إليها شيئًا من خوفه أو خياله، حتى تصبح القصة في النهاية مختلفة عن الحقيقة التي بدأت منها.

قال الرجل:

- وهل تعتقد أن كل أهل القرية مخطئون؟

رد عامر:

- لا. أنا لا أتهم أهل القرية، ولا أضع نفسي فوقهم. أنا واحد منهم، وقد أصدق خبرًا خاطئًا كما يصدقه غيري إذا لم أنتبه.

لذلك نحن بحاجة إلى أن نتعلم جميعًا، وأن نقبل تصحيح أخطائنا دون أن نشعر بالإهانة.

تدخل المعلم المتقاعد، والد عائشة، وكان يجلس في الصف الثالث:

- كلامك يا عامر يذكرني بما كنت أقوله لتلاميذي في المدرسة. كنت أطلب منهم أن يسألوا، لكن بعض الأولياء كانوا يظنون أن كثرة الأسئلة تجعل أبناءهم أقل احترامًا للكبار.

نظر إليه عامر وقال:

- وهل كنت تجد صعوبة في إقناعهم؟

ابتسم المعلم ابتسامة حزينة:

- أحيانًا. كان بعضهم يعتقد أن الطفل الجيد هو الذي يسمع ويطيع ولا يناقش. لكنني كنت أرى أن الطفل الذي يسأل اليوم قد يصبح رجلًا قادرًا على حماية نفسه من الخطأ غدًا.

خفضت عائشة رأسها قليلًا، فقد شعرت أن حديث أبيها يلامس حلمًا تخفيه في صدرها؛ حلمها في دراسة الطب، الذي ظل والدها يراه خطرًا لا ضرورة له.

تابع المعلم:

- غير أنني أعترف بأنني لم أكن شجاعًا دائمًا في الدفاع عن أفكاري. أحيانًا كنت أصمت حتى لا أدخل في خلاف مع الناس.

ساد الصمت للحظات.

كان اعتراف المعلم بسيطًا، لكنه ترك أثرًا واضحًا في نفوس الحاضرين. فالقرية التي اعتادت أن يخفي فيها الناس شكوكهم بدأت تسمع، للمرة الأولى منذ زمن طويل، رجلًا يعترف بأنه خاف من قول ما يؤمن به.

قال عامر:

- لا أحد منا مطالب بأن يكون شجاعًا طوال الوقت، لكن يمكننا أن نتعلم كيف نبدأ. قد تكون كلمة واحدة صادقة بداية تغيير كبير، وقد يكون سؤال واحد سببًا في إنقاذ إنسان من الظلم.

عندها، ارتفع صوت رجل من قرب الباب:

- وماذا لو كان السؤال نفسه سببًا في المشاكل؟ ماذا لو أدى كلامك هذا إلى أن يفقد الناس ثقتهم بكل شيء؟

التفت عامر نحوه، ثم أجاب:

- أنا لا أدعو إلى الشك في كل شيء، بل إلى التحقق مما يستحق التحقق. لا أريد أن يفقد الناس ثقتهم ببعضهم، بل أريد ثقة تقوم على الصدق لا على الخوف. إذا كان إنسان يقدم مساعدة حقيقية، فليقدمها بوضوح. وإذا كان صاحب معرفة، فليقبل أن نسأله عن أساس كلامه. أما إذا طلب منا أن نصدق دون أن نفهم، وأن نخاف دون أن نعرف السبب، فمن حقنا أن نتوقف ونسأل.

لم يرد الرجل، لكنه أدار وجهه نحو النافذة.

كانت الشمس قد غابت تمامًا، وبدأ الظلام يتسلل عبر الزجاج القديم. أشعل أحد الشباب مصباحًا إضافيًا، فعادت القاعة إلى وضوحها، وكأن الضوء نفسه يشارك في مقاومة العتمة.

في تلك اللحظة، وقف الرجل الذي سأل عن مرض ابنته مرة أخرى. قال بصوت خافت:

- سأذهب بها إلى الطبيب غدًا. لكنني لا أعدك بأنني سأقتنع بكل ما قلته الليلة.

ابتسم عامر وقال:

- لا أطلب منك أن تقتنع بي، بل أطلب منك أن تمنح الحقيقة فرصة لتظهر.

ثم أضاف:

- وإذا اكتشف الطبيب سبب مرضها، فسنعرف أكثر مما نعرف الآن. وإذا لم يتضح السبب مباشرة، فسنواصل البحث. المهم ألا نحول جهلنا بالسبب إلى اتهام لإنسان آخر.

هز الرجل رأسه، وجلس دون أن يضيف شيئًا.

لم يكن ذلك انتصارًا كاملًا لعامر، لكنه كان بداية صغيرة. فقد جاء الرجل يبحث عن تأكيد لشكوكه، وخرج وهو يفكر في احتمال أن يكون مخطئًا.

وقبل انتهاء اللقاء، طلب عامر من الحاضرين أن يشاركوا في تمرين بسيط.

كتب على السبورة:

«سمعت أن فلانًا فعل كذا. هل تصدق؟»

ثم استدار نحوهم وسأل:

- ما أول سؤال يجب أن نطرحه قبل أن نصدق هذا الكلام؟

قال شاب:

- من الذي نقل الخبر؟

وأضاف آخر:

- وهل شاهد الحادثة بنفسه؟

وقالت عائشة:

- وهل توجد أدلة يمكن التحقق منها؟

ابتسم عامر وقال:

- أحسنتم. ويمكننا أيضًا أن نسأل: هل هناك تفسير آخر؟ وهل يمكن أن يكون الخبر قد نُقل بطريقة خاطئة؟ وهل سيترتب على تصديقه ظلم لإنسان؟

ثم كتب تحت العبارة الأولى :

من قال؟ ماذا نعرف؟ ما الدليل؟ وما النتائج؟ وقال:

- إذا تعلمنا أن نطرح هذه الأسئلة قبل أن نحكم على الآخرين، فقد نمنع كثيرًا من الظلم، ونحمي أنفسنا من الخوف الذي يصنعه الجهل.

انتهى اللقاء، وبدأ الحاضرون يغادرون القاعة في مجموعات صغيرة.

كان بعضهم يتحدث بإعجاب عن شجاعة عامر، وبعضهم يرى أنه يبالغ في الثقة بالعقل، بينما خرج آخرون وهم يخفون انزعاجهم من الأفكار التي سمعوها.

أما عائشة، فقد انتظرت حتى اقترب منها عامر، ثم قالت:

- هل تعتقد أن الناس سيتغيرون فعلًا؟

نظر إليها وقال:

- ليس جميعهم، وليس بسرعة. بعض الناس يحتاجون إلى وقت طويل حتى يتخلوا عن أفكار عاشوا معها سنوات. وبعضهم لن يتغير أبدًا، لأن الحقيقة قد تهدد مصالحه. لكن يكفي أن يبدأ شخص واحد في السؤال، ثم يسأل آخر، حتى لا يبقى الصمت هو القاعدة الوحيدة في القرية.

قالت عائشة:

- وماذا لو عارضوك؟

أجابها:

- سأحاول أن أكون واضحًا وعادلًا. لن أهاجم أحدًا بسبب أفكاره، لكنني لن أسمح للخوف بأن يمنعني من مناقشتها.

أغلقت عائشة دفترها الأزرق، وشعرت للمرة الأولى أن ما تكتبه سرًا قد يجد يومًا طريقه إلى النور.

غادر عامر القاعة بعد أن تأكد من إغلاق النوافذ وإطفاء المصابيح. وعندما خرج إلى الساحة، وجد رجلين يقفان قرب البوابة ويتحدثان بصوت منخفض.

لم يسمع كل ما قالاه، لكنه التقط جملة جعلته يتوقف لحظة:

- هذا الشاب لن يسكت طويلًا، وإذا استمر على هذا الطريق فستتغير أمور كثيرة.

ثم جاءه صوت الرجل الآخر:

- وبعض الناس لن يسمحوا له بذلك.

واصل عامر سيره، لكنه شعر بأن كلمات الرجلين لم تكن مجرد حديث عابر.

كان يعرف أن أول مواجهة حقيقية لم تبدأ عندما رفع الرجل صوته داخل القاعة، بل عندما تجرأ أحدهم على طرح سؤال كان كثيرون يخشون الاقتراب منه.

وفي الجهة الأخرى من القرية، داخل غرفة ضيقة يملؤها دخان البخور، كان الشيخ فاضل يستمع إلى رجل جاءه يحمل أخبار اللقاء.

قال الرجل:

- اجتمع الناس في المدرسة القديمة، وتحدث عامر عن الشائعات والخوف، وقال إن على الناس ألا يصدقوا أحدًا دون دليل.

رفع الشيخ فاضل رأسه ببطء.

وهل ذكر اسمي؟

- لا، لم يذكر اسمك ولا اسم أحد. لكنه قال كلامًا جعل بعض الحاضرين ينظرون إلى الأمور بطريقة مختلفة.

ظل الشيخ صامتًا لحظات، ثم سأل:

- ومن كان حاضرًا؟ أخذ الرجل يعدد بعض الأسماء. تغيرت ملامح الشيخ قليلًا.

قال:

- يبدو أن الشاب يريد أن يجعل نفسه معلمًا للقرية كلها.

ثم مد يده إلى كأس الماء، لكنه لم يشرب. بقي ينظر إلى سطحه الساكن، وكأن أفكاره كانت أكثر اضطرابًا مما يريد أن يظهر.

قال الرجل:

- هل تعتقد أنه يستطيع أن يؤثر في الناس؟

أجابه الشيخ:

- الناس لا يغيرون عاداتهم بسهولة.

ثم سكت قليلًا، وأضاف:

- لكن المشكلة ليست في كلامه وحده. المشكلة أن الناس بدأوا يسألون.

كانت تلك الجملة أقصر من أن تكشف ما يدور في صدره، لكنها كانت كافية لتظهر خوفًا لم يعتد أحد أن يراه عليه. فما دام الناس يصدقون دون أن يسألوا، يستطيع صاحب النفوذ أن يحافظ على مكانته. أما حين يبدأ السؤال، فإن كل شيء يصبح قابلًا للمراجعة.

وفي تلك الليلة، لم ينم عامر سريعًا. جلس قرب نافذته، يستعيد وجوه الحاضرين وكلماتهم ونظراتهم المترددة. كان يعرف أن لقاءً واحدًا لن يبدد سنوات من الخوف، وأن الحقيقة لا تنتصر بمجرد أن تُقال، بل تحتاج إلى الصبر والعمل والشجاعة.

لكنه كان سعيدًا بأمر واحد:

لقد فُتح باب المركز الثقافي، ودخل الناس إليه حاملين أسئلتهم، لا طلبًا لإجابة جاهزة فحسب، بل بحثًا عن طريقة جديدة لفهم العالم من حولهم.

وفي «عين النسر»، حيث كان السؤال يُعد أحيانًا خروجًا عن المألوف، بدأت بذرة صغيرة تنمو تحت التراب. لم يكن أحد يعرف متى ستثمر، ولا كم من العواصف ستواجه، لكن عامر أدرك أن المعركة الحقيقية لم تكن بينه وبين الشيخ فاضل، ولا بينه وبين رجل يصدق الشائعات . كانت المعركة بين عقل يتعلم كيف يسأل، وخوف يريد من الإنسان أن يصدق قبل أن يفكر.

ومن تلك الليلة، لم يعد المركز الثقافي مجرد مبنى قديم أعيد فتح أبوابه، بل أصبح المكان الذي بدأ فيه أهل «عين النسر» يكتشفون أن أخطر القيود ليست دائمًا تلك التي تُوضع حول الأيدي، بل تلك التي تمنع العقول من طرح الأسئلة.

الفصل السادس:
الفتاة التي أرادت أن تتعلم

لم تكن عائشة تشبه بقية فتيات القرية في كل شيء، فقد كانت هادئة إلى درجة أن بعض الناس كانوا يظنونها خجولة أكثر مما ينبغي، بينما كان آخرون يعتقدون أنها لا تهتم بما يدور حولها. لكنها في الحقيقة كانت تعيش حياة أخرى خلف صمتها؛ حياة مليئة بالأسئلة والأحلام والأفكار التي لم تجد طريقها بعد إلى العلن.

كانت ابنة معلم متقاعد أفنى سنوات طويلة من عمره في تعليم أبناء القرية، رجلًا عرفه الناس بالانضباط والحرص على سمعة أسرته، لكنه، مثل كثيرين من أبناء جيله، كان يرى أن العالم خارج القرية مليء بالمخاطر التي يصعب على الفتاة مواجهتها وحدها.

أما عائشة، فكانت ترى العالم من نافذة مختلفة.

كانت تحب القراءة بشغف، وتجد في الكتب أبوابًا مفتوحة على عوالم لم تطأها قدماها قط. تقرأ القصص والروايات والكتب العلمية، وتتوقف طويلًا عند العبارات التي تثير فضولها، ثم تعود إليها مرات عديدة وكأنها تبحث بين كلماتها عن إجابات لأسئلة لم تجرؤ على طرحها على أحد. وكان لها دفتر أزرق صغير تخفيه تحت فراشها، لا تفارقه إلا عندما تضطر إلى ذلك. في صفحاته كتبت خواطرها وأحلامها ومخاوفها، وسجلت ملاحظاتها عن الناس الذين يعيشون

حولها، وعن الأفكار التي تحكم حياتهم، وعن التناقض الغريب بين ما يقولونه وما يفعلونه.

كتبت ذات مساء:

«لماذا يخاف الناس من الأسئلة؟ ولماذا يعتقد بعضهم أن التفكير خطر، وأن الطاعة فضيلة حتى عندما تقودنا إلى الخطأ؟ أليس العقل نعمة وهبها الله للإنسان حتى يميز بها بين الحق والباطل؟»

أغلقت الدفتر، ثم أعادته إلى مكانه المعتاد تحت الفراش. لم تكن تعرف أن هذه الأسئلة الصغيرة ستقودها يومًا إلى مواجهة أفكار ظلت مسيطرة على القرية سنوات طويلة.

1- حلم خلف الأبواب المغلقة

أنهت عائشة دراستها الثانوية بتفوق، وحصلت على نتائج جعلت أساتذتها يتحدثون عنها بإعجاب. كان بعضهم يتوقع لها مستقبلًا علميًا متميزًا، بينما كانت هي ترى أن النجاح الحقيقي لم يبدأ بعد. كان حلمها أن تدرس الطب في الجامعة.

لم يكن ذلك الحلم وليد لحظة عابرة، بل نما في داخلها منذ طفولتها، عندما شاهدت امرأة من القرية تحمل طفلها المريض من بيت إلى آخر، بحثًا عمن يساعدها في الوصول إلى طبيب. يومها رأت عائشة العجز في عيني الأم، وشعرت بأن

العلم يمكن أن يكون يدًا تمتد إلى المحتاجين، وأن الطبيب لا يعالج الأجساد وحدها، بل يمنح الناس الأمل أيضًا.

ومنذ ذلك اليوم، أخذت تردد في نفسها:

«سأصبح طبيبة، وسأعود إلى قريتي يومًا لأعالج أبناءها، حتى لا تضطر أم إلى حمل طفلها بين البيوت بحثًا عن المساعدة.»

لكن الأحلام لا تنمو دائمًا في أرض خصبة؛ فقد تصطدم أحيانًا بجدران من الخوف، وتجد نفسها محاصرة بأفكار لم تخترها.

في صباح يوم هادئ، جلست عائشة أمام والدها، وكان يمسك صحيفة قديمة ويتصفح صفحاتها ببطء. وضعت أمامه وثائق تسجيلها الجامعي، ثم قالت بصوت خافت حاولت أن تخفي وراءه ارتجاف قلبها:

- أبي، لقد ظهرت النتائج، ويمكنني التسجيل في كلية الطب. أريد أن أذهب إلى الجامعة مع بداية السنة الدراسية.

رفع والدها عينيه إليها، ثم وضع الصحيفة جانبًا.

- كلية الطب؟ أعرف أنك متفوقة يا ابنتي، ولم أشك يومًا في قدرتك على النجاح، لكن هل فكرت جيدًا في هذا الأمر؟

أجابته بحماس:

- فكرت فيه كثيرًا يا أبي. منذ سنوات وأنا أستعد لهذه اللحظة. سأجتهد في دراستي، ولن أخيب ظنك.

تنهد الرجل، ونظر إلى الأوراق أمامه، ثم قال:

- المدينة ليست مكانًا آمنًا يا عائشة. هناك أناس لا نعرفهم، وأفكار لا تشبه أفكارنا، وأمور قد لا تستطيعين مواجهتها وحدك. أنت فتاة، والناس لا يرحمون، وكلمة واحدة قد تصبح حديث القرية كلها.

شعرت عائشة بأن شيئًا ثقيلًا استقر في صدرها.

- لكن يا أبي، كيف سأتعلم إذا بقيت هنا؟ وكيف سأصبح طبيبة إذا لم أذهب إلى الجامعة؟

قال والدها بنبرة حازمة:

- يمكنك أن تعيشي حياة كريمة هنا، وتتعلمي ما ينفعك، ثم تتزوجين رجلًا صالحًا. ليس كل ما نريده يصلح لنا.

نظرت إليه طويلًا، وكأنها تحاول أن ترى في وجهه الرجل الذي علم أبناء القرية أن المعرفة تفتح الأبواب، لا الرجل الذي يقف الآن أمام باب مستقبلها ويطلب منها أن تبقى خارجه.

قالت بهدوء:

- ألم تقل لنا دائمًا إن العلم نور؟

أجابها:

- بلى.

- أولم تقل إن الإنسان لا يتقدم إلا بالعلم؟

- قلت ذلك، وما زلت أؤمن به.

- إذن، لماذا يصبح العلم خطرًا عندما يتعلق الأمر بي؟

تغيرت ملامح والدها، ولم يجد جوابًا سريعًا.

قال بعد لحظة:

- لا تجادلي يا عائشة. أنا أخاف عليك، وأريد مصلحتك.

أطرقت الفتاة برأسها، ثم جمعت أوراقها ببطء.

- أعرف أنك تخاف عليّ يا أبي، لكنني أخاف أيضًا من أن يأتي يوم أندم فيه لأنني لم أحاول.

غادرت الغرفة وهي تحبس دموعها .

لم تكن تريد أن تعصي والدها، ولم تكن ترغب في أن تتحول رغبتها في التعلم إلى مشكلة عائلية، لكنها شعرت للمرة الأولى أن الطريق إلى تحقيق حلمها قد يكون أصعب من سنوات الدراسة التي تنتظرها.

في تلك الليلة، أخرجت دفترها الأزرق، وكتبت:

«أحيانًا لا يقف الفقر في طريق الإنسان، ولا نقص الإمكانات، بل يقف الخوف. والخوف حين يرتدي ثوب الحكمة يصبح من الصعب الاعتراض عليه، لأن من يرفضه يُتهم بأنه لا يعرف مصلحته.»

ثم توقفت قليلًا وأضافت:

«هل يكفي أن يحبنا الآخرون حتى تكون قراراتهم صحيحة؟ وهل يمكن أن يحرمنا أحدهم من مستقبلنا وهو يعتقد أنه يحمينا؟»

أغلقت الدفتر، لكنها لم تستطع النوم.

2- الشيخ فاضل يدخل على الخط

لم تمض أيام حتى وصل خبر رغبة عائشة في الدراسة الجامعية إلى الشيخ فاضل، الرجل الذي اعتاد أهل القرية الرجوع إليه في أمور كثيرة، من خلافات العائلات إلى تفسير الأحلام، ومن الأمراض الغامضة إلى القرارات التي تتعلق بمستقبل أبنائهم.

كان الشيخ يحظى بمكانة كبيرة لدى عدد من السكان، وكان يعرف كيف يستخدم الكلمات التي تثير الخوف في النفوس، ثم يقدم نفسه بوصفه الشخص القادر على إزالة ذلك الخوف.

ذات عصر، زار والد عائشة في منزله.

جلس الرجلان في غرفة الضيوف، وقدمت عائشة الشاي ثم انسحبت إلى الداخل، لكنها ظلت تسمع الحديث من وراء الباب.

قال الشيخ فاضل:

- بلغني أن ابنتك تريد الذهاب إلى الجامعة.

أجاب والدها:

- نعم، إنها تريد دراسة الطب، وقد أرهقني هذا الأمر. لا أريد أن أظلمها، لكنني أخشى عليها من المدينة.

هز الشيخ رأسه ببطء، ثم قال:

- أنت رجل عاقل، وتعرف أن الدنيا تغيرت. ليست كل الطرق التي تبدو جميلة في بدايتها تؤدي إلى الخير.

سكت قليلًا، ثم أضاف:

- لا تستعجل. أحيانًا ما نتمناه يكون سبب شقائنا.

كانت العبارة بسيطة، لكنها وقعت في نفس والد عائشة موقعًا عميقًا.

سأله:

- وما الذي ينبغي أن أفعله؟

أجاب الشيخ:

- تمهل، ودع الأيام تكشف لك الأمر. لا داعي لأن تتسرع في اتخاذ قرار قد تندم عليه. البنت ما زالت صغيرة، ويمكنها أن تنتظر سنة أو سنتين. ما الضرورة التي تدفعها إلى مغادرة بيت أبيها الآن؟

قال والدها:

- إنها متفوقة، وقد تخسر فرصة الدراسة إذا تأخرت.

ابتسم الشيخ ابتسامة خفيفة وقال:

- الفرص كثيرة، أما راحة البال فلا تُشترى. ثم إن الإنسان لا يعرف ما يخبئه له الغد.

لم يكن في كلام الشيخ دليل على أن الجامعة ستضر عائشة، ولم يذكر حادثة محددة أو خطرًا يمكن التحقق منه. لكنه لم يكن بحاجة إلى ذلك؛ فقد كان الخوف قد وجد مكانًا في قلب الأب، وجاء الشيخ ليمنحه كلمات تبدو وكأنها تؤكد صحته.

كانت عائشة تستمع خلف الباب، وشعرت بأن مستقبلها يُناقش في غيابها، وكأنها ليست صاحبة الحلم، بل موضوع خلاف بين رجلين.

وعندما انصرف الشيخ، دخلت إلى غرفة الضيوف.

قالت لوالدها:

- هل يمكنني أن أتحدث معك؟

أشار إليها بالجلوس.

قالت:

- سمعت حديثكما، وأريد أن أسألك سؤالًا واحدًا. هل قال الشيخ إن هناك خطرًا محددًا يهددني إذا ذهبت إلى الجامعة؟

تردد والدها، ثم قال:

- إنه رجل صاحب خبرة، ويريد الخير لنا.

أجابته:

- أنا لم أقل إنه يريد الشر، لكنني أسأل عن الدليل. هل حدث شيء يجعلنا نعتقد أن الدراسة ستؤذيني؟ هل نعرف فتاة ذهبت إلى الجامعة فعادت نادمة؟ أم أننا نخاف فقط لأننا لا نعرف ما الذي ينتظرنا هناك؟

تجهم وجه والدها.

- أنت لا تفهمين الحياة كما أفهمها أنا.

قالت:

- ربما، لأنني لم أعشها بعد. لكن كيف سأفهمها إذا منعتني من خوضها؟

لم يرد.

أضافت عائشة:

- يا أبي، أنا لا أطلب منك أن تتركني وحدي في طريق مجهول. أطلب منك أن تساعدني على الاستعداد له. يمكنني أن أدرس في مكان آمن، وأن أتواصل معك باستمرار، وأن أحافظ على نفسي وديني وأخلاقي. لماذا نغلق الباب كله لمجرد أننا نخشى ما وراءه؟

قال والدها بحدة لم تعهدها منه:

- يكفي يا عائشة! لا أريد أن يتحول بيتي إلى ساحة جدال.

قامت الفتاة وغادرت الغرفة.

وفي داخلها، لم يعد الحزن وحده هو الذي يتحرك، بل بدأت أسئلة أخرى تتشكل: لماذا يصبح رأي الرجل الكبير صحيحًا لمجرد أنه كبير؟ ولماذا يمكن لعبارة غامضة أن تهزم حلمًا واضحًا؟ ولماذا يثق بعض الناس في التحذيرات التي لا دليل عليها أكثر من ثقتهم في العلم الذي قضوا سنوات في تعلمه؟

كانت هذه الأسئلة بداية معركة جديدة في عقل عائشة، معركة لم يكن خصمها فيها والدها، بل الخوف الذي سيطر عليه.

3- لقاء عامر في المركز الثقافي

في تلك الفترة، كان عامر قد عاد إلى القرية بعد أن أنهى جزءًا مهمًا من دراسته الجامعية. لم يعد ذلك الشاب الذي غادرها قبل سنوات وهو يحمل حقيبة صغيرة ونصائح جده في أذنيه؛ فقد منحته الجامعة فرصة للتعرف إلى أفكار مختلفة، وعلّمته أن السؤال ليس عيبًا، وأن الشك في المعلومة ليس رفضًا للحقيقة، بل قد يكون الطريق الأول للوصول إليها.

وكان عامر قد بدأ ينظم لقاءات في المركز الثقافي، يجمع فيها شباب القرية ورجالها ونساءها، ويناقش معهم قضايا تمس حياتهم اليومية.

اختار هذه المرة عنوانًا أثار فضول الكثيرين:

«كيف نفكر قبل أن نصدق؟»

انتشر الخبر في القرية، وتحدث الناس عنه في المقاهي والدكاكين والبيوت.

قال أحدهم:

- هذا عامر يريد أن يعلمنا كيف نفكر! وهل نسينا عقولنا حتى يأتي ليذكرنا بها؟

ضحك رجل آخر وقال:

- دعه يتحدث، فربما وجدنا عنده ما ينفعنا.

أما الشيخ فاضل، فقد سمع باللقاء ولم يبدِ اعتراضًا علنيًا، لكنه قال لبعض من حوله:

- الكلام سهل، لكن الحياة ليست كتبًا ومحاضرات. سيعرف هذا الشاب يومًا أن ما يتعلمه في الجامعة لا يكفي لفهم الناس.

وصلت عائشة إلى المركز الثقافي قبل بدء اللقاء بدقائق. ارتدت ثيابًا بسيطة، وحملت حقيبتها الصغيرة، وجلست في الصفوف الخلفية حتى لا تلفت الأنظار إليها.

لم تكن معتادة على حضور مثل هذه اللقاءات، لكنها شعرت أن الموضوع يمس شيئًا عميقًا في نفسها.

كان عامر يقف أمام الحاضرين، وبجواره سبورة كتب عليها ثلاثة أسئلة:

ما الذي نعرفه؟

ما الدليل عليه؟

وهل يمكن أن نكون مخطئين؟

بدأ حديثه قائلًا:

- السلام عليكم جميعًا. نحن هنا اليوم لا لنتهم أحدًا بالجهل، ولا لنسخر من معتقدات الناس، ولا لنقول إن كل ما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا خطأ. نحن هنا لنتعلم كيف نميز بين الحكمة والخرافة، وبين النصيحة المبنية على التجربة والتحذير الذي لا يقوم على دليل.

توقف قليلًا، ثم تابع:

- لقد ورثنا عن أجدادنا قيمًا عظيمة، منها الشجاعة والكرم والوفاء واحترام الكبير. وهذه قيم نحافظ عليها ونعتز بها. لكن احترام الأجداد لا يعني أن نمنح كل فكرة قديمة حصانة من السؤال، كما أن احترام الكبير لا يعني أن نتخلى عن عقولنا أمامه.

هز بعض الحاضرين رؤوسهم موافقين، بينما تبادل آخرون النظرات.

واصل عامر:

- تخيلوا أن رجلًا قال لكم إن شرب الماء من هذا الكأس سيجلب لكم الحظ، وإن شربه من كأس آخر سيجلب لكم المصائب. هل يكفي أن يكون الرجل كبير السن حتى نصدقه؟ أم نسأله: ما الدليل؟

رفع رجل في منتصف العمر يده وقال:

- يا بني، هناك أمور جربها الناس عبر السنين، ولا يمكن أن تكون كلها خطأ.

أجابه عامر:

- كلامك صحيح من جهة، يا عمي. التجربة مصدر مهم للمعرفة، لكن ينبغي أن نعرف ماذا تثبت التجربة فعلًا. إذا أصيب رجل بصداع ثم شرب مشروبًا معينًا فاختفى الصداع، فهل نستطيع أن نجزم بأن المشروب هو السبب؟ ربما كان الصداع سيختفي وحده، وربما كان السبب شيئًا آخر. لهذا نحتاج إلى التحقق، لا إلى الاكتفاء بالتزامن بين حادثتين.

قال رجل آخر:

- لكننا نعرف أشخاصًا حدث لهم ما توقعه بعض العرافين!

ابتسم عامر وقال:

- دعنا نفكر في الأمر. إذا قال عراف لشخص: ستواجه مشكلة في الأيام القادمة، فهل هذه نبوءة دقيقة؟ من منا لا يواجه مشكلة من حين إلى آخر؟ أما إذا قال لك شيئًا محددًا،

فكيف نعرف أنه علم بالغيب وليس مجرد تخمين أو مصادفة؟ ولماذا نتذكر الحالات التي وافقت كلامه وننسى عشرات الحالات التي أخطأ فيها؟

ساد الصمت للحظات.

كانت عائشة تتابع كل كلمة باهتمام.

شعرت أن عامر لا يحاول فرض رأيه على الحاضرين، بل يدعوهم إلى التفكير بأنفسهم. وهذا ما جعلها تشعر بالراحة؛ فقد كانت تخشى أن يكون اللقاء مجرد محاضرة أخرى يهاجم فيها شخصٌ الناس ويصفهم بالجهل.

لكن عامر اختار طريقًا مختلفًا.

قال:

- هناك فرق بين أن نقول للإنسان: أنت مخطئ، وبين أن نساعده على اكتشاف الخطأ بنفسه. السخرية قد تجعله يدافع عن فكرته أكثر، أما السؤال الهادئ فقد يفتح أمامه بابًا جديدًا.

ثم كتب على السبورة عبارة أخرى:

«لا تجعل الخوف دليلًا، ولا تجعل الثقة بديلًا عن البرهان.»

قرأ الحاضرون العبارة، وبدأ بعضهم يتهامس.

في تلك اللحظة، رفعت عائشة يدها للمرة الأولى.

لاحظ عامر ترددها، فقال بلطف:

- تفضلي، أختي. خذي وقتك، فنحن هنا لنتعلم من بعضنا.

وقفت عائشة، ثم قالت:

- أريد أن أسأل سؤالًا قد يبدو بعيدًا عن موضوع الخرافات، لكنه يشغلني كثيرًا.

أجابها:

- تفضلي.

قالت:

- إذا كان شخص يريد تحقيق حلم مشروع، لكن أسرته تخاف عليه، ثم يأتي شخص له مكانة كبيرة في المجتمع ويقول إن هذا الحلم قد يكون سبب شقائه، فكيف يستطيع الإنسان أن يعرف هل هذا تحذير حقيقي أم مجرد خوف لا يستند إلى دليل؟

ساد الهدوء في القاعة.

لم تكن عائشة قد ذكرت اسم والدها أو الشيخ فاضل، لكن بعض الحاضرين فهموا أن سؤالها يتجاوز حدود النقاش النظري.

نظر عامر إليها باهتمام، ثم قال:

- سؤال مهم جدًا. أول شيء ينبغي أن نفعله هو أن نميز بين الخوف والمعلومة. الخوف شعور، وقد يكون نابعًا من المحبة والحرص، لكنه لا يثبت وحده أن الخطر موجود. إذا قال لك

شخص إن طريقًا ما خطر، فمن حقك أن تسأليه: ما الخطر؟ هل وقع شيء محدد؟ هل هناك أدلة؟ وهل يمكننا اتخاذ احتياطات تجعل الطريق أكثر أمانًا؟

أومأت عائشة برأسها، فتابع:

- علينا أيضًا أن نفرق بين النصيحة والمنع. النصيحة تساعد الإنسان على اتخاذ قرار أفضل، أما المنع من دون سبب واضح فقد يحرم الإنسان من فرصة لا تعوض. ومع ذلك، ليس معنى هذا أن نتجاهل نصائح أهلنا أو نتصرف بتهور. يمكننا احترامهم، والاستماع إلى مخاوفهم، ثم مناقشتها بالعقل والهدوء.

قال أحد الحاضرين:

- لكن ماذا لو كان الشخص الذي يحذرنا شيخًا أو رجلًا معروفًا بالحكمة؟ أليس من الأفضل أن نأخذ كلامه على محمل الجد؟

أجاب عامر:

- نعم، نستمع إليه باحترام، لكننا لا نحول احترامه إلى دليل على صحة كل ما يقوله. قد يكون الإنسان حكيمًا في أمر، ويخطئ في أمر آخر. والعلم لا يُقاس بعمر صاحبه أو مكانته، بل بما يقدمه من معرفة وحجة وبرهان.

ثم أضاف بنبرة هادئة:

- ولو كان مجرد امتلاك المكانة يجعل كل كلام صحيحًا، لما احتجنا إلى العلم أصلًا. لكنا اكتفينا بالبحث عن أكثر الناس نفوذًا، ثم اتبعناهم في كل شيء.

ضحك بعض الحاضرين، بينما بقي آخرون يفكرون في كلامه.

شعرت عائشة بأن شيئًا كان مغلقًا داخلها قد بدأ ينفتح. لم يقدم لها عامر قرارًا جاهزًا، ولم يقل لها إن والدها مخطئ في كل شيء، لكنه أعطاها ما كانت تحتاج إليه:

طريقة تفكر بها في مشكلتها، وتناقش بها الآخرين من دون خوف أو خصومة.

رفعت يدها مرة أخرى.

- وهل من حق الإنسان أن يختار مستقبله حتى لو خالف ما اعتادت عليه أسرته؟

أجاب عامر:

- الإنسان مسؤول عن قراراته، ومن حقه أن يسعى إلى مستقبله المشروع، لكن الحرية لا تعني تجاهل المسؤولية. عندما يكون الإنسان شابًا أو شابة، فمن الحكمة أن يستمع إلى أهله، ويفهم مخاوفهم، ويقدم لهم خطة واضحة، بدل أن يدخل معهم في صراع. وإذا كان الحلم هو الدراسة، فليثبت أن لديه الجدية والقدرة على تحمل المسؤولية. وليكن الحوار قائمًا على الحقائق، لا على التخويف أو التهديد.

ثم نظر إلى الحاضرين جميعًا وقال:

- تخيلوا فتاة متفوقة تريد دراسة الطب، وأخبرها أحدهم أن الجامعة قد تكون سبب شقائها، لكنه لم يقدم أي دليل على ذلك. هل من العدل أن نحكم على مستقبلها كله انطلاقًا من احتمال غامض؟ أليس من الأفضل أن ندرس ظروفها، ونتحقق من خياراتها، ونبحث عن وسيلة آمنة لتحقيق هدفها؟

تجمدت عائشة في مكانها.

كان المثال قريبًا من قصتها إلى درجة جعلتها تشعر أن عامر يعرف ما يدور في بيتها. لكنها أدركت أنه يتحدث عن مبدأ عام، مبدأ ينطبق على مئات الفتيات والشبان الذين تُغلق الأبواب أمامهم باسم الخوف من المستقبل.

تابع عامر:

- نحن لا نملك أن نضمن أن كل طريق سنسلكه سيكون خاليًا من الصعوبات. فالطبيب قد يواجه التعب، والمهندس قد يتعرض للفشل، والمعلم قد يجد نفسه أمام تحديات كثيرة. لكن هل نقول للناس إن عليهم ألا يتعلموا لأن الحياة صعبة؟ لو فعلنا ذلك لبقينا في مكاننا، ولما تقدم مجتمعنا خطوة واحدة.

ثم أضاف:

- الشجاعة ليست أن نندفع نحو المجهول من دون حساب، وليست أن نرفض كل نصيحة. الشجاعة أن نواجه مخاوفنا، ونفحصها، ثم نتخذ القرار الذي تدعمه المعرفة والحقائق.

كانت كلمات عامر تصل إلى عائشة كأنها إجابات عن أسئلة كتبتها في دفترها الأزرق منذ سنوات.

انتهى اللقاء بعد نقاش طويل شارك فيه عدد من الشباب والرجال. بعضهم غادر مقتنعًا بضرورة مراجعة أفكاره، وبعضهم بقي متمسكًا بما اعتاده، بينما خرج آخرون وهم يتساءلون عن أمور لم يفكروا فيها من قبل.

وقفت عائشة قرب باب المركز الثقافي تنتظر انصراف الحاضرين. كانت تحمل دفترها الأزرق داخل حقيبتها، وقد شعرت للمرة الأولى بأنها ليست وحدها في معركتها من أجل التعلم.

اقترب منها عامر، بعدما لاحظ أنها كانت من أكثر الحاضرين اهتمامًا بالنقاش.

قال:

- أظن أن لديك سؤالًا آخر لم تطرحيه.

ابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت:

- كيف عرفت؟

- لأن من يطرح سؤالًا مهمًا لا ينتهي تفكيره بمجرد سماع الإجابة.

ضحكت عائشة للمرة الأولى منذ أيام، ثم قالت:

- أنا أريد دراسة الطب، لكن والدي يرفض ذهابي إلى الجامعة خوفًا عليّ، والشيخ فاضل يؤيده، ويقول إن ما نتمناه قد يكون سبب شقائنا.

لم يقاطعها عامر، بل تركها تتحدث حتى انتهت.

ثم قال:

- هل والدك يرفض الدراسة نفسها، أم يخشى ما قد تواجهينه بعيدًا عن البيت؟

فكرت قليلًا، ثم أجابت:

- أعتقد أنه يخاف عليّ أكثر مما يرفض العلم، لكنه لا يستطيع الفصل بين الأمرين.

قال عامر:

- هذه نقطة مهمة. لا تبدئي معه بإثبات أنه مخطئ، بل حاولي أن تفهمي خوفه. اسأليه عن الأمور التي تقلقه تحديدًا، ثم ابحثي عن حلول عملية لكل مشكلة. إذا كان يخشى السكن، فابحثي عن إقامة جامعية مناسبة أو سكن موثوق. وإذا كان يخشى ابتعادك عن الأسرة، فاتفقا على التواصل المستمر.

وإذا كان قلقه متعلقًا بالمصاريف، فابحثي عن المنح والمساعدات المتاحة.

ثم أضاف:

- والأهم أن تجعلي حديثك معه مبنيًا على خطة، لا على العاطفة وحدها. أظهري له أنك لا تريدين الدراسة لمجرد الهروب من قيود القرية، بل لأنك تعرفين ما تريدين، ومستعدة لتحمل مسؤولياته.

قالت عائشة:

- وماذا عن كلام الشيخ؟

أجاب عامر:

- لا تجعلي الأمر معركة بينك وبينه. لا تحتاجين إلى مهاجمته أو اتهامه بسوء النية. يكفي أن تسألي عن الدليل، وأن تميزي بين النصيحة التي تساعدك على الاستعداد للخطر، والكلام الذي يزرع الخوف من دون أن يقدم حلًا. ليس كل ما يخيفنا حقيقة، وليس كل ما نجهله شرًا.

سكت لحظة، ثم قال:

- يا عائشة، قد يكون والدك محبًا لك وصادقًا في خوفه، وقد يكون الشيخ مقتنعًا بما يقوله، لكن حسن النية لا يجعل كل قرار صحيحًا. نحن نحتاج إلى النية الطيبة، وإلى العقل الذي يراجع النتائج أيضًا.

خفضت عائشة عينيها، ثم قالت:

- أشعر أحيانًا أنني إذا دافعت عن حقي في التعلم، فسأكون عاقة لأبي.

قال عامر بحزم هادئ:

- لا تجعلي طلب العلم في ذاته خصومة مع أبيك. حاولي أن تكسبي ثقته، لا أن تنتصري عليه في جدال. لكن تذكري أيضًا أن طاعة الوالدين لا تعني أن تتخلي عن التفكير، وأن احترامهما لا يفرض عليك أن تعتبري كل مخاوفهما حقائق لا تقبل النقاش.

ثم نظر إليها وقال:

- لا تسمحي للخوف أن يقرر مستقبلك بدلًا منك، ولا تجعلي الغضب يقودك إلى قرار متسرع. امنحي الحوار فرصة، واجعلي العلم حليفك.

شكرت عائشة عامر، ثم غادرت المركز الثقافي وهي تشعر بأن الطريق لم يعد مظلمًا كما كان.

لم تحصل على موافقة والدها بعد، ولم تُحل المشكلة بكلمات قليلة، لكنها عادت إلى بيتها تحمل شيئًا أثمن من الإجابة السريعة:

طريقة جديدة للنظر إلى الأمور.

في تلك الليلة، جلست إلى مكتبها الصغير، وأخرجت دفترها الأزرق، وكتبت:

«اليوم أدركت أنني لا أحتاج إلى أن أرفع صوتي كي أدافع عن حلمي، ولا إلى أن أتهم الآخرين حتى أثبت حقي. أحتاج إلى أن أفهم، وأن أبحث، وأن أقدم الدليل، وأن أتحلى بالصبر. أبي يخاف عليّ، لكن خوفه ليس بالضرورة حكمًا على مستقبلي. والشيخ فاضل يحذرني، لكن التحذير لا يصبح حقيقة لمجرد أن قائله يحظى باحترام الناس. أنا لا أريد أن أكون متمردة على أسرتي، بل أريد أن أكون إنسانة قادرة على التفكير. لا أريد أن أرفض كل ما ورثته، بل أن أميز بين ما يستحق أن أحافظ عليه وما يحتاج إلى مراجعة. أريد أن أدرس الطب، لا لأثبت أنني أقوى من أبي، بل لأثبت أن الإنسان يستطيع أن يحب أسرته ويحترمها، وفي الوقت نفسه يسعى إلى بناء مستقبله.»

توقفت عن الكتابة، وأغلقت الدفتر، ثم أخفته تحت فراشها كعادتها. لكنها هذه المرة لم تخفه لأنها تخشى أن يقرأه أحد، بل لأنها أرادت أن تحتفظ لنفسها بمساحة صغيرة تنمو فيها أفكارها بعيدًا عن الضجيج.

4 - معركة لم تبدأ بعد

في صباح اليوم التالي، خرجت عائشة إلى فناء المنزل، فوجدت والدها يجلس تحت شجرة زيتون قديمة، يتأمل الحقول الممتدة أمامه.

اقتربت منه، وجلست على مسافة قريبة.

قالت بهدوء:

- أبي، أريد أن نتحدث مرة أخرى عن الجامعة.

تنهد الرجل، لكنه لم يطلب منها المغادرة هذه المرة.

قالت:

- لن أطلب منك أن تتخلى عن مخاوفك، لكنني أريد أن نفكر فيها معًا. أخبرني بما يقلقك، وسأبحث عن حلول لكل مشكلة. وإذا وجدت أنني لم أستعد بما يكفي، فسأعمل على الاستعداد. لكنني لا أريد أن نخسر حلمي قبل أن نبحث في الأمر.

ظل والدها صامتًا لحظات طويلة.

كان يرى في وجهها إصرارًا لم يألفه من قبل، لكنه لم يكن إصرارًا قائمًا على العناد أو التحدي. كان هناك شيء آخر في عينيها؛ ثقة هادئة جعلته يعيد التفكير في الطريقة التي تعامل بها مع طلبها.

قال أخيرًا:

- سأفكر في الأمر يا عائشة، لكنني لا أعدك بشيء.

أجابته:

- يكفيني أن تفكر فيه يا أبي.

نهضت وعادت إلى داخل المنزل، بينما بقي والدها جالسًا تحت شجرة الزيتون، ينظر إلى الطريق المؤدي إلى المدينة.

لم يكن قد وافق، لكنه لم يعد يرفض بالطريقة نفسها.

أما في الجهة الأخرى من القرية، فقد بدأ خبر لقاء عامر ينتشر بين الناس، ووصل إلى مسامع الشيخ فاضل أن بعض الشباب صاروا يناقشون كلامه ويسألون عن الأدلة بدلًا من الاكتفاء بترديده.

لم يعجبه ذلك.

لم يكن عامر قد ذكر اسمه، ولم يتهمه بشيء، لكن الشيخ شعر أن طريقة جديدة في التفكير بدأت تجد طريقها إلى عقول الناس، وأن الأسئلة التي كان البعض يخجل من طرحها صارت تُقال علنًا.

قال لأحد المقربين منه:

- يبدو أن هذا الشاب يريد أن يغير عادات القرية كلها.

أجابه الرجل:

- لكنه لم يقل شيئًا سوى أن نفكر قبل أن نصدق.

نظر إليه الشيخ طويلًا، ثم قال:

- أحيانًا تكفي فكرة واحدة لتغير كل شيء.

وفي تلك اللحظة، لم يكن أحد يعرف أن الخلاف حول حلم عائشة لن يبقى مجرد خلاف عائلي، بل سيكون بداية مواجهة أوسع بين المعرفة والخوف، بين السؤال والتسليم، وبين من يريدون للناس أن يفكروا بأنفسهم ومن يخشون أن يفقدوا نفوذهم عندما يبدأ الناس في استخدام عقولهم.

كانت عائشة قد خطت خطوتها الأولى.

وكان عامر قد فتح بابًا جديدًا في القرية.

أما الشيخ فاضل، فقد بدأ يشعر بأن شيئًا ما يتغير، وأن الكلمات التي اعتاد الناس قبولها بلا نقاش ستواجه، من الآن فصاعدًا، أسئلة لم يكن مستعدًا للإجابة عنها.

وهكذا بدأت حكاية الفتاة التي أرادت أن تتعلم، لا بوصفها قصة فتاة تسعى إلى مقعد في الجامعة فحسب، بل بوصفها قصة عقل يحاول أن يتحرر من قيود الخوف، وقلب يريد أن يحقق حلمه دون أن يفقد احترامه لأسرته.

فهل سينجح والد عائشة في تجاوز مخاوفه؟

وهل ستتمكن الفتاة من الوصول إلى كلية الطب؟ وكيف سيكون رد فعل الشيخ فاضل عندما يدرك أن أسئلة عامر بدأت توقظ عقولًا ظلت ساكنة لسنوات طويلة؟

كانت الإجابات لا تزال بعيدة، لكن شيئًا واحدًا أصبح واضحًا: حين يتعلم الإنسان كيف يسأل، يصبح من الصعب أن يعيش أسيرًا لكل ما يُقال له.

الفصل السابع:
موت لا يريد أحد تفسيره

لم تكن تلك الليلة عادية في قرية «عين النسر». كان البرد يتسلل من شقوق النوافذ، والريح تداعب أبواب البيوت القديمة، بينما كان بيت جعفر غارقًا في صمت ثقيل لا يقطعه إلا أنين طفل صغير يصارع حرارة جسده. الطفل في الثامنة من عمره، نحيل الجسم، بريء الملامح، لا يعرف من الدنيا سوى حضن أمه ودفء أبيه وألعابه البسيطة التي كان يملأ بها أرجاء البيت ضحكًا وحركة.

لكن منذ يومين، انقلبت حياته الصغيرة إلى معاناة طويلة. ارتفعت حرارته بشدة، واحمرّ وجهه، وجفّت شفتاه، وصار يتقلب في فراشه دون أن يجد راحة. كان يفتح عينيه للحظات، ثم يغلقهما من شدة التعب، وأحيانًا كان يهذي بكلمات غير واضحة، قبل أن يعود إلى صمته المؤلم.

جلست أمه إلى جانبه، تبلل قطعة قماش بالماء وتمسح بها جبينه، ثم تقرّب أذنها من فمه لتطمئن إلى أنفاسه.

همست وهي تمرر يدها على شعره:

- يا بني، افتح عينيك وانظر إليّ... أمك هنا، لن يصيبك مكروه بإذن الله .

فتح الطفل عينيه بصعوبة، ونظر إليها نظرة باهتة، ثم أغمضهما من جديد. ارتجفت الأم، وشعرت بأن شيئًا ثقيلًا يجثم على صدرها.

لم تكن طبيبة، لكنها كانت أمًّا تعرف أن حرارة ابنها ليست أمرًا يمكن تجاهله، وأن الانتظار قد يسرق منها ما لا تستطيع الحياة أن تعيده.

نهضت مسرعة إلى زوجها جعفر، الذي كان جالسًا في الغرفة المجاورة، شاردًا في أفكاره. قالت بصوت مرتجف:

- جعفر، أرجوك، يجب أن نأخذ الطفل إلى الطبيب فورًا. حرارته مرتفعة منذ يومين، ولم يعد يأكل ولا يتكلم كما كان من قبل.

رفع جعفر رأسه، ونظر إليها بضيق، ثم قال:

- لا داعي لكل هذا الخوف. ربما أصابه أمر لا يعرفه الأطباء.

اقتربت منه، وقد اختلط الخوف بالغضب في عينيها:

- أي أمر تتحدث عنه؟ إنه طفل مريض! جسده يحترق أمامنا، وأنت ما زلت تنتظر؟

خذه إلى الطبيب، من فضلك.

هزّ رأسه بثقة مصطنعة، وقال:

- الشيخ فاضل يعرف مثل هذه الحالات. لقد أخبرني أحد الرجال أنه ساعد كثيرين، وسأذهب إليه الليلة.

وضعت الأم يدها على صدرها، وكأنها تحاول أن تمنع قلبها من الانفجار.

- جعفر، الطبيب يستطيع أن يفحصه ويعرف سبب مرضه، أما الشيخ فلا نعرف ماذا سيفعل! أرجوك، لا تضيع الوقت.

لكن جعفر كان قد اتخذ قراره. لم يكن يرى أمامه سوى كلمات سمعها من الآخرين، وحكايات تناقلها أهل القرية حتى تحولت في عقول بعضهم إلى حقائق لا تقبل النقاش.

قال بحزم:

- كفى! لن أترك ابني يموت بين أيدي الأطباء، وأنا أعرف من يستطيع مساعدته .

تراجعت الأم خطوة إلى الوراء، وحدقت فيه غير مصدقة.

- أتقول إنك تخاف عليه من الطبيب، ولا تخاف عليه من تأخير العلاج؟

لم يجبها. دخل الغرفة، وانحنى فوق طفله، ثم حمله بين ذراعيه. كان جسد الصغير ساخنًا، ورأسه يتدلى على كتف أبيه دون مقاومة.

عند الباب، لحقت به الأم وهي تبكي:

- جعفر، انظر إليه جيدًا! إنه لا يستطيع حتى أن يرفع رأسه. خذه إلى المستشفى، أرجوك، لا تجعلني أندم طوال حياتي لأنني لم أستطع إنقاذه!

توقف للحظة، والتفت إليها، ثم قال:

- سأعود به بعد قليل، لا تخافي.

خرج من البيت حاملًا ابنه، بينما بقيت الأم واقفة عند الباب، تراقب ظله وهو يبتعد في زقاق القرية المظلم. كانت تشعر بأن قلبها يذهب معه، وأنها تركت طفلها يبتعد عنها في طريق لا تعرف نهايته.

كان بيت الشيخ فاضل قائمًا في طرف القرية، بعيدًا عن ضجيج السوق وأحاديث الناس. باب حديدي، ونوافذ مغلقة، ومصباح أصفر يتدلى في المدخل، يلقي ضوءًا باهتًا على الجدران .

طرق جعفر الباب بيد مرتجفة، وهو يضم طفله إلى صدره . بعد لحظات، فُتح الباب، وظهر الشيخ فاضل بوجهه الجامد ونظرته التي اعتاد أن يفرض بها الصمت على زواره.

قال جعفر بلهفة:

- يا شيخ، جئت إليك بابني. حرارته مرتفعة منذ يومين، وحالته تزداد سوءًا، ولم أعد أعرف ماذا أفعل .

ألقى الشيخ نظرة سريعة على الطفل، ثم أشار إلى الداخل.

- ادخل، وضعه هناك، وانتظر قليلًا .

دخل جعفر ووضع ابنه على فراش قديم في زاوية الغرفة. كان الطفل ساكنًا، لا يتحرك إلا بحركات ضعيفة تدل على أن جسده ما زال يقاوم .

جلس الأب قريبًا منه، وأخذ يراقب وجهه. أراد أن يسأل الشيخ عن سبب تأخره، لكنه تردد؛ فقد تعلّم من قبل أن كثرة الأسئلة لا تعجب فاضل، وأن الاعتراض على كلامه قد يجعله يتهم صاحبه بالجهل أو ضعف الإيمان .

اختفى الشيخ في غرفة داخلية، ثم عاد يحمل إناءً من الماء. جلس قرب الطفل، وأخذ يردد كلمات غير مفهومة، تتخللها همهمات متقطعة. حرّك يده فوق الإناء، ثم رشّ قليلًا من الماء على وجه الصغير .

كان جعفر يتابع المشهد بصمت، وقد تعلّق أمله بكل حركة تصدر عن الشيخ .

لكن الطفل لم يستجب .

لم يفتح عينيه، ولم يحرّك رأسه، ولم يصدر عنه سوى أنفاس ضعيفة متباعدة.

اقترب جعفر منه، وناداه:

- بني... هل تسمعني؟ لم يأته جواب.

رفع رأسه نحو الشيخ وقال بقلق:

- يا شيخ، إنه لا يستجيب. انظر إليه، أرجوك!

توقف فاضل عن التمتمة، ثم وضع الإناء جانبًا. بدا عليه الاضطراب للحظة، لكنه سرعان ما استعاد نبرته المعتادة.

قال:

- يبدو أن حالته خطيرة أكثر مما ظننت.

اتسعت عينا جعفر.

- ماذا تقصد؟ هل تستطيع مساعدته؟

صمت الشيخ قليلًا، ثم قال:

- خذه إلى المستشفى.

تجمّد جعفر في مكانه.

- إلى المستشفى؟ ألم تقل إنك تستطيع مساعدته؟

تجنب الشيخ النظر في عينيه، ثم أجاب:

- قلت لك إن حالته خطيرة. لا أستطيع أن أفعل أكثر من هذا

نهض جعفر مذعورًا، وانحنى يحمل طفله بين ذراعيه. لم يعد يسأل، ولم يعد يفكر في شيء سوى الوصول إلى المستشفى.

لكن الكلمات التي كان ينبغي أن يسمعها قبل ساعات، حين توسلت إليه زوجته، عادت الآن تضرب رأسه كالمطرقة. «خذه إلى الطبيب... لا تضيع الوقت... إنه طفل مريض! » خرج من بيت الشيخ مسرعًا، والطفل بين ذراعيه، فيما بقي فاضل واقفًا عند الباب يراقبه حتى اختفى في الظلام.

لم ينادِه، ولم يلحق به، ولم يسأله إن كان يحتاج إلى مساعدة. أغلق الباب خلفه، وعاد إلى غرفته، وكأن شيئًا لم يحدث.

كان الطريق إلى المستشفى أطول مما تخيل جعفر.

ركض في الأزقة، ثم خرج إلى الطريق الرئيسي، وهو يضم ابنه إلى صدره ويهمس له بكلمات متقطعة.

- اصبر يا بني... لقد اقتربنا... ستعود إلى أمك، وستلعب من جديد، وسأشتري لك اللعبة التي وعدتك بها... فقط افتح عينيك، أرجوك !لم يكن الطفل يجيبه.

كان رأسه مستندًا إلى كتف أبيه، وذراعاه الصغيرتان ساكنتين على جانبيه. وكلما نظر جعفر إلى وجهه، شعر بأن الخوف يتحول في داخله إلى شيء أكبر من الاحتمال .

توقف لحظة ليلتقط أنفاسه، ثم هزّ ابنه برفق.

- بني... ألا تسمعني؟ قل شيئًا واحدًا، ولو بكلمة!

لكن الصمت كان جوابه الوحيد .

واصل الركض، والندم ينهش قلبه. تذكر وجه زوجته وهي تتوسل إليه، وتذكر كيف رفض كلامها، وكيف حمل ابنه إلى الشيخ مقتنعًا بأنه يسلك الطريق الصحيح.

أدرك الآن أن ثقته لم تكن دليلًا على صحة قراره، وأن الكلمات التي سمعها من الناس لم تكن بديلًا عن العلاج .

لكن الإدراك جاء متأخرًا .

وقبل أن يصل إلى المستشفى، شعر بأن جسد الطفل أصبح أكثر سكونًا. توقف جعفر فجأة، ونظر إلى وجهه، ثم وضع يده المرتجفة على خده.

- بني...!

هزّه برفق .

- افتح عينيك يا حبيبي... لقد وصلنا تقريبًا!

لم يتحرك الطفل .

صرخ جعفر بأعلى صوته، وكأن صرخته تستطيع أن تعيد الحياة إلى جسد صغير بدأ يفلت من بين ذراعيه.

- يا رب، لا تأخذه مني! خذ من عمري ما تشاء، لكن أعد إليّ ابني !

غير أن الطريق لم يعد يسمع سوى صراخه.

وصل إلى المستشفى وهو يحمل طفله كما يحمل الإنسان آخر ما تبقى له من الأمل. اندفع نحو قسم الاستعجالات، وصاح طالبًا المساعدة .

استقبله الطاقم الطبي بسرعة، ووضعوا الطفل على سرير الفحص. حاولوا إنعاشه، وبذلوا ما استطاعوا من جهد، بينما وقف جعفر خلفهم، عاجزًا عن الحركة، يراقب الأيدي التي تتحرك حول ابنه .

كانت عيناه معلقتين بوجه الطبيب، ينتظر منه كلمة واحدة تنهي هذا الكابوس .

لكن الطبيب توقف بعد محاولات لم تنجح .

رفع رأسه ببطء، ونظر إلى جعفر بحزن، ثم قال بصوت خافت:

- يؤسفني إخبارك... لقد توفي الطفل.

لم يفهم جعفر العبارة في البداية.

ظل واقفًا، يحدق في الطبيب، ثم قال بصوت مبحوح:

- ماذا قلت؟ لا... لا يمكن! لقد كان حيًّا عندما حملته!

اقترب من السرير، وانحنى فوق جسد ابنه، وأمسك بيده الصغيرة.

- بني، استيقظ... أنا أبوك! لقد جئت بك إلى المستشفى كما أردت، أليس هذا ما كنت تريده؟ هيا، لنعد إلى البيت... أمك تنتظرنا!

لكن الطفل لم يستيقظ.

لم تعد هناك ابتسامة صغيرة تستقبله، ولا عينان تفتحان على صوت أبيه، ولا يدان تمتدان نحوه طلبًا للحمل.

كان الموت قد وضع حدًّا لكل شيء.

انهار جعفر على مقعد قريب، وغطّى وجهه بيديه. خرجت منه شهقة طويلة، ثم انفجر في بكاء لم يعرف له مثيلًا.

لم يكن يبكي ابنه وحده؛ كان يبكي الساعات التي ضاعت، والفرصة التي أهدرها، وصوت زوجته الذي لم يصغِ إليه، وثقته العمياء برجل ادّعى القدرة على معالجة ما لا يعرفه.

تمتم بين دموعه:

- سامحني يا بني... سامحني! لقد كان يجب أن أذهب بك إلى الطبيب منذ البداية... لقد كان يجب أن أسمع كلام أمك!

لكن الاعتذار، مهما كان صادقًا، لم يعد قادرًا على تغيير النهاية.

في البيت، كانت الأم جالسة عند الباب، لا تكف عن النظر إلى الطريق. كلما سمعت وقع خطوات، نهضت مسرعة، ثم تعود إلى مكانها حين تكتشف أن القادم شخص آخر.

كانت تحاول إقناع نفسها بأن زوجها سيعود بعد قليل، وأن ابنها سيقفز من بين ذراعيه، وأن ما تشعر به ليس إلا خوف أمٍّ أثقلها الانتظار.

لكن قلبها كان يخبرها بشيء آخر.

وعندما ظهر جعفر في نهاية الزقاق، لم يكن يحمل الطفل بالطريقة التي خرج بها.

كان يمشي ببطء، منكّس الرأس، وقد انطفأت في عينيه كل علامات الأمل.

نهضت الأم، ونظرت خلفه، فلم ترَ ابنها.

تقدمت نحوه وهي تصرخ:

- أين ابني يا جعفر؟ أين تركته؟ لماذا عدت وحدك؟ لم يجب.

أمسكت بذراعه وهزّته بعنف:

- تكلم! أين طفلي؟ هل هو في المستشفى؟ هل تحسنت حالته؟

رفع جعفر عينيه إليها، ولم يستطع أن ينطق.

فهمت الأم من صمته ما عجز لسانه عن قوله .

تراجعت خطوة، ووضعت يدها على فمها، ثم أطلقت صرخة شقت سكون الليل:

- يا وليدي!

سقطت على الأرض، وأخذت تضرب صدرها وتبكي، فيما تجمع الجيران أمام البيت. حاولت إحدى النساء أن ترفعها، لكن الأم تشبثت بالأرض وهي تردد اسم ابنها .

أما جعفر، فوقف بعيدًا عنها، لا يجرؤ على الاقتراب .

كان يعرف أن الحزن الذي أصابها أكبر من أن تخففه الكلمات، وأنه لم يعد يستطيع أن يقدم لها شيئًا يعوّضها عن طفلها .

اقترب منه أحد الجيران وسأله:

- ماذا حدث؟ لماذا لم تأخذه إلى المستشفى منذ البداية؟

أطرق جعفر رأسه، ولم يجب .

كرر الرجل سؤاله:

- هل أخذته إلى الشيخ فاضل؟ رفع جعفر عينيه ببطء، ثم أومأ برأسه .

ساد صمت ثقيل بين الحاضرين .

لم يصرخ أحد، ولم يتهمه أحد مباشرة، لكن نظراتهم كانت كافية لتكشف أن السؤال نفسه بدأ يتحول إلى اتهام.

قال رجل مسن كان يقف قرب الباب:

- المرض لا ينتظر أحدًا. عندما ترتفع حرارة الطفل وتشتد حالته، يجب أن نطلب العلاج، لا أن نضيّع الوقت في التجارب.

لم يرد جعفر .

كان يتمنى لو استطاع أن يعود إلى الساعات الماضية، ولو لدقيقة واحدة، ليسمع صوت زوجته من جديد، ثم يحمل ابنه إلى الطبيب دون تردد .

لكن الزمن لا يعود، والأبواب التي يغلقها الموت لا تفتحها الدموع.

في الأيام التالية، تغير شيء عميق في القرية.

لم يعد موت الطفل مجرد مأساة عائلية؛ فقد صار حديثًا يتناقله الناس في الأسواق والمجالس، وكلما ذُكر اسم جعفر، عاد السؤال نفسه إلى الظهور :

لماذا لم يأخذ ابنه إلى الطبيب منذ البداية؟ بعض الناس تعاطفوا معه، وقالوا إن الخوف والجهل قد يدفعان الإنسان إلى اتخاذ قرارات يندم عليها طوال حياته. وآخرون بدأوا

يتساءلون عن حقيقة ما كان يفعله الشيخ فاضل، وعن سبب لجوء الناس إليه في أخطر لحظات حياتهم .

أما جعفر، فقد انغلق على نفسه، وصار يتجنب مجالس الرجال. لم يعد يستطيع النظر إلى فراش ابنه الفارغ، ولا إلى لعبته الصغيرة التي بقيت في زاوية الغرفة. وكانت كلمات زوجته تتردد في رأسه كل ليلة، فتوقظه من نومه وتعيده إلى اللحظة التي كان يستطيع فيها أن ينقذ ابنه، لكنه اختار طريقًا آخر.

وفي إحدى الأمسيات، جلس عامر مع مجموعة من شباب القرية في المركز الثقافي، وكان خبر وفاة الطفل لا يزال حاضرًا في أذهانهم.

قال أحد الشباب:

- جعفر لم يكن يريد موت ابنه. لقد كان يظن أنه يفعل الصواب.

أجابه عامر بهدوء:

- لا أحد يقول إنه أراد موته. لكن حسن النية وحده لا يكفي. عندما يمرض طفل، يجب أن نبحث عن سبب مرضه، وأن نلجأ إلى من يملك العلم والقدرة على علاجه.

تدخل شاب آخر:

- لكنه كان يثق بالشيخ فاضل، مثل كثيرين في القرية.

نظر عامر إلى الحاضرين وقال:

- هنا تكمن المشكلة. عندما تتحول الثقة إلى طاعة عمياء، يصبح السؤال ممنوعًا، ويصبح الشك في الكلام الخاطئ جريمة في نظر الناس. نحن لا نحاكم جعفر على حزنه، بل نريد أن نفهم كيف وصل إلى قرار كلفه أغلى ما يملك.

ساد الصمت للحظات.

ثم أضاف عامر:

- تخيلوا لو أن أم الطفل لم تستسلم، ولو أن أحدًا ساعدها على إقناع زوجها، أو لو أن جعفر استمع إليها منذ البداية. ربما كانت النهاية مختلفة. نحن لا نستطيع الجزم بما كان سيحدث، لكننا نعرف أن الطفل كان يحتاج إلى رعاية طبية عاجلة، وأن تأخيرها كان خطرًا لا مبرر له.

خفض أحد الحاضرين رأسه، وقال:

- كنت أعتقد أن السؤال عن كلام الشيخ نوع من قلة الاحترام.

أجابه عامر:

- احترام الناس لا يعني تصديق كل ما يقولونه. والإنسان الذي يثق بنفسه لا يخاف من السؤال، بل يخاف من أن يترك الخطأ ينتشر دون أن يحاول تصحيحه .

في تلك اللحظة، لم يكن عامر يتحدث عن جعفر وحده، بل عن قرية كاملة تربّت أجيال منها على الخوف من السؤال، وعن عقول استسلمت للحكايات حتى صار بعضها أقوى من الحقيقة.

كان موت الطفل جرحًا لن يندمل بسهولة، لكنه كشف لأهل «عين النسر» ثمنًا فادحًا من أثمان الخرافة: حين يحل الوهم محل المعرفة، قد تصبح حياة الأبرياء هي الثمن.

وفي مكان آخر من القرية، كان الشيخ فاضل يواصل استقبال زواره، محاولًا أن يتصرف وكأن شيئًا لم يحدث. لكنه لم يكن يعلم أن موت الطفل الذي ظن أن الناس سينسونه مع مرور الأيام، سيكون بداية الأسئلة التي طالما خاف منها.

أسئلة لن يوقفها التهديد، ولن تسكتها الحكايات، ولن تجد لها القرية جوابًا إلا حين تتعلم أن الحقيقة لا تخاف من النور.

وهكذا، لم يكن الطفل أول ضحايا الجهل فحسب، بل صار موته الشرارة التي أيقظت في «عين النسر» ضميرًا ظل طويلًا نائمًا تحت ركام الخوف والتصديق الأعمى.

الفصل الثامن:
تجارة الخوف

لم يكن موت ابن جعفر حدثًا عابرًا في قرية «عين النسر»، ولم يكن مجرد حكاية حزينة تُروى في مجالس النساء ثم تُنسى مع مرور الأيام. لقد ترك ذلك الموت جرحًا غائرًا في نفوس السكان، وأثار أسئلة كثيرة ظل بعضها حبيس الصدور، بينما خرج بعضها الآخر إلى العلن في صورة اتهامات وهمسات وحكايات متناقضة.

في صباح اليوم التالي لدفن الطفل، بدت القرية وكأنها تستيقظ على حقيقة لم تكن مستعدة لمواجهتها. كانت الوجوه متجهمة، والأحاديث تدور في الأزقة الضيقة، والنساء يتبادلن الأخبار من خلف الأبواب، والرجال يجتمعون أمام الدكاكين الصغيرة، يتحدثون بصوت منخفض كلما مرّ أحد الغرباء بالقرب منهم.

قال أحد الرجال وهو يحتسي قهوته أمام المقهى:

- لو أن جعفر أخذ ابنه إلى الطبيب منذ اليوم الأول، لربما كان الأمر مختلفًا .

ردّ عليه رجل آخر، وقد عقد حاجبيه:

- لا أحد يعرف ما كان سيحدث. الطفل كان مريضًا، والشيخ فاضل قال إن حالته ليست طبيعية .

تدخل رجل ثالث كان يستمع إلى الحديث بصمت:

- وهل أصبح كل مرض يصيب الأطفال دليلًا على السحر؟ أليس ارتفاع الحرارة علامة على المرض الذي يعالجه الطبيب؟

نظر إليه الرجل الثاني بحدة، ثم قال:

- احذر يا أخي من هذه الكلمات. أنت لا تعرف ما يعرفه الشيخ.

ابتسم الرجل ابتسامة حزينة، وأجاب:

- هذه هي المشكلة يا صاحبي. نحن دائمًا نقول إن الشيخ يعرف ما لا نعرفه، لكننا لا نسأل أنفسنا: كيف نعرف أن ما يقوله صحيح؟

ساد الصمت لحظات، ثم انصرف كل واحد إلى شأنه، وكأن السؤال قد أصاب شيئًا حساسًا في أعماقهم.

في «عين النسر»، لم يكن الخوف مجرد شعور عابر؛ لقد أصبح لغة يتحدث بها الناس، وسلطة تتحكم في قراراتهم، وبابًا مفتوحًا أمام كل من يريد أن يستفيد من جهلهم أو ضعفهم.

وكان هناك رجل يعرف جيدًا كيف يحوّل هذا الخوف إلى مال. ذلك الرجل هو عاشور.

1- متجر الأسرار

كان متجر عاشور يقع في زاوية السوق القديم، بين محل لبيع الأدوات المنزلية ودكان صغير لإصلاح الأحذية. لم يكن

المتجر كبيرًا، لكنه كان ممتلئًا بالأشياء الغريبة التي تجذب أنظار المارة وتثير فضولهم .

على الرفوف، تراصّت قوارير صغيرة تحتوي على أعشاب جافة، وأكياس من المساحيق مجهولة المصدر، وقطع خشبية وحجرية يضعها عاشور داخل علب زجاجية، إلى جانب خيوط ملونة وأكياس صغيرة يخبر زبائنه أنها أُعدّت لأغراض خاصة .

وكانت هناك لافتة معلقة فوق الباب كُتب عليها بخط عريض : «منتجات طبيعية للحماية من الحسد وجلب البركة والحظ السعيد .»

لم يكن عاشور طبيبًا، ولم تكن لديه معرفة علمية تبرر ادعاءاته، لكنه كان بارعًا في قراءة وجوه الناس ومعرفة نقاط ضعفهم .

كان يعرف أن المرأة التي تخشى على أبنائها مستعدة لإنفاق المال إذا أقنعها أحد بأن هناك خطرًا يهددهم. وكان يعرف أن الرجل الذي تعثرت تجارته قد يشتري أي شيء إذا قيل له إنه سيعيد إليه رزقه. أما الفتاة التي تأخر زواجها، فكان يكفي أن يهمس في أذنها بأن الحسد قد يكون السبب حتى تخرج من متجره وهي تحمل كيسًا صغيرًا وتعتقد أنها اشترت الأمل .

وكان عاشور يسمي ذلك كله تجارة، لا أكثر.

لكن الأيام الأخيرة لم تكن في صالحه .

منذ وفاة ابن جعفر، بدأ بعض الزبائن يبتعدون عن متجره. لم يعودوا يشترون الأعشاب والمساحيق التي كان يروّج لها، وصاروا يسألون عن مصدرها، وعن فائدتها الحقيقية، وعن الدليل الذي يثبت أنها تحمي من الحسد أو تجلب الحظ . وكان هذا النوع من الأسئلة يزعجه أكثر من خسارة المال نفسه .

في ذلك الصباح، جلس خلف طاولته الخشبية، وأخذ يقلّب دفتر الحسابات بامتعاض .

قال لنفسه:

- ما الذي حدث لهؤلاء الناس؟ بالأمس كانوا يأتون إليّ من كل ناحية، واليوم صاروا ينظرون إلى بضاعتي كأنها لا تساوي شيئًا !

دخلت امرأة مسنة تحمل كيسًا صغيرًا، فتغيرت ملامحه على الفور، واستقبلها بابتسامة مصطنعة .

قال لها:

- أهلًا بالحاجة ربيعة. لقد اشتقت إلى زيارتك .

جلست المرأة أمامه، ثم وضعت الكيس على الطاولة.

- جئت لأعيد إليك هذا الشيء يا عاشور .

تلاشت ابتسامته قليلًا.

- ولماذا؟ ألم أخبرك أنه نافع؟

أجابته المرأة:

- قلت لي إنه يحمي حفيدي من الحسد، وإنني سألاحظ تحسنًا في حاله بعد أيام. مرّ شهر كامل، ولم يتغير شيء. ما زال الطفل مريضًا، والطبيب يقول إن علينا متابعة علاجه .

حاول عاشور أن يحافظ على هدوئه.

- يا حاجة، هذه الأمور تحتاج إلى الصبر. وربما كان الحسد الذي أصاب الطفل شديدًا .

رفعت المرأة رأسها إليه، ونظرت في عينيه طويلًا.

- وإذا كان كلامك غير صحيح؟ وإذا كنت قد أخذت مالي مقابل شيء لا ينفع؟

تحرك عاشور في مقعده، ثم قال بلهجة حاول أن يجعلها حازمة:

- أنا لا أجبر أحدًا على الشراء. الناس يعرفونني منذ سنوات .

وقفت المرأة، وأخذت كيسها من فوق الطاولة.

- وأنا عرفتك منذ سنوات، ولهذا صدقتك. لكنني لن أشتري منك شيئًا بعد اليوم. سأذهب إلى الطبيب، وسأدعو الله أن يشفي حفيدي، أما أنت فلا أريد منك وعدًا آخر .

خرجت المرأة، وبقي عاشور يتابعها بعينين غاضبتين.

لم يكن يخشى أن تخسر تجارته زبونة واحدة، بل كان يخشى أن تبدأ تلك المرأة في الحديث مع غيرها، وأن تنتقل تجربتها من بيت إلى بيت، فتتكشف الحيلة التي بنى عليها رزقه .

أغلق دفتر الحسابات بعنف، وتمتم:

- يبدو أن أحدًا ما يحرّض الناس علينا.

لكنه لم يكن يملك دليلًا على ذلك. كان يرفض الاعتراف بأن الناس ربما بدأوا يفكرون بأنفسهم.

2- حين يصبح الخوف إعلانًا

في المساء، اجتمع عاشور مع اثنين من معارفه في مخزن صغير خلف متجره. كان أحدهما رجلًا يتولى نقل البضائع إلى القرى المجاورة، والآخر شابًا يساعده أحيانًا في توزيع منتجاته. وضع عاشور أمامهما دفترًا صغيرًا، وأشار إلى الأرقام المكتوبة فيه.

- انظروا إلى هذه الحسابات. المبيعات تراجعت إلى النصف تقريبًا. إذا استمر الأمر على هذا النحو، فلن أستطيع تغطية مصاريفي .

قال الشاب:

- ربما لأن الناس لم يعودوا يصدقون كل ما يسمعونه. هناك من صار ينصحهم بالذهاب إلى الطبيب بدل شراء الأعشاب والأكياس.

ضرب عاشور الطاولة بكفه.

- ومن الذي علّمهم هذا الكلام؟ عامر! منذ عاد إلى القرية وهو يزرع الشك في عقول الناس، ويجعلهم يعتقدون أنهم قادرون على فهم كل شيء!

تردد الرجل الذي يعمل في نقل البضائع، ثم قال:

- لكن عامر لم يمنع أحدًا من شراء الأعشاب الطبيعية. إنه يعترض على ادعائك أنها تجلب الحظ وتمنع الحسد، أليس كذلك؟

رمقه عاشور بنظرة غاضبة.

- وهل تظن أنني أبيع الأعشاب فقط؟

أنا أبيع الطمأنينة للناس!

قال الرجل بهدوء:

- الطمأنينة لا تُباع في أكياس صغيرة يا عاشور.

ساد الصمت.

كانت العبارة بسيطة، لكنها أصابت عاشور في موضع حساس. فقد كان يعرف، في أعماقه، أن كثيرًا مما يبيعه لا يتجاوز كونه نباتات عادية أو خلطات لا يعرف أحد مكوناتها بدقة.

غير أنه تعلّم كيف يمنحها أسماء مثيرة، وكيف يربطها بحكايات عن أشخاص تحسنت أحوالهم بعد شرائها.

كان يروي لزبائنه قصة رجل خسر تجارته ثم اشترى منه كيسًا خاصًا فعادت إليه الأرباح. ويحكي عن امرأة عانت من الخلافات الزوجية ثم تحسنت حياتها بعد أن استخدمت خلطة من الأعشاب. ولم يكن يسأل نفسه عن حقيقة تلك القصص؛ فقد كان يهمه أن يصدقها الناس.

والآن، بعدما بدأت الشكوك تتسلل إلى عقولهم، لم يعد أمامه سوى أن يضاعف جهوده في الدعاية.

قال للشاب:

- غدًا ستذهب إلى السوق الأسبوعي. تحدّث مع الناس عن فوائد المنتجات، وأخبرهم أن هناك طلبًا كبيرًا عليها في القرى المجاورة.

سأله الشاب:

- وماذا لو سألوني عن الدليل؟

أجابه عاشور بسرعة:

- قل لهم إن التجربة خير دليل، وإن كثيرًا من الناس استفادوا منها.

ثم أضاف، بعد لحظة من التفكير:

- والأهم من ذلك، لا تتحدث عن وفاة ابن جعفر. إذا فتح أحدهم الموضوع، قل إننا لا نعرف حقيقة ما حدث.

قال الرجل الآخر:

- لكنك تعرف أن بعض الناس قد يربطون بين ما حدث للطفل وبين كلام الشيخ فاضل.

اقترب عاشور منه وخفض صوته:

- لهذا السبب بالذات يجب ألا نسمح للأسئلة بأن تنتشر. حين يخاف الناس، يبحثون عمن يحميهم. وإذا وجدوا من يقول لهم إن كل ما يحتاجونه موجود في متجري، فسيعودون.

نظر الرجلان إلى بعضهما بعضًا. لم يعجبهما ما يسمعان، لكنهما لم يعترضا.

أما عاشور، فقد بدأ يضع خطة جديدة.

لم يعد يريد أن يبيع منتجاته فحسب؛ لقد أراد أن يعيد الخوف إلى قلوب الناس، حتى يعودوا إليه طلبًا للأمان.

3- خطة لإعادة الزبائن

في صباح اليوم التالي، انتشر في السوق حديث غريب.

قال أحد الباعة إنه سمع من شخص مجهول أن القرية مقبلة على أيام صعبة، وإن كثيرًا من المشكلات التي تحدث في البيوت ليست مصادفة.

وقالت امرأة إنها تلقت نصيحة بشراء أعشاب خاصة لحماية أطفالها من الحسد. أما رجل آخر، فقد أكد أن أحد معارفه عانى خسائر متتالية في تجارته، ولم تتحسن أحواله إلا بعد أن اشترى منتجات من متجر عاشور.

كانت الحكايات تنتقل بسرعة، وكلما انتقلت من شخص إلى آخر، ازدادت تفاصيلها وغموضها.

لم يكن أحد يعرف من بدأها، لكن عاشور كان يتابع انتشارها من خلف واجهة متجره، ويبتسم كلما لاحظ عودة بعض الزبائن.

وبعد أيام قليلة، دخلت امرأة شابة إلى المتجر، تحمل طفلًا صغيرًا بيدها.

قالت بقلق:

- يا عاشور، أريد شيئًا يحمي ابني. لقد أخبروني أن بعض الأطفال قد يصيبهم الحسد إذا أكثر الناس من الحديث عنهم.

نظر عاشور إلى الطفل، ثم إلى أمه، وأدرك أن الخوف قد عاد يؤدي عمله.

أخرج من أحد الأدراج كيسًا صغيرًا، ووضعه أمامها.

- هذا منتج خاص، وقد طلبه مني كثير من الناس مؤخرًا.

سألته المرأة:

- وهل يحمي الطفل فعلًا؟

توقف لحظة، ثم أجاب:

- كثيرون يثقون به.

لم يجب عن سؤالها، بل استبدله بعبارة تمنحها شعورًا زائفًا بالاطمئنان.

دفعت المرأة المال وغادرت.

راقبها عاشور وهي تبتعد، ثم أعاد الكيس إلى الدرج بعد أن أخرج منه واحدًا آخر لزبون جديد.

لقد نجحت الخطة مؤقتًا، لكن نجاحها لم يمنحه الراحة التي توقعها. كان يشعر أن شيئًا ما يتغير في القرية، وأن عودة بعض الزبائن لا تعني أن الناس قد تخلوا عن أسئلتهم.

وفي نهاية النهار، دخل إليه رجل يعرفه منذ سنوات، ووضع على الطاولة قارورة صغيرة اشتراها منه قبل أسبوع.

قال الرجل:

- أريد أن أعرف ما الذي بداخل هذه القارورة.

أجابه عاشور:

- خليط من الأعشاب.

- أي أعشاب؟

- أعشاب طبيعية معروفة.

- وما فائدتها؟

بدأ الضيق يظهر على وجه عاشور.

- يا رجل، لقد اشتريتها بإرادتك. لماذا كل هذه الأسئلة الآن؟

أجابه الرجل:

- لأنك قلت لي إنها تحميني من الحسد، وإنها ستجلب البركة إلى تجارتي. وأنا أريد أن أعرف كيف تفعل ذلك .

قال عاشور بنفاد صبر:

- هذه أمور لا تُقاس بهذه الطريقة .

ابتسم الرجل ابتسامة خفيفة.

- غريب! عندما تريد بيعها، تكون فوائدها مؤكدة. وعندما أسألك عن الدليل، تصبح الأمور غامضة! أخذ الرجل قارورته وغادر، تاركًا عاشور غارقًا في غضبه .

للمرة الأولى، شعر أن الكلمات التي استخدمها سنوات طويلة بدأت تنقلب عليه.

4 - عامر يكتشف الوجه الآخر

كان عامر يتابع ما يحدث في القرية باهتمام. فمنذ وفاة ابن جعفر، أدرك أن مواجهة الخرافة لا تقتصر على إقناع الناس بالذهاب إلى الطبيب أو دعوتهم إلى التفكير المنطقي، بل تتطلب أيضًا فهم المصالح التي تجعل بعض الأشخاص يتمسكون بالأوهام ويدافعون عنها .

جلس ذات مساء في المركز الثقافي بالقرية، الذي عاد إليها بعد سنوات من الدراسة والعمل خارجها .

قال عامر في نفسه:

- كنت أظن أن المشكلة تكمن في خوف الناس وحده، لكنني بدأت ألاحظ أن هناك من يستفيد من هذا الخوف. والخوف قد يكون شعورًا طبيعيًا، لكن المشكلة تبدأ عندما يجد من يحوله إلى وسيلة للربح أو السيطرة على الآخرين. لقد رأيت بعض الناس يعودون إلى متجر عاشور بعد أن ابتعدوا عنه. إنه يبيعهم الأعشاب، لكنه يزعم أيضًا أنها تمنع الحسد وتجلب الحظ .

فكر قليلًا، ثم قال:

- علينا أن نفرق بين بيع الأعشاب بوصفها منتجات طبيعية، وبين الادعاء بأنها تعالج الأمراض أو تحقق أمورًا خارقة من دون دليل. ليست كل الأعشاب نافعة لكل شخص، وبعضها قد يسبب أضرارًا أو يتفاعل مع الأدوية. أما الادعاء بأن كيسًا صغيرًا سيغير مصير الإنسان، فذلك يحتاج إلى دليل لا إلى حكايات تتناقلها الألسن .

أومأ عامر برأسه وعاود التفكير قائلا:

- المشكلة أن الناس لا يشترون تلك الأشياء دائمًا لأنهم مقتنعون بها، بل لأنهم خائفون. الأم التي تخشى على طفلها لا

تفكر في الربح والخسارة كما يفكر التاجر. إنها تريد أن تطمئن، حتى لو اضطرت إلى إنفاق آخر ما تملك. وهذا ما يجعل استغلالها أمرًا مؤلمًا. فالخوف يدفع الإنسان أحيانًا إلى اتخاذ قرارات لم يكن ليتخذها لو امتلك الوقت والمعرفة والطمأنينة .

نهض عامر من مقعده واتجه نحو النافذة. كانت ساحة القرية شبه خالية، ولم يكن يسمع سوى أصوات بعيدة تأتي من البيوت.

- لن أتهم عاشور أمام الناس من دون دليل، ولن أحول المسألة إلى خصومة شخصية. لكنني سأجعل الناس يسألون الأسئلة الصحيحة:

ما الذي نشتريه؟ ولماذا نشتريه؟ وما الدليل على الوعود التي نسمعها؟

أجابه احد الشباب بجانبه:

- هذا هو الطريق. لا تحارب الأشخاص بالشائعات، بل واجه الادعاءات بالحقيقة.

التفت عامر إليه وقال:

- إذا كانت تجارة عاشور تقوم على خوف الناس، فعلينا أن نساعد الناس على استعادة قدرتهم على التفكير. حينها لن يحتاجوا إلى من يبيعهم وهمًا كي يشعروا بالأمان.

5- مواجهة في السوق

جاء يوم السوق الأسبوعي، وامتلأت الساحة بالباعة والمتسوقين. كانت أصوات المنادين تختلط بأصوات الأطفال، ورائحة الخبز الساخن تنبعث من المخبزة القريبة، بينما ازدحمت الطرقات المؤدية إلى وسط القرية.

وقف عاشور أمام متجره، وقد رتّب منتجاته بعناية، وعلّق لافتة جديدة كتب عليها:

«لا تترك بيتك مكشوفًا للحسد... اسأل عن منتجات الحماية الخاصة.»

كان يراقب المارة، محاولًا جذب انتباههم، حين لمح عامر يقترب من الساحة برفقة صديقه.

شعر بانقباض في صدره.

لم يكن عامر يحمل منشورات، ولم يكن يرفع صوته أو يدعو الناس إلى مقاطعة المتجر. سار بهدوء حتى توقف أمام مجموعة من الرجال والنساء الذين كانوا يتناقشون بشأن ما حدث لابن جعفر.

قال عامر:

- يا أهل «عين النسر»، أريد أن أسألكم سؤالًا بسيطًا. عندما يمرض طفل، هل نبدأ بالبحث عن سبب مرضه عند الطبيب، أم نقرر مسبقًا أن هناك قوة خفية وراء ما حدث؟

أجابه رجل من الحاضرين:

- نذهب إلى الطبيب، بالطبع، لكننا لا نستطيع أن ننكر كل ما لا نفهمه .

قال عامر:

- لم أقل إن علينا إنكار كل ما لا نفهمه. قلت إن علينا ألا نحول ما نجهله إلى حقيقة مؤكدة. هناك فرق بين أن نقول: لا نعرف السبب بعد، وبين أن نجزم بأن السبب هو الحسد أو السحر من دون دليل .

تدخلت امرأة كانت تحمل سلة من الخضراوات:

- لكن بعض الناس يقولون إن هناك أشياء تساعد على الحماية .

أجاب عامر:

- إذا كان الحديث عن علاج مرض، فعلينا الاعتماد على المعرفة الطبية والفحص المناسب. وإذا كان الحديث عن الأعشاب، فينبغي معرفة مكوناتها وفوائدها ومخاطرها، لا الاكتفاء بوعود البائع. ولا يجوز أن تحل تلك المنتجات محل العلاج الطبي .

ساد الصمت للحظات .

ثم أشار عامر إلى اللافتة المعلقة فوق متجر عاشور.

- انظروا إلى هذه العبارة. هل يستطيع أحد أن يقدم لنا دليلًا على أن منتجًا يباع هنا يمنع الحسد أو يجلب الحظ؟

التفتت الأنظار نحو المتجر.

خرج عاشور من خلف طاولته، وقد بدا عليه الغضب.

- لماذا تشير إلى متجري؟ أنا رجل أسترزق من عملي، ولم أسرق مال أحد!

رد عامر بهدوء:

- لم أقل إنك سرقت أحدًا، ولم أطلب من الناس أن يتوقفوا عن الشراء منك. أنا أسأل عن الوعود التي تقدمها لهم. من حق كل إنسان أن يعرف حقيقة ما يشتريه.

قال عاشور بصوت مرتفع:

- الناس أحرار في اختياراتهم!

أجابه عامر:

- نعم، وهم أحرار أيضًا في السؤال عن الدليل، وفي رفض أي وعد لا يقتنعون به. الحرية ليست أن نبيع الناس ما نريد، بل أن نترك لهم حق الاختيار على أساس المعرفة، لا الخوف.

تقدم رجل مسن كان يستمع بصمت، وقال:

- يا عاشور، لقد اشتريت منك شيئًا لابني، وقلت لي إنه سيحميه من المرض. عندما مرض، لم أعد أعرف ماذا أفعل.

لماذا لم تقل لي إن هذا المنتج لا يعالج المرض؟ ارتبك عاشور، ثم قال:

- أنا لم أقل إنه بديل عن الطبيب.

قاطعه الرجل:

- لكنك قلت إنه يحميه!

تدخلت امرأة أخرى:

- وأنا اشتريت منك كيسًا لأنك قلت إن خلافاتي مع زوجي سببها الحسد. دفعت لك مالًا كنت أحتاج إليه، ولم يتغير شيء.

ثم تحدث شاب من آخر الصف:

- أما أنا، فقد أخبرني أحدهم أنني لن أنجح في عملي ما لم أشتر منك منتجًا خاصًا. اشتريته، ولم يتغير شيء. أريد فقط أن أفهم لماذا نصدق هذه الأشياء كل مرة.

لم يعد عاشور يجد الكلمات المناسبة. كان يستطيع أن يواجه سؤالًا واحدًا بحكاية، أو أن يرد على شخص غاضب باتهام مضاد، لكنه لم يكن مستعدًا لمواجهة مجموعة من الناس يتحدث كل واحد منهم عن تجربته الخاصة.

شعر أن الواجهة التي صنعها على مدى سنوات بدأت تتصدع أمام عينيه.

قال بصوت خافت:

- أنا لم أجبر أحدًا على شيء.

أجابه عامر:

- وهذا صحيح. لكن المسؤولية لا تتعلق بالإجبار وحده. عندما تخبر إنسانًا خائفًا بأن منتجًا ما سيحميه من خطر لا تستطيع إثباته، فإنك تؤثر في قراره. وكلما كان خوفه أكبر، وجب عليك أن تكون أكثر صدقًا معه، لا أن تستغل حاجته إلى الطمأنينة.

لم يرد عاشور.

أما الناس، فقد بدأوا يتفرقون في مجموعات صغيرة، يناقشون ما سمعوه. لم يرفع أحد يده ليعلن أنه صدق عامر تمامًا، ولم يتهم أحد عاشور علنًا بالاحتيال، لكن شيئًا مهمًا كان قد حدث:

6- الخوف الذي عاد إلى صاحبه

في المساء، جلس عاشور وحيدًا في متجره. كانت الرفوف كما هي، والقوارير في أماكنها، والأكياس الصغيرة مصطفة بعناية. لم يتغير شيء في المكان، ومع ذلك شعر أن متجره أصبح غريبًا عنه.

فتح دفتر الحسابات، وحاول أن ينشغل بالأرقام، لكنه لم يستطع.

كان يسمع في رأسه أصوات الناس في السوق:

«ما الدليل؟» «لماذا لم تقل لي إن المنتج لا يعالج المرض؟»

«لماذا نصدق هذه الأشياء كل مرة؟»

أغلق الدفتر، وأسند ظهره إلى الكرسي.

لقد أمضى سنوات يعتقد أن الخوف موجود في قلوب الناس، وأن مهمته لا تتجاوز معرفة الكلمات التي تجعله يزداد أو يهدأ بحسب حاجته إلى البيع. لم يفكر يومًا في أن الخوف قد يتحول إلى قوة ترتد عليه، أو أن الناس الذين اعتادوا شراء الطمأنينة منه قد يستيقظون يومًا ويسألونه عما إذا كان يبيعهم شيئًا حقيقيًا أم مجرد وهم.

تذكر المرأة التي أعادت إليه الكيس، والرجل الذي سأله عن مكونات القارورة، والوجوه التي اجتمعت حول عامر في السوق.

ثم تذكر جعفر.

كان يعرف أن جعفر فقد ابنه في مأساة مؤلمة، وأن الحزن قد يجعل الإنسان يبحث عن تفسير سريع لما حدث. لكنه عرف أيضًا أن الخوف الذي يحيط بالمأساة لا يبقى حبيس بيت واحد؛ إنه ينتقل بين البيوت، ويتغذى على الإشاعات، ويمنح أصحاب المصالح فرصة لبيع أجوبة جاهزة عن أسئلة معقدة.

لم يكن عاشور هو الشخص الوحيد الذي استفاد من ذلك المناخ. كان هناك آخرون وجدوا في خوف الناس وسيلة لكسب المال أو النفوذ، وكان كل واحد منهم يحاول حماية موقعه بالطريقة التي يعرفها.

أما عامر، فقد اختار أن يواجه الخوف بالسؤال.

وكان ذلك، في نظر عاشور، أخطر ما في الأمر.

فمن السهل أن تجادل رجلًا غاضبًا، ومن السهل أن تتهم شخصًا بأنه لا يفهم أسرار الحياة، لكن كيف تستطيع إسكات إنسان يطلب منك دليلًا؟

وكيف تقنعه بأن يشتري منك وهمًا بعدما تعلّم أن يميز بين الحقيقة والادعاء؟

أطفأ عاشور المصباح، وأغلق باب متجره.

وقبل أن يغادر، توقف أمام اللافتة الجديدة التي علقها في الصباح. قرأ عبارتها مرة أخرى، ثم شعر للمرة الأولى بأنها لا تبدو له مقنعة كما كانت.

ومع ذلك، لم ينزعها.

كان لا يزال يأمل أن يعود الناس إلى تصديقها، وأن تستعيد تجارته أيامها السابقة. لم يكن مستعدًا للاعتراف بأن الخوف الذي اتخذه وسيلة للربح قد بدأ يفقد سلطته على عقول أهل القرية.

وفي تلك الليلة، لم يكن وحده من يشعر بالقلق.

في بيت جعفر، كانت الأم تحتضن ملابس طفلها الراحل، بينما جلس الأب صامتًا أمام الباب، يستعيد تفاصيل الأيام الأخيرة من حياة ابنه، ويسأل نفسه إن كان قد أخطأ حين قدّم كلام الشيخ على نصيحة زوجته التي طالبته بالذهاب إلى الطبيب.

وفي بيت الشيخ فاضل، كان رجل آخر ينتظر دوره ليسأل عن مشكلة تخص ابنه، بعدما أقنعه الخوف بأن هناك أمرًا غامضًا يهدد الطفل.

أما عامر، فكان يكتب في دفتره ملاحظات عن أحداث اليوم، ثم توقف عند عبارة واحدة وكتبها بخط واضح:

«حين يصبح الخوف سلعة، يصبح الإنسان زبونًا في سوق الوهم، وتصبح الحقيقة أول ضحايا التجارة.»

أغلق الدفتر، لكنه لم يشعر بأن المعركة قد انتهت.

كان يدرك أن مواجهة الخرافة لا تتحقق بخطاب واحد، ولا بسقوط حيلة رجل واحد، لأن الخوف الذي ترسخ في النفوس سنوات طويلة لا يختفي في يوم وليلة.

لقد بدأت «عين النسر» تكتشف أن بعض ما اعتقدته أسرارًا غامضة قد يكون مجرد ادعاءات لا دليل عليها، وأن

بعض الذين وعدوها بالحماية كانوا يستفيدون من استمرار قلقها.

لكن السؤال الأهم ظل قائمًا:

هل يملك أهل القرية الشجاعة الكافية لمواجهة الحقيقة، حتى لو اضطروا إلى الاعتراف بأنهم صدقوا طويلًا ما لم يكن ينبغي لهم تصديقه؟

لم يكن عامر يعرف الإجابة بعد.

لكنه كان متأكدًا من شيء واحد:

أن أول خطوة نحو تحرير العقل هي أن يتوقف الإنسان عن الخوف من السؤال.

الفصل التاسع:
دفتر الجد

كان المساء ثقيلاً على قرية «عين النسر»، والسماء ملبدة بغيوم رمادية توحي بأن المطر لن يتوقف قريباً. راحت قطراته تضرب زجاج النوافذ بإيقاع متواصل، بينما كانت الرياح تتسلل بين أشجار الزيتون العتيقة، فتجعل أغصانها تتمايل كأنها تهمس بأسرار دفنتها الأرض منذ سنوات طويلة.

جلس عامر إلى مكتبه الخشبي في الغرفة المطلة على فناء البيت، وأمامه أوراق كثيرة جمعها خلال الأيام الماضية عن تاريخ القرية ومعتقداتها القديمة. كان يشعر أن ما يجري في «عين النسر» أكبر من مجرد خلاف بين رجل يؤمن بقوة العقل وشيخ اعتاد الناس الرجوع إليه في كل صغيرة وكبيرة. لقد بدأت تتكشف أمامه خيوط حكايات متشابكة، وكان كل خيط يقوده إلى سؤال جديد.

منذ عودته إلى القرية، وهو يسمع أسماء تتكرر في أحاديث الناس، وحوادث قديمة يرفض البعض الاقتراب منها، واتهامات ظلت تلاحق أصحابها حتى بعد مرور عشرات السنين. وكان أكثر ما يشغله أن بعض تلك الحكايات لم تكن تستند إلى دليل، ومع ذلك تحولت إلى حقائق لا يجرؤ أحد على مناقشتها.

وبينما كان غارقاً في أفكاره، سمع طرقاً خفيفاً على الباب. رفع رأسه وقال:

- تفضلي.

دخلت أمه خديجة وهي تحمل صندوقاً خشبياً قديماً، أسودت أطرافه من أثر الزمن، وظهرت على غطائه آثار خدوش عميقة. كانت تمسكه بكلتا يديها بحذر، كما لو أنها تحمل شيئاً ثميناً تخشى أن يسقط منها.

وضعت الصندوق أمامه، ثم ظلت واقفة لحظات تنظر إليه بصمت.

قال عامر مستغرباً:

- ما هذا يا أمي؟ لم أره من قبل في البيت.

تنهدت خديجة، ومسحت بيدها الغبار المتراكم على الغطاء، ثم قالت بصوت خافت:

- هذا الصندوق كان لجدك. احتفظت به منذ وفاته، ولم أجرؤ على فتحه.

توقف عامر عن الكتابة.

كان جده رجلاً مختلفاً عن معظم رجال القرية في زمنه. لم يكن كثير الكلام، لكنه كان يملك نظرة عميقة تشعر معها بأنه يرى ما وراء الكلمات. يتذكر عامر أنه كان يجلس معه في طفولته تحت شجرة التين، ويحكي له عن الحياة والناس، ثم يختم أحاديثه بعبارات لم يكن الصبي يفهم معناها إلا بعد أن كبر.

كان جده يقول له دائماً:

«يا بني، ليس كل ما ورثناه عن آبائنا صحيحاً، وليس كل ما خافوا منه يستحق الخوف. احترم الناس، لكن لا تتنازل عن عقلك لإرضائهم.»

لم يفهم عامر يومها لماذا كان جده يكرر هذه الكلمات، لكنه احتفظ بها في ذاكرته.

سأل أمه:

- لماذا لم تفتحيه طوال هذه السنوات؟

نظرت خديجة إلى الصندوق، ثم إلى النافذة التي كانت قطرات المطر تنساب على زجاجها.

- لأن أباك كان يقول إن بعض الأشياء من الأفضل أن تبقى مغلقة. وبعد وفاة جدك، حدثت أمور كثيرة في القرية، وأصبح الناس يتجنبون الحديث عن الماضي. كنت أخشى أن أجد فيه شيئاً يفتح أبواباً أغلقت منذ زمن.

اقترب عامر من الصندوق، وأدار أصابعه على حوافه.

- وهل تعرفين ماذا يوجد داخله؟

هزت رأسها.

- لا. لكنني أعرف أن جدك كان يكتب كثيراً، وكان يحتفظ برسائل لم يسمح لأحد بقراءتها.

ثم سكتت قليلاً، وأضافت:

- أظن أن الوقت قد حان لتعرف ما أخفاه الزمن.

قال عامر :

- هل هناك شيء آخر ينبغي أن أعرفه؟

بدت على وجه خديجة علامات تردد، وكأنها تريد أن تقول شيئاً ثم تخشى عواقبه.

أخيراً قالت :

- إذا وجدت ما يؤلمك، فلا تتسرع في الحكم على أحد. الموتى لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، والأحياء قد تكون لهم أسبابهم في الصمت.

لم يفهم عامر مقصدها تماماً، لكنه شعر أن الصندوق لا يحتوي على أوراق عادية.

استدارت أمه نحو الباب، وقبل أن تخرج توقفت للحظة.

- عامر ...

- نعم يا أمي؟

- مهما قرأت، لا تجعل الحقيقة سبباً في كراهيتك للناس. حاول أن تفهم لماذا أخطؤوا قبل أن تحكم عليهم.

ثم غادرت الغرفة وأغلقت الباب خلفها بهدوء.

بقي عامر وحده أمام الصندوق.

كان يسمع صوت المطر في الخارج، ودقات الساعة القديمة المعلقة على الجدار، وأنفاسه التي بدت له أعلى من

المعتاد. أحضر مصباحاً صغيراً، وجلس على كرسيه، ثم حاول فتح الغطاء.

كان مقفلاً بقفل صدئ، لكنه لم يحتج إلى قوة كبيرة حتى انفتح بعد محاولات قليلة.

صدر عن الغطاء صوت احتكاك حاد، وتطاير الغبار في الهواء.

رفع عامر الغطاء ببطء.

في الداخل وجد مجموعة من الرسائل المربوطة بخيط قطني، وصوراً قديمة باهتة، وبعض الأوراق المطوية بعناية، وفي القاع دفتر جلدي صغير بلون بني داكن.

مد يده نحو الدفتر، لكنه تراجع للحظة.

شعر كأنه لا يفتح صندوقاً قديماً، بل يفتح باباً على زمن لم يعرف عنه شيئاً .

تناول الدفتر ونفض عنه الغبار، ثم فتح صفحته الأولى.

كانت الكتابة بخط جده الواضح، وقد كتب في أعلاها :

«إلى من يأتي بعدي ...» وتحت العبارة سطر قصير جعله يتوقف عن التنفس للحظة :

«لا تجعل احترامك للماضي يمنعك من إصلاح أخطائه.»

قرأ الجملة مرة، ثم أعاد قراءتها.

كانت كلمات جده حاضرة أمامه كما لو أن الرجل يجلس قبالته ويتحدث إليه.

قلب الصفحة.

وجد تاريخاً يعود إلى أكثر من أربعين عاماً، ثم بدأ يقرأ.

1- القرية التي كانت تخاف الحقيقة

كتب الجد:

«شهدت «عين النسر» في شتاء ذلك العام مرضاً غريباً أصاب عدداً من الأطفال. ارتفعت درجات حرارتهم، واشتدت آلام بعضهم، ولم يعرف الأهالي سبب ما حدث. كانت وسائل العلاج محدودة، وكان الخوف أكبر من قدرة الناس على الفهم. بدلاً من البحث عن أسباب المرض، بدأ بعض السكان يتبادلون الاتهامات.

قال أحدهم إن امرأة عجوزاً تسكن في الطرف الغربي من القرية جلبت النحس إلى الحي. وقال آخر إن رجلاً رفض مساعدة الشيخ في مناسبة سابقة، فعاقبه الله على فعلته. وذهب ثالث إلى أبعد من ذلك، فزعم أن المرض لم يكن مرضاً عادياً، بل علامة على غضب قوى خفية. لم يسأل أحد عن الماء الذي يشربه الأطفال، ولا عن الطعام الذي تناولوه، ولا عن احتمال انتقال العدوى بينهم .كان السؤال الوحيد الذي يشغل الناس: من المسؤول عن هذه المصيبة؟»

توقف عامر عن القراءة.

رفع عينيه عن الدفتر، وشعر بقشعريرة تسري في جسده.

كانت الحكاية قديمة، لكنها تشبه ما وقع في القرية قبل مدة، حين مرض طفل ابن جعفر، وانقسم الناس بين من طالب بعلاجه عند الطبيب، ومن أصر على أخذه إلى الشيخ فاضل. لم يكن التشابه في المرض وحده، بل في الطريقة التي تصرف بها الناس أيضاً.

كلما عجزوا عن تفسير ما يحدث، بحثوا عن متهم.

عاد إلى الدفتر بسرعة، وبدأ يقلب الصفحات.

كتب الجد عن مواسم جفاف متعاقبة، وعن آبار انخفض منسوب مياهها، وعن أراضٍ ذبلت محاصيلها. وبدلاً من أن يناقش السكان طرق حفظ المياه أو تحسين الزراعة، انتشرت اتهامات بأن بعض النساء جلبن الجفاف، وأن آخرين ارتكبوا أفعالاً أغضبت السماء.

كتب الجد:

«رأيت رجلاً يضرب زوجته لأنها رفضت الذهاب إلى امرأة ادعت معرفة الغيب. ورأيت أطفالاً يرددون أمام بيوتهم أسماء نساء اتهمهن الكبار بالتسبب في المصائب، من غير أن يفهموا معنى ما يقولون. وكان أكثر ما يؤلمني أن بعض الناس كانوا يعرفون أن الاتهامات باطلة، لكنهم يفضلون الصمت خوفاً من أن يصبحوا هم أنفسهم موضع الشبهة.»

شعر عامر بالغضب.

كيف استطاع الناس أن يظلموا بعضهم بهذه السهولة؟

وكيف تحولت الحكايات إلى أحكام، والأوهام إلى سجون لا يستطيع الأبرياء الخروج منها؟

ثم وصل إلى فقرة جعلته يعتدل في جلسته.

«كانت هناك نساء طيبات دفعن ثمن جهل الآخرين. إحداهن فقدت ابنتها بسبب المرض، ثم وجدت نفسها متهمة بأنها تجلب الموت إلى بيوت جيرانها. وأخرى هجرها أقاربها لأن أحدهم رأى في منامه حلماً سيئاً، فقرر أن الحلم دليل على شرها. أما الذين نشروا هذه الاتهامات، فقد عاشوا بين الناس في احترام، لأنهم كانوا يتحدثون بثقة، ولأن أحداً لم يجرؤ على سؤالهم عن الدليل.»

أغلق عامر عينيه لحظات.

لم تكن المشكلة في أن بعض الناس يصدقون الخرافات فحسب، بل في أن تلك الخرافات كانت تمنحهم سلطة على حياة الآخرين.

من يملك تفسير المصيبة يستطيع أن يحدد المتهم، ومن يحدد المتهم يستطيع أن يدفع الناس إلى معاقبته، حتى لو كان بريئاً.

لكن ما الذي جعل جده يكتب كل هذه التفاصيل؟

وهل كان مجرد شاهد على تلك الأحداث، أم أنه أخفى شيئاً أكبر؟ عاد إلى الصفحات التالية.

وهنا ظهر اسم لم يتوقعه.

«نصيرة.»

2- الحكاية التي لم تمت

كانت نصيرة يومئذ شابة تعيش مع زوجها في بيت متواضع قرب البساتين. لم تكن كثيرة الاختلاط بالناس، لكنها كانت تساعد جاراتها في الخياطة، وتقدم الطعام للمرضى، وتعتني بالأطفال عندما تضطر أمهاتهم إلى الخروج للعمل.

كتب الجد:

«بدأت حكاية نصيرة حين مرضت ابنة أحد جيرانها بعد أن زارت بيتها في يوم ممطر. لم يكن أحد يعرف سبب المرض، لكن امرأة حضرت إلى البيت قالت إنها سمعت أصواتاً غريبة قرب منزل نصيرة في الليلة السابقة. لم يسأل أحد عن طبيعة تلك الأصوات، ولا عما إذا كان لها تفسير عادي. انتقلت الحكاية من بيت إلى آخر، ومع كل رواية كانت تكبر.

قال بعضهم إن نصيرة تعرف أسراراً لا يعرفها الآخرون، وقال آخرون إنها تتعمد إيذاء الناس. وحين ماتت امرأة مسنة

بعد مرض طويل، أعادوا فتح الاتهامات القديمة، وكأنهم كانوا ينتظرون مناسبة جديدة لإثبات ما قرروه مسبقاً.»

توقف عامر عند اسم نصيرة.

كانت نصيرة نفسها التي تعيش في القرية الآن مع ابنها سالم، والتي ظل بعض الناس ينظرون إليها بعين الريبة، بينما يتجنب آخرون الاقتراب من بيتها.

هل كانت الاتهامات التي لاحقتها اليوم امتداداً لحكاية قديمة؟

تابع القراءة.

«كنت أعرف نصيرة منذ طفولتها. كانت ابنة رجل فقير لكنه مستقيم، وقد علمها احترام الناس ومساعدة المحتاجين. لم أرى منها ما يبرر تلك الاتهامات، بل رأيت كيف كانت تخشى المرور أمام البيوت التي يتجمع فيها الناس. وذات مساء، وجدتها جالسة قرب بئر قديمة، تبكي بصمت.

سألتها عما بها، فقالت لي:

- يا عم، لم أعد أخاف مما يقولونه عني، بل أخاف أن يكبر أطفالي وهم يصدقون أن أمهم شريرة.

لم أجد جواباً يخفف عنها ألمها.

شعر عامر بوخزة في صدره.

تذكر سالم، ابن نصيرة، حين رآه في ساحة المدرسة واقفاً وحده، بعدما سمع بعض زملائه يتهامسون بشأن أمه. تذكر

كيف كان الفتى يخفض رأسه كلما مرت نصيرة أمام مجموعة من النساء.

لم تكن الخرافة قصة تُروى في المجالس ثم تنتهي بانتهاء السهرة؛ كانت جرحاً ينتقل من جيل إلى جيل.

لكن المفاجأة الحقيقية كانت في السطر التالي.

«لم تكن نصيرة وحدها من دفع ثمن تلك الحكاية. فقد كان هناك رجل يعرف كيف بدأت الاتهامات، لكنه لم يتكلم. كان حاضراً في الليلة الأولى، وكان يستطيع أن يضع حداً للشائعة قبل أن تتحول إلى لعنة تلاحق امرأة بريئة. لكنه اختار الصمت.»

توقف عامر.

من ذلك الرجل؟

قلب الصفحة بسرعة، لكنه وجد أن جزءاً من الورقة قد تمزق، ولم يبق من السطر الأخير إلا كلمات قليلة: «وكان يخشى أن ينكشف أمره إذا عرف الناس ما رآه قرب البئر.»

حدق عامر في الكلمات.

- ما الذي رآه ذلك الرجل؟ ولماذا كان انكشاف الأمر يهدده؟

قلب بقية الصفحات، فوجد فراغاً يمتد على عدة أوراق.

لم تكن الصفحات قد سقطت بفعل الزمن وحده؛ فقد بدا أن بعضها اقتُلع بعناية.

أعاد فحص الدفتر، ومرر أصابعه على موضع الخياطة الجلدية. كانت هناك آثار خيط قديم، وبين الغلاف والصفحات شيء صلب رقيق.

أخرج سكيناً صغيرة من درج المكتب، ثم فصل حافة الغلاف بحذر شديد.

سقطت منه ورقة مطوية . فتحها.

كان الخط مختلفاً عن خط جده، وأكثر اضطراباً، وقد كُتب عليها :

«إذا وصلت هذه الأوراق إلى أحد بعد موتي، فاعلموا أن ما حدث لنصيرة لم يكن كما رواه الناس .»

وتحت العبارة توقيع لم يستطع عامر قراءته كاملاً، إذ كان الحبر قد تآكل عند الطرف.

لكن الاسم الأول كان واضحاً : «فاضل.»

شعر عامر بأن الغرفة ضاقت من حوله.

الشيخ فاضل؟ أعاد قراءة الاسم، ثم قرب الورقة من المصباح.

ربما كان الاسم شائعاً، وربما لم يكن المقصود هو الشيخ الذي يعرفه. لكن الورقة تعود إلى أكثر من أربعين عاماً، والشيخ فاضل رجل تجاوز الستين، وقد يكون شاباً في بداية حياته آنذاك.

لم يكن ذلك دليلاً على شيء، لكنه كان خيطاً لا يجوز تجاهله.
وضع الورقة فوق المكتب، ثم أخذ نفساً عميقاً .
كان يعرف أن التسرع في الحكم هو الخطأ نفسه الذي يحاول محاربته. لم يكن يريد أن يستبدل خرافة باتهام جديد، ولا أن يجعل اسماً مكتوباً على ورقة سبباً في إدانة رجل قبل أن يعرف الحقيقة.
قال لنفسه:
- سأبحث عن الدليل، مهما كان ما سيكشفه.
ثم عاد إلى الدفتر.

3- الجد الذي اختار الصمت

في الصفحات التالية، تغير أسلوب الجد.
لم يعد يتحدث عن القرية كلها، بل بدأ يكتب عن نفسه.
«كنت أظن أن الوقوف على الحياد فضيلة في كل الأحوال. كنت أقول لنفسي إنني لا أملك دليلاً كافياً، وإن الدخول في نزاعات الناس لن يجلب إلا المشكلات. لكنني اكتشفت متأخراً أن الصمت قد يتحول إلى مشاركة في الظلم، حين يكون المرء قادراً على قول كلمة حق، ثم يختار الراحة على حساب الحقيقة .»
قرأ عامر الكلمات ببطء.

كان جده يكتب اعترافاً، لا مجرد مذكرات.

«في تلك الأيام، حدثت أمور لم أستطع فهمها كلها. رأيت رجالاً يستغلون خوف الناس، ورأيت آخرين يصدقونهم لأنهم كانوا يبحثون عن إجابة سهلة لأسئلة صعبة. كان بعض هؤلاء المستغلين يعرفون أنهم لا يملكون ما يدعون امتلاكه، لكنهم كانوا يخشون خسارة مكانتهم إذا اعترفوا بجهلهم. وكان بعضهم يبدأ بالكذبة ثم يضطر إلى اختراع كذبة أخرى لحمايتها. أما الناس، فقد ساعدوهم من حيث لا يشعرون، لأنهم كانوا يمنحون الثقة لمن يتحدث بثبات، وينظرون بعين الشك إلى من يقول: لا أعرف.»

رفع عامر رأسه.

تذكر الشيخ فاضل في مجالسه، حين كان يجيب عن الأسئلة الغامضة بعبارات تجعل الناس يظنون أنه يعرف أسراراً لا يستطيع غيره الوصول إليها. وتذكر أيضاً كيف كان يغضب إذا طلب أحدهم دليلاً واضحاً، وكيف كان يحذر الناس من الذين يشككون في كلامه.

لم يكن عامر يريد أن يتهمه اعتماداً على تشابه الحكايات، لكنه بدأ يدرك أن سلطة الخرافة لا تقوم على شخص واحد فقط.

إنها تحتاج إلى من ينشرها، ومن يصدقها، ومن يستفيد منها، ومن يعرف حقيقتها ثم يختار الصمت.

تابع القراءة.

«كان في القرية رجال طيبون حاولوا الاعتراض. منهم معلم قديم كان يقول إن الجهل لا يُعالج بالخوف، وإن المرض يحتاج إلى طبيب، والجفاف يحتاج إلى فهم أسباب الجفاف، وإن اتهام إنسان لا يجوز أن يقوم على حلم أو إشاعة. لكنهم كانوا يواجهون سخرية قاسية. كانوا يقولون له: هل تعرف أكثر من أجدادنا؟ وكان يجيب: لا أدعي أنني أعرف أكثر منهم، لكنني أرفض أن أجعل أخطاءهم قانوناً لا يجوز مراجعته.»

ابتسم عامر بحزن.

كان جده يحمل الفكرة نفسها التي يحاول هو الدفاع عنها اليوم، وكأنه ترك له مهمة لم يستطع إنجازها في حياته.

ثم ظهرت عبارة تحتها خطان:

«أخطر الخرافات ليست تلك التي تجعل الإنسان يخاف من المجهول، بل تلك التي تقنعه بأنه لا يحتاج إلى التفكير.»

قرأها عامر بصوت مسموع. ثم سكت.

لم يكن يعرف أن جده قد صاغ قبل عقود طويلة العبارة التي تختصر معركته كلها.

لكن الصفحة التالية كانت تحمل مفاجأة أشد قسوة.

4- الرسالة التي لم تصل

في نهاية الدفتر، وجد عامر ظرفاً صغيراً مثبتاً بخيط رفيع.

كُتب عليه:

«إلى ابني... لا تفتح هذه الرسالة إلا إذا قررت أن تقول الحقيقة مهما كانت العواقب.»

ارتجفت يداه.

كان جده قد كتب الرسالة إلى أبيه، أي إلى والد عامر الذي رحل عن الدنيا.

فتح الظرف بحذر، وأخرج ورقة صفراء مطوية أربع مرات.

بدأ يقرأ:

«يا بني، إذا كنت تقرأ هذه الرسالة، فربما أكون قد رحلت قبل أن أجد الشجاعة الكافية لقول ما يجب قوله. هناك أشياء حدثت في قريتنا قبل سنوات طويلة، وأخشى أن تبقى آثارها قائمة حتى بعد موت أصحابها. لقد رأيت كيف تحولت الشائعة إلى حقيقة في عيون الناس، وكيف عوقب الأبرياء لأنهم لم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم. كنت شاهداً على بعض تلك الأحداث، ولم أفعل كل ما كان ينبغي أن أفعله.

أعرف أن الصمت قد يحمي صاحبه مؤقتاً، لكنه لا يمحو الحقيقة. وكلما طال الزمن، صار إصلاح الخطأ أصعب، لأن

الأطفال يكبرون وهم يرثون أحكام آبائهم، من غير أن يعرفوا كيف بدأت.»

ثم تابع:

«إذا أردت أن تعرف ما حدث لنصيرة، فلا تبدأ بالسؤال عمن اتهمها، بل ابحث عمن استفاد من اتهامها. ولا تصدق كل من يقول إنه يعرف الحقيقة، لكن لا ترفض كلام أحد لمجرد أنه يخالف ما اعتدت سماعه. ابحث عن الرسائل القديمة، واسأل من بقي من شهود تلك الأيام. ستجد أن بعضهم يخفي خوفاً، وبعضهم يخفي ندماً، وبعضهم يخفي سراً لا يريد لأبنائه أن يعرفوه. وأهم من ذلك كله، لا تجعل رغبتك في كشف الحقيقة تتحول إلى رغبة في الانتقام. فالعدل ليس أن تجد شخصاً تعاقبه، بل أن تعرف ما حدث، وتمنع تكراره.»

شعر عامر بأن قلبه يضيق .

كان جده يطلب من أبيه أن يكشف الحقيقة، لكن الرسالة لم تصل إلى صاحبها، أو ربما وصلته ولم يستطع تنفيذ ما فيها.

أما الآن، فقد وصلت إلى عامر بعد مرور سنوات طويلة.

قلب الورقة ليقرأ تاريخها.

ثم تجمدت عيناه.

كان التاريخ يعود إلى العام نفسه الذي بدأت فيه الاتهامات القديمة ضد نصيرة.

وتحت التاريخ، وجد جملة قصيرة مكتوبة بقلم مختلف:

«لقد عرفنا الحقيقة، لكننا لم نجرؤ على قولها.»

لم يكن هناك توقيع.

غير أن أسفل الجملة ظهرت آثار ضغط قلم على الورقة، كأن شخصاً كتب كلمات أخرى على الصفحة التي كانت فوقها، ثم انتُزعت تلك الصفحة.

أحضر عامر ورقة بيضاء، ووضعها فوق الأثر، ثم مرر جانب قلم رصاص عليها برفق.

بدأت الحروف تظهر تدريجياً.

كان بعضها غير واضح، لكنه استطاع قراءة كلمات متفرقة:

«الليلة... البئر... الشاهد... الشيخ...»

ثم ظهر اسم آخر.

«عاشور.»

تراجع عامر في كرسيه.

عاشور، الرجل الذي يبيع الأعشاب والوصفات الشعبية في القرية، والذي كان كثيراً ما يلتقي بالشيخ فاضل، ويؤكد للناس أن بعض الأمراض لا تنفع معها الأدوية.

هل كان عاشور شاهداً على الأحداث القديمة؟

أم أن الاسم يعود إلى شخص آخر؟

لم يكن في يده ما يكفي للحكم.

لكن وجود اسم عاشور إلى جانب اسم فاضل، في أوراق تعود إلى عقود مضت، جعله يدرك أن الماضي ربما لم يكن بعيداً كما ظن.

قد تكون بعض المصالح القديمة قد تغيرت وجوه أصحابها، لكنها بقيت تعمل بالطريقة نفسها.

الخوف يفتح الأبواب، والجهل يمنح المتلاعبين مفاتيحها .

وفجأة، سمع صوتاً عند النافذة.

التفت بسرعة.

كان غصن شجرة يضرب الزجاج بفعل الريح.

ابتسم لنفسه محاولاً تهدئة أعصابه، ثم جمع الأوراق ووضعها في ترتيبها الصحيح.

لكن قبل أن يغلق الصندوق، لاحظ شيئاً لم ينتبه إليه في البداية. كانت هناك صورة صغيرة في القاع، منفصلة عن بقية الصور، وموضوعة داخل غلاف ورقي. أخرجها.

ظهرت في الصورة مجموعة من الرجال يقفون أمام مبنى قديم في القرية. بدا بعضهم في منتصف العمر، بينما كان آخرون شباناً.

عرف عامر جده بسهولة.

وبجواره وقف رجل لم يستطع التعرف إليه.

أما في الطرف الأيسر من الصورة، فكان هناك شاب يحمل ملفاً ورقياً، وينظر إلى الكاميرا بوجه جاد.

قلب الصورة.

وجد على ظهرها تعليقاً بخط جده:

«اجتماع الليلة التي تغير فيها كل شيء.»

وتحت العبارة تاريخ قديم.

ثم اسم شخص واحد:

« فاضل.»

5- الزائر المجهول

ظل عامر يحدق في الصورة طويلاً.

لم يكن يعرف إن كان الشاب هو الشيخ فاضل نفسه، لكن ملامحه بدت قريبة من بعض الصور القديمة التي سبق أن رآها في القرية.

أخرج هاتفه والتقط صورة للصورة القديمة، ثم وضع الأصل في ظرف منفصل.

كان ينوي الذهاب إلى الشيخ فاضل في اليوم التالي، لكنه لم يكن مستعداً لمواجهته الآن.

لم يرد أن يذهب إليه باتهامات مبنية على الظنون. أراد أولاً أن يعرف ما الذي حدث في تلك الليلة، ولماذا ارتبط اسم الشيخ بحكاية نصيرة، وما علاقة عاشور بالأمر.

جمع الدفتر والرسائل والصور، ثم أعادها إلى الصندوق، باستثناء الصورة والرسالة التي كتبها جده إلى أبيه.

أغلق الصندوق ووضعه تحت مكتبه.

وبينما كان يهم بإطفاء المصباح، سمع طرقاً سريعاً على الباب .

هذه المرة لم يكن الطرق خفيفاً .

ثلاث ضربات متتابعة، ثم صمت.

فتح عامر الباب، فلم يجد أحداً في الممر.

نظر نحو الفناء، فرأى الباب الخارجي مواربا، والريح تدفعه إلى الداخل والخارج.

خرج إلى العتبة ونادى :

- من هناك؟

لم يجبه أحد.

لكن شيئاً أبيض كان ملقى قرب الباب.

انحنى والتقطه.

كانت ورقة مطوية، وقد ابتلت أطرافها بالمطر.

فتحها تحت ضوء المصباح المعلق في الفناء.

وجد فيها سطراً واحداً :

«إذا أردت أن تعرف الحقيقة، فلا تثق بكل ما كتبه جدك.»

شعر ببرودة تسري في أطرافه.

من وضع الرسالة؟

هل كان أحدهم يراقبه منذ أن فتح الصندوق؟

وهل عرف أن الدفتر يحتوي على أسرار قديمة؟

عاد إلى الغرفة وأغلق الباب بإحكام.

وضع الرسالة الجديدة إلى جانب رسالة جده، وراح يقارن الخطين.

كان الخط في الورقة الجديدة مائلاً، والحروف مكتوبة بسرعة، بينما كانت رسالة الجد مرتبة وواضحة.

لم يستطع تحديد هوية الكاتب.

لكن الجملة أثارت في داخله سؤالاً أخطر من كل الأسئلة السابقة:

هل كان جده يقول الحقيقة كاملة؟ أم أنه، مثل بقية أهل القرية، أخفى جزءاً منها خوفاً أو ندماً أو رغبة في حماية شخص ما؟

جلس أمام المكتب، وفتح الدفتر من جديد.

أعاد قراءة الصفحات التي تحدثت عن نصيرة، ثم قرأ اعتراف جده بشأن صمته، وتمعن في الكلمات الأخيرة من الرسالة.

لم يجد ما يثبت أن جده كذب، لكنه لم يعد مستعداً أيضاً لاعتبار كل ما كتبه حقيقة نهائية.

كان عليه أن يفعل ما تعلمه من جده نفسه :

أن يسأل، ويتحقق، ويبحث عن الأدلة، وألا يسمح للخوف بأن يقوده إلى حكم مسبق.

مد يده نحو الصندوق وأخرج الصورة القديمة مرة أخرى.

تأمل وجوه الرجال الواقفين أمام المبنى.

كان جده ينظر إلى الكاميرا، لكن الرجل الذي بجانبه بدا كأنه يراقب شخصاً خارج إطار الصورة.

أما الشاب الذي يحمل الملف، فكان ينظر إلى الأرض، وكأنه يخشى أن يلتقي بعيني المصور.

كبر عامر الصورة على هاتفه.

ثم انتبه إلى تفصيل صغير.

في خلفية الصورة، عند باب المبنى، كان يقف رجل آخر لم يظهر منه سوى نصف وجهه.

لم يكن واضحاً بما يكفي للتعرف إليه.

لكن عامر لاحظ أنه يحمل في يده شيئاً يشبه الدفتر الجلدي نفسه الذي وجده داخل الصندوق.

اقترب من الشاشة، وراح يتفحص الصورة مرة أخرى. ثم سمع صوت أمه من خلف الباب:

- عامر، هل ما زلت مستيقظاً؟

أخفى الصورة بسرعة، ثم أجاب:

- نعم يا أمي.

فتحت خديجة الباب قليلاً، ونظرت إليه.

- هل وجدت ما كنت تبحث عنه؟

تردد عامر.

كان يريد أن يخبرها بكل شيء، لكنه تذكر كلماتها قبل أن تغادر الغرفة:

«إذا وجدت ما يؤلمك، فلا تتسرع في الحكم على أحد.»

قال:

- وجدت أكثر مما توقعت.

اقتربت خديجة خطوة، ثم وقعت عيناها على الصورة الموضوعة فوق المكتب.

تغير وجهها فجأة.

تراجعت قليلاً، ووضعت يدها على صدرها.

- من أين حصلت على هذه الصورة؟

نظر إليها عامر بدهشة.

- كانت داخل الصندوق. هل تعرفين هؤلاء الرجال؟

لم تجب.

اقتربت من الصورة، وحملتها بيد مرتجفة، ثم ظلت تحدق في الرجل الذي يقف عند باب المبنى.

كانت ملامحها قد شحبت، وكأنها رأت شبحاً من زمن بعيد.

قال عامر بصوت منخفض:

- أمي، ما الأمر؟ هل تعرفين هذا الرجل؟

أعادت الصورة إلى المكتب، ثم التفتت نحو الباب.

- ظننت أن هذه الحكاية انتهت منذ زمن طويل.

- أي حكاية؟

سكتت خديجة لحظات، ثم قالت:

- كنت صغيرة عندما وقعت تلك الأحداث. لم يخبرني أحد بالتفاصيل، لكنني سمعت جدك يتحدث ذات ليلة مع أبيك. كان غاضباً، وكان يقول إن الحقيقة إذا خرجت إلى الناس فسوف تتغير حياة كثيرين.

- وماذا قال أبي؟

أغمضت عينيها كأنها تستعيد مشهداً بعيداً.

- قال له: «وهل ستبقى الحقيقة سجينة إلى الأبد؟»

شعر عامر أن الكلمات الأخيرة قد فتحت باباً جديداً.

سألها بسرعة:

- وماذا أجابه جدي؟

نظرت إليه طويلاً، ثم قالت:

- قال له: «ليس كل من يعرف الحقيقة يستطيع أن يتحمل نتائجها.»

صمتت الغرفة.

وفي الخارج، بدأ المطر يخف تدريجياً، لكن الريح ظلت تحرك أغصان الأشجار.

اقترب عامر من أمه.

- لماذا لم تخبريني بهذا من قبل؟

أجابت بصوت خافت:

- لأنني لم أكن أعرف الحقيقة، ولأن أباك طلب مني ألا أتحدث فيما لا أعرفه. كنت أظن أن الأمر يتعلق بخلاف قديم بين رجال القرية، ولم أتخيل أن اسم نصيرة كان جزءاً منه.

ثم رفعت رأسها، وأضافت:

- لكن هناك شيئاً آخر يا عامر. قبل وفاة جدك بأيام، رأيته يحرق بعض الأوراق في فناء البيت. حاولت أن أسأله عما يفعل، فقال لي إنها أوراق لا ينبغي أن تبقى بعد موته.

حدق عامر فيها.

- هل تعرفين ما كانت تلك الأوراق؟

- لا.

- وهل كان بينها رسائل؟

هزت رأسها.

- لا أستطيع أن أجزم.

عاد عامر إلى الصندوق، وراح يقلب محتوياته مرة أخرى، بحثاً عن أي ورقة قد تكون سقطت منه.

لكن الصندوق بدا فارغاً إلا من بعض الصور والرسائل التي سبق أن قرأها.

ومع ذلك، لم يكن مقتنعاً بأن جده قد ترك كل شيء فيه.

فالرجل الذي اقتلع بعض الصفحات من دفتره، وأخفى رسالة داخل غلافه، لا بد أنه كان يعرف أن بعض الأسرار أخطر من أن تُترك مكشوفة.

ربما لم يكن الصندوق نهاية الحكاية، بل بدايتها.

جلس عامر أمام مكتبه، ووضع الدفتر أمامه، ثم كتب في دفتر ملاحظاته :

الخطوة الأولى: معرفة هوية الرجال في الصورة.

الخطوة الثانية: معرفة حقيقة ما حدث لنصيرة.

الخطوة الثالثة: البحث عن الأوراق التي أحرقها جدي.

الخطوة الرابعة: فهم العلاقة بين الأسماء القديمة والأحداث التي تعيشها القرية اليوم.

ثم توقف قليلاً، وكتب تحتها :

«لا أريد أن أجد متهماً، بل أريد أن أجد الحقيقة.»

كان يعرف أن مهمته لن تكون سهلة. فهناك أشخاص قد يخافون من فتح الماضي، وآخرون قد يحاولون منعه من مواصلة البحث، وربما يكتشف أن بعض من يثق بهم كانوا يعرفون أكثر مما أظهروه.

لكنه أدرك أيضاً أن الدفتر لم يمنحه مجرد معلومات عن أحداث مضت، بل كشف له كيف يمكن للخرافة أن تعيش طويلاً بعد موت الذين صنعوها، وكيف يتحول الصمت إلى ميراث، وكيف يرث الأبناء خوف الآباء من دون أن يعرفوا أسبابه.

رفع رأسه نحو النافذة .كان الفجر يقترب، والغيوم بدأت تنسحب ببطء عن سماء «عين النسر» .

وفي تلك اللحظة، فهم معنى العبارة التي كتبها جده في الصفحة الأولى :

«لا تجعل احترامك للماضي يمنعك من إصلاح أخطائه. لم يكن احترام الماضي أن يصدّق كل ما تركه السابقون، بل أن يتعلم من تجاربهم، وأن يميز بين ما يستحق أن يُحفظ وما يجب أن يُصحح.»

أغلق الدفتر برفق، لكنه لم يعد يشعر أنه مجرد دفتر قديم . لقد أصبح شاهداً صامتاً على قرية كاملة، وعلى أشخاص عاشوا وماتوا وهم يحملون أسرارهم، وعلى امرأة دفعت ثمن

اتهام لم يثبت عليها، وعلى رجال اختاروا الصمت عندما كان الكلام واجباً .

وقبل أن يطفئ المصباح، وقعت عيناه مرة أخرى على الرسالة التي وجدها عند الباب.

قرأها للمرة الأخيرة :

«إذا أردت أن تعرف الحقيقة، فلا تثق بكل ما كتبه جدك.»

لم يعد يخاف من العبارة كما خاف منها أول مرة.

بل شعر أنها تحمل، رغم غموضها، درساً آخر.

حتى الدفتر الذي يدعو إلى التفكير يجب ألا يتحول إلى حقيقة مقدسة لا تُناقش.

فالحقيقة لا تخاف السؤال، وإنما تخاف أن يتحول السؤال إلى تهمة، وأن يتحول الصمت إلى حكم، وأن يصبح الخوف بديلاً عن العقل.

وما لم يكن عامر يعرفه تلك الليلة، أن شخصاً في «عين النسر» كان قد علم بالفعل أن صندوق الجد قد فُتح، وأن الدفتر الذي ظن الجميع أنه اختفى إلى الأبد عاد إلى الحياة.

وفي بيت بعيد عند الطرف الشرقي من القرية، جلس رجل مسن أمام مصباح خافت، وراح يقلب بين أصابعه صورة قديمة تشبه تماماً الصورة التي وجدها عامر.

ثم تمتم بصوت مرتجف :

- لقد بدأ كل شيء من جديد ...ووضع الصورة في درج مغلق، قبل أن يضيف :

- لكن هذه المرة، لن أسمح لهم بمعرفة ما حدث في تلك الليلة.

أطفأ المصباح.

وبقيت «عين النسر» غارقة في الظلام، بينما كان سر قديم يستيقظ ببطء، مستعداً لمواجهة من ظنوا أن الزمن دفنه إلى الأبد.

الفصل العاشر:
اعتراف في الظلام

لم تكن «عين النسر» قد نامت تمامًا في تلك الليلة، رغم أن الظلام غمر أزقتها الضيقة، وأغلقت البيوت أبوابها مبكرًا تحت سماء مثقلة بالغيوم. كانت الريح تمر بين الأشجار العتيقة، فتُصدر صفيرًا متقطعًا يشبه أنينًا بعيدًا، بينما تتدلى قطرات المطر من أسطح المنازل الطينية.

في غرفته الصغيرة، كان عامر جالسًا أمام مكتبه، تحيط به الكتب والدفاتر والأوراق التي جمعها خلال الأسابيع الماضية. لم يعد الأمر بالنسبة إليه مجرد خلاف بين من يؤمنون بالخرافة ومن يدعون إلى التفكير العلمي، بل أصبح قضية تمس حياة الناس وأموالهم وكرامتهم، وربما أرواحهم أيضًا.

كان يتأمل بعض الملاحظات التي دوّنها عن عاشور، بائع الأعشاب والمنتجات الغامضة، وعن الشيخ فاضل الذي استطاع أن يجعل الخوف مصدرًا للنفوذ والمال.

كلما ظن عامر أنه اقترب من الحقيقة، ظهرت أمامه أسئلة جديدة.

من الذي يقف خلف هذه التجارة؟ هل يعمل عاشور وحده، أم أن هناك أشخاصًا آخرين يستفيدون من استمرار الجهل والخوف؟ ولماذا كان بعض سكان القرية يرفضون الحديث عما يعرفونه، حتى عندما يتعلق الأمر بأموالهم وأبنائهم؟

أغلق عامر دفتره، وأسند ظهره إلى الكرسي. كان التعب قد بدأ يتسلل إلى عينيه، لكنه لم يستطع النوم.

وفجأة، سمع طرقًا خفيفًا على الباب. طرقٌ متردد، كأن صاحبه يخشى أن يسمعه أحد.

رفع عامر رأسه وأصغى.

عاد الطرق مرة ثانية، ثلاث نقرات قصيرة، أعقبها صمت طويل.

نهض ببطء، واتجه نحو الباب. وقبل أن يفتحه، سأل بصوت منخفض :

- من هناك؟

جاءه صوت خافت :

- افتح يا عامر ، أريد أن أتحدث معك.

كان الصوت غريبًا، لكنه يحمل نبرة رجل يعرفه منذ زمن. فتح عامر الباب قليلًا، فرأى رجلًا يرتدي معطفًا قديمًا داكن اللون، وقد غطى رأسه بقبعة سوداء مبتلة من المطر. كان يلتفت إلى الخلف باستمرار، كأنه يتوقع أن يظهر شخص من العتمة في أية لحظة.

تأمل عامر وجهه، ثم اتسعت عيناه قليلًا.

- صالح؟! وضع الرجل إصبعه على شفتيه، وقال هامسًا:

- اخفض صوتك، أرجوك. لا أريد أن يعرف أحد أنني جئت إليك.

فتح عامر الباب على اتساعه، وأفسح له الطريق.

دخل صالح بخطوات مترددة، ثم توقف في منتصف الغرفة، وألقى نظرة سريعة على النافذة قبل أن يجلس على طرف الكرسي المقابل للمكتب.

كان صالح رجلًا تجاوز الخمسين من عمره، أنهكته سنوات العمل الطويلة. عرفه أهل القرية عاملًا بسيطًا لا يحب التدخل في شؤون الآخرين، لكنه عمل لسنوات مع عاشور، وكان يعرف الكثير عن تجارته وأسراره.

لم يكن حضوره في تلك الساعة أمرًا عاديًا.

قال عامر وهو يراقبه باهتمام:

- ما الذي جاء بك في هذا الوقت يا صالح؟ وهل حدث شيء؟

مرر صالح يده على وجهه، ثم نظر إلى الباب مرة أخرى.

- حدث الكثير يا عامر، لكنني تأخرت طويلًا في الكلام.

- ماذا تقصد؟

أخرج صالح منديلًا من جيبه، ومسح به قطرات المطر عن جبينه.

بدا عليه الاضطراب، وكانت أصابعه ترتجف قليلًا.

قال بعد صمت:

- أنا أعرف عاشور منذ سنوات. عملت معه، وحملت له الصناديق، وساعدته في ترتيب بضاعته، وكنت أظن أنني أعمل عند رجل يبيع الأعشاب وبعض الأشياء التي يعتقد الناس أنها تجلب الحظ أو تدفع الحسد.

توقف قليلًا، ثم أضاف بصوت أكثر انخفاضًا:

- لكنني اكتشفت أن المسألة أكبر مما كنت أتصور.

مال عامر نحوه.

- تكلم يا صالح. ماذا اكتشفت؟

أدخل الرجل يده في جيب معطفه الداخلي، وأخرج ورقة مطوية بعناية. وضعها على الطاولة، لكنه أبقى يده فوقها لحظات، كأنه يخشى أن يؤدي التخلي عنها إلى تغيير حياته إلى الأبد.

ثم دفعها نحو عامر وقال:

- هذه أسماء أشخاص دفعوا أموالًا لعاشور مقابل أشياء قيل لهم إنها تحميهم من الحسد، وتمنع عنهم المصائب، وتحفظ أبناءهم من المرض والفشل.

فتح عامر الورقة بحذر.

كانت مكتوبة بخط صغير، تضم أسماء رجال ونساء من سكان «عين النسر»، وإلى جانب كل اسم مبلغ مالي، وتاريخ تقريبي للدفع، وملاحظات قصيرة.

قرأ عامر السطر الأول، ثم انتقل إلى الثاني والثالث. كلما تقدم في القراءة، ازدادت ملامحه جدية.

كانت هناك امرأة دفعت مبلغًا كبيرًا بعدما أقنعها عاشور بأن ابنها لن ينجح في دراسته ما لم تشترِ منه شيئًا يحميه من الحسد. ورجل باع جزءًا من محصوله ليدفع ثمن حزمة صغيرة قيل له إنها تمنع المرض عن أسرته. وأرملة اقترضت المال بعدما أخبرها أحدهم أن المصائب التي تلاحق بيتها لن تتوقف إلا إذا حصلت على منتج خاص لا يعرف قيمته إلا عاشور.

أما الاسم الذي جعل عامر يتوقف طويلًا، فكان اسم رجل يعرفه جيدًا، رجل ظل يدافع عن الشيخ فاضل في كل مجلس، ويؤكد أن ما يفعله الشيخ لا علاقة له بالمال.

رفع عامر عينيه نحو صالح.

- هل هذه الأسماء حقيقية؟ وهل دفعت هذه الأموال فعلًا؟

أجاب صالح بسرعة:

- نعم، لكنني لا أريدك أن تصدقني لمجرد أنني جئت إليك. تحقق بنفسك. اسأل أصحاب الأسماء، إن استطعت، وقارن التواريخ بما لديك من معلومات.

ثم أضاف بنبرة حزينة:

- كنت أدوّن بعض الحسابات عندما طلب مني عاشور ذلك. في البداية، ظننتها معاملات تجارية عادية. لكنني بدأت ألاحظ أن الأسعار لا علاقة لها بقيمة البضاعة، وأن بعض المنتجات تُباع بأضعاف ثمنها الحقيقي، بل إن بعضها لا يتجاوز كونه قطعًا عادية من القماش أو الحجارة أو عبوات صغيرة لا يُعرف محتواها.

حدق عامر في الورقة.

- وماذا كان يقول للناس عنها؟

أطلق صالح ضحكة قصيرة خالية من الفرح.

- كان يعرف ما يخيف كل واحد منهم، ثم يبيع له الشيء الذي يظن أنه سينقذه.

سكت قليلًا، وكأن الكلمات التالية أثقل من أن تخرج بسهولة.

- إذا كانت امرأة تخشى على ابنها، قال لها إن الحسد يلاحقه. وإذا كان رجل يعاني خسارة في تجارته، أخبره أن هناك من يتمنى له الشر. وإذا مرض طفل، وجد من يفسر مرضه بكلام غامض بدل أن ينصح أهله بطلب العلاج. لم يكن يقدم للناس دليلًا على شيء، بل كان يمنحهم خوفًا جديدًا، ثم يعرض عليهم شراء الطمأنينة منه.

شعر عامر بانقباض في صدره.

لم تكن الورقة مجرد سجل للأموال؛ كانت سجلًا لآلام الناس وضعفهم، ولحظات يأس استغلها آخرون لتحقيق مصالحهم.

قال بصوت خافت :

- وهل كان عاشور وحده وراء ذلك؟

تردد صالح، ثم شبك أصابعه بقوة.

هنا تبدأ المشكلة الحقيقية.

اقترب عامر من المكتب، وأخرج دفترًا صغيرًا .

- ماذا تعرف أيضًا؟

أجاب صالح :

- كانت هناك اتصالات. رجال يزورونه بعيدًا عن أعين الناس، وأحيانًا كان يطلب مني مغادرة المكان بحجة أن لديه أمورًا خاصة. كنت أسمع أسماء تتكرر، وأرى أموالًا تُسلَّم في ظروف غريبة. وفي بعض الأحيان، كان يطلب مني نقل صناديق إلى أماكن لا يبيع فيها شيئًا بصورة علنية.

- وهل رأيت الشيخ فاضل بينهم؟

أطرق صالح رأسه.

مرّت ثوانٍ طويلة لم يُسمع خلالها سوى صوت المطر وهو يضرب زجاج النافذة.

ثم قال :

- رأيته أكثر من مرة.

لم يتحرك عامر، لكنه شعر بأن الكلمات التالية قد تغير فهمه لما يجري في القرية.

تابع صالح :

- لا أستطيع أن أقول لك إنني أعرف كل ما كانا يتفقان عليه، فقد كنت أغادر الغرفة أحيانًا، ولم أسمع كل حديثهما. لكنني رأيت عاشور يسلم الشيخ فاضل مبالغ مالية، وسمعتهما يتحدثان عن أشخاص بعينهم، وعن ضرورة أن يبقى الناس خائفين من الحسد والمصائب.

دوّن عامر المعلومة، ثم سأله:

- هل تعرف لماذا كانا يفعلان ذلك؟

هز صالح رأسه ببطء.

- لا أعرف كل التفاصيل. لكنني فهمت شيئًا واحدًا: حين يخاف الناس، يسهل إقناعهم بأشياء لم يكونوا ليصدقوها لو كانوا هادئين ويفكرون بعقولهم.

نهض صالح فجأة، واتجه نحو النافذة، ثم عاد إلى مكانه.

- أتدري ما الذي جعلني أقرر المجيء إليك؟

- ماذا؟

ابتلع صالح ريقه، وقال :

- رأيت رجلًا من القرية يأتي إلى عاشور قبل أيام. كان ابنه مريضًا، وقد أنفق الرجل كثيرًا من المال على أشياء لا يعرف

حقيقتها. كان يتوسل إليه أن يساعده، لكن عاشور لم يسأله عن أعراض الطفل، ولم ينصحه بالذهاب إلى الطبيب. ظل يتحدث عن الحسد، ثم عرض عليه منتجًا آخر بسعر أعلى.

- في تلك اللحظة، تذكرت كل ما رأيته خلال السنوات الماضية. تذكرت النساء اللواتي بعن حليهن، والرجال الذين اقترضوا الأموال، والأسر التي عاشت في رعب بسبب كلمات قيلت لها بلا دليل.

ثم رفع عينيه نحو عامر.

- شعرت أنني شريك في هذا الصمت. ربما لم أكن صاحب القرار، لكنني ساعدت في نقل تلك الأشياء، وكنت أرى ما يحدث ولا أتكلم.

أجابه عامر بهدوء:

- الاعتراف بما تعرفه خطوة مهمة، لكن الأهم هو أن تساعد على كشف الحقيقة. ومع ذلك، لن نتهم أحدًا اعتمادًا على كلامك وحده. علينا أن نتحقق من كل شيء.

بدا الارتياح على وجه صالح، لكنه لم يدم طويلًا.

أخرج من جيبه ورقة ثانية، أصغر حجمًا وأكثر اصفرارًا، ووضعها فوق الورقة الأولى.

- هناك شيء آخر. وجدتها بين دفاتر الحسابات القديمة عندما كنت أرتب المخزن. لم أفهم جميع ما فيها، لكنني احتفظت بها لأنني شعرت أنها مهمة.

تناول عامر الورقة.

كانت تحتوي على أرقام وتواريخ ومبالغ مالية، وإلى جانب بعضها إشارات مختصرة، وأسماء أشخاص لم ترد في القائمة الأولى. وفي أسفل الصفحة، كُتبت عبارة قصيرة بقلم مختلف :

«لا تسمحوا له بفتح الموضوع من جديد .»

قرأ عامر العبارة مرتين.

- من المقصود هنا؟

أجاب صالح :

- لا أعرف. لكنني سمعت عاشور يتحدث عنك قبل أيام.

تصلب وجه عامر.

- عني أنا؟

- نعم. قال إنك بدأت تطرح أسئلة كثيرة، وإنك قد تفسد أمورًا استغرق بناؤها سنوات. ثم قال لشخص كان معه إن عليك أن تنشغل بشيء آخر قبل أن تصل إلى ما لا ينبغي لك الوصول إليه.

ساد الصمت.

شعر عامر ببرودة تسري في أطرافه، لكنه لم يسمح للخوف بأن يظهر على وجهه.

كان قد توقع مقاومة أفكاره، وربما حملات تشويه ضده، لكنه لم يتوقع أن تتحول محاولاته لفهم ما يحدث في القرية إلى قضية تمس سلامته الشخصية.

قال صالح :

- لهذا جئت في منتصف الليل. لم أعد أستطيع النوم. كلما أغمضت عيني، رأيت وجوه الناس الذين دفعوا أموالهم وهم يعتقدون أنهم يشترون الحماية لأبنائهم. وأخشى أن يكون هناك من يكتشف أنني تحدثت إليك.

أعاد عامر الورقتين إلى الطاولة، ونظر إلى الرجل بجدية.

.- هل يعرف أحد أنك احتفظت بهاتين الورقتين؟

- لا أظن ذلك.

- وهل أخذت شيئًا آخر من المخزن؟

- لا. هاتان الورقتان فقط.

نهض عامر وأغلق الدفتر الذي كان أمامه، ثم قال :

- اسمعني يا صالح. لن أذهب غدًا إلى السوق وأتهم عاشور أمام الناس، ولن أذكر اسم أحد قبل أن أتأكد من الوقائع. سنراجع الأسماء والمبالغ والتواريخ، وسنحاول الوصول إلى أصحابها بطريقة لا تعرضهم للخطر. إذا كانت هناك معاملات

مالية مشبوهة، فعلينا أن نبحث عن أدلتها. وإذا كان هناك أشخاص يستغلون خوف المرضى، فعلينا أن نكشف أساليبهم، لا أن نستبدل إشاعة بإشاعة أخرى.

أومأ صالح موافقًا.

ثم أضاف عامر:

- والأهم من ذلك، لن أسمح بأن يتحول هذا الأمر إلى انتقام شخصي. ما نريده هو الحقيقة، وأن يتوقف استغلال الناس.

وقف صالح، وأعاد ترتيب معطفه.

- كنت أعرف أنك ستفهمني.

مد عامر يده وصافحه.

- لقد تأخرت، لكنك جئت في النهاية.

توجه صالح نحو الباب، ثم توقف قبل أن يفتحه، واستدار كأنه تذكر أمرًا أخيرًا.

- عامر، هناك شيء لم أخبرك به.

شعر عامر بأن ليلة الاعتراف لم تنته بعد.

- ما هو؟

قال صالح بصوت يكاد يختفي:

- في إحدى المرات، سمعت عاشور يقول إن بعض الناس لا يحتاجون إلى أن يؤمنوا بما يبيعونه، بل يكفي أن يجعلوا

الآخرين يؤمنون به. ثم ضحك وقال إن الخوف أغلى من البضاعة نفسها.

لم يجب عامر.

كانت العبارة كافية لتكشف له جوهر ما يحدث في «عين النسر». لم تكن الحجارة ولا الأعشاب ولا القطع الغامضة هي السلعة الحقيقية، بل كان الخوف هو السلعة، والجهل هو السوق، واليأس هو الباب الذي يدخل منه المستغلون إلى بيوت الناس.

فتح صالح الباب بحذر، وألقى نظرة أخيرة على الطريق المظلم.

- سأنتظر منك أن تخبرني بما يجب أن أفعله.

قال عامر :

- لا تتحدث عن هذه الزيارة مع أحد. واحتفظ بذاكرتك هادئة؛ أريدك أن تروي كل ما تعرفه بدقة، دون زيادة أو نقصان. وإذا تذكرت تفاصيل أخرى، فاكتبها. لكن لا تعرض نفسك للخطر من أجل الحصول على أي دليل.

خرج صالح، واختفى معطفه الداكن في نهاية الزقاق.

أغلق عامر الباب، وأسند ظهره إليه لحظات.

كان المنزل هادئًا، لكن ذهنه صار أكثر ضجيجًا من أي وقت مضى.

عاد إلى المكتب، وأشعل المصباح الصغير، ثم وضع الورقتين أمامه. بدأ بنسخ الأسماء والمبالغ والتواريخ في دفتر مستقل، وترك مساحة بجانب كل اسم لتسجيل ما سيتوصل إليه من معلومات مؤكدة.

لم يرد أن ينسى تفصيلًا واحدًا .

وبينما كان يراجع الورقة الثانية، لاحظ أن أحد الأسماء كُتب بجانبه مبلغ مالي كبير، ثم شُطب الاسم بخطين متقاطعين، وفوقه كُتبت كلمة واحدة:

«مرفوض.»

توقف عامر.

- من الذي رفض الدفع؟ ولماذا شُطب اسمه؟ وهل كان هناك شخص آخر يرفض الانصياع لهذه التجارة؟

قلب الورقة، فوجد في ظهرها أثر كتابة باهتة لم تكن ظاهرة بوضوح. قرّبها من المصباح، وأخذ يقرأ الحروف بصعوبة.

لم يستطع تمييز العبارة كاملة، لكنه استطاع قراءة ثلاث كلمات: «الدفتر عند الشيخ...»

توقف النص عند حافة ممزقة.

أعاد عامر الورقة إلى الطاولة، وشعر أن الطريق الذي فتحه صالح أمامه يقود إلى سر أعمق مما توقع.

أي دفتر كان المقصود؟

هل كان هناك سجل آخر يتضمن حسابات عاشور واتصالاته؟ وهل كان الشيخ فاضل يحتفظ بدليل يكشف حقيقة ما يجري؟ أم أن العبارة تتعلق بشيء آخر تمامًا؟

نظر إلى الساعة.

كانت تشير إلى الثالثة إلا ربعًا صباحًا.

خارج النافذة، خفت صوت المطر، وبدأت الريح تهدأ. لكن عامر لم يشعر بأي رغبة في النوم. جمع الأوراق، ووضعها داخل ملف، ثم أخفاه بين صفحات كتاب قديم في مكتبته.

قبل أن يطفئ المصباح، عاد إلى العبارة المكتوبة في أسفل الورقة الأولى:

«لا تسمحوا له بفتح الموضوع من جديد.»

من هو ذلك الشخص الذي أرادوا إسكات صوته؟ ولماذا كانوا يخشون أن يُفتح الموضوع؟

جلس عامر أمام النافذة، يتأمل ظلام القرية.

تذكر جده وكلماته التي ظلت تتردد في ذاكرته منذ طفولته: إن احترام الناس لا يعني أن نتخلى عن عقولنا، وإن الحقيقة لا تصبح باطلة لمجرد أن قائلها ضعيف، كما أن الكذب لا يصبح حقيقة لمجرد أن وراءه أصحاب نفوذ.

أغمض عينيه لحظة، ثم فتحهما بعزم.

لم يكن يريد فضح الناس، بل فضح الأساليب التي استغلت ضعفهم. ولم يكن يبحث عن معركة مع رجل بعينه، بل عن إجابة لسؤال ظل يطارده منذ عاد إلى «عين النسر»: كيف استطاع الخوف أن يحكم عقول قرية كاملة، حتى صار بعض أهلها يدفعون أموالهم لمن يزيد خوفهم بدل أن يساعدهم على التخلص منه؟

أخذ قلمًا، وكتب في أعلى صفحة جديدة :

«الاعتراف الأول: تجارة الخوف ليست عملًا فرديًا، والحقيقة لا تزال مخبأة في مكان ما .»

ثم أضاف تحتها :

«الخطوة التالية: التحقق من الأسماء، وتتبع الأموال، ومعرفة سر الدفتر .» أغلق الدفتر. وفي اللحظة التي مد فيها يده لإطفاء المصباح، لمح من خلال النافذة حركة عند نهاية الزقاق المقابل.

كان هناك رجل يقف تحت شجرة زيتون، لا يتحرك.

لم يستطع عامر تمييز وجهه بسبب الظلام، لكنه لاحظ أنه كان ينظر مباشرة نحو نافذته.

تراجع قليلًا عن الزجاج، وانتظر.

بعد لحظات، تحرك الرجل ببطء، ثم اختفى خلف الجدار.

أطفأ عامر المصباح، وبقي واقفًا في الظلام.

هل كان الرجل ينتظر صالح؟ أم أنه كان يراقب المنزل قبل وصوله؟ وهل سمع شيئًا من الحديث الذي دار في الداخل؟ لم يكن لديه جواب.

لكنه أدرك أن اعتراف صالح لم يفتح باب الحقيقة فحسب، بل ربما جعل بعض الذين يخشون انكشاف أسرارهم أكثر انتباهًا إليه.

وفي تلك الليلة، لم يكن عامر وحده الذي عرف أن شيئًا قد تغير.

في الجهة الأخرى من القرية، داخل بيت واسع تحيط به أشجار كثيفة، كان عاشور يجلس إلى طاولة خشبية، وأمامه هاتفه ودفتر حسابات قديم.

رن الهاتف فجأة.

نظر إلى الرقم، ثم أجاب بصوت منخفض:

- نعم؟

جاءه صوت مضطرب من الطرف الآخر :

هل أنت متأكد أن كل شيء في مكانه؟

قطب عاشور حاجبيه.

- ماذا تقصد؟

- هناك أوراق قديمة لم أعد أجدها. أريدك أن تتأكد من المخزن.

ساد صمت قصير، ثم قال عاشور بحدة:

- لا تقلق. سأتحقق بنفسي.

أغلق الهاتف، وبقي يحدق أمامه.

لم يكن يعرف بعد أن صالح قد ذهب إلى عامر ، لكنه شعر بأن شيئًا ما يتحرك خارج سيطرته.

فتح دفتر الحسابات، وقلب صفحاته بسرعة حتى وصل إلى موضع محدد.

توقف.

كانت هناك صفحة ممزقة.

مرر إصبعه على الحافة الخشنة للورق، ثم رفع رأسه ببطء.

ولأول مرة منذ سنوات، لم يبدُ عاشور واثقًا من أن أسراره ستبقى مدفونة.

قال لنفسه بصوت خافت:

- من الذي بدأ ينبش الماضي؟ لم يجبه أحد.

لكن الظلام المحيط به بدا، في تلك اللحظة، أقل أمانًا مما كان يظن.

وهكذا انتهت ليلة الاعتراف، وبدأت مرحلة جديدة من المواجهة؛ مرحلة لم يعد فيها السؤال مقتصرًا على ما يبيعه عاشور للناس، بل امتد إلى ما يخفيه عنهم، وإلى الأسرار التي

قد تكشف أن تجارة الخوف كانت أكبر من مجرد أوهام تُباع في زوايا السوق.

الفصل الحادي عشر:
الشائعة التي سبقت الحقيقة

لم تكن «عين النسر» تحتاج إلى أكثر من كلمة واحدة حتى تستيقظ على عاصفة، ولم يكن أهلها ينتظرون دليلاً كي يصدقوا خبراً يوافق مخاوفهم. كانت الشائعة في تلك القرية تشبه شرارة تسقط فوق أعشاب يابسة؛ تبدأ صغيرة، ثم لا تلبث أن تتحول إلى حريق يصعب إخماده.

في صباح يوم غائم، وبينما كانت الأسواق تستعد لاستقبال يوم جديد، تسللت شائعة غريبة إلى الأزقة الضيقة، وانتقلت من فم إلى آخر حتى أصبحت حديث القرية كلها.

قال رجل كان يقف أمام أحد الدكاكين وهو يخفض صوته، كأنه يحمل سراً خطيراً:

- هل سمعتم ما يريد عامر فعله؟

التفت إليه رجلان كانا يتبادلان الحديث، واقترب منهما آخر يحمل كيساً من الخضروات.

- ماذا يريد أن يفعل؟

سأله أحدهما.

تظاهر الرجل بالتردد، ثم نظر حوله قبل أن يقول:

- يقولون إنه يريد إغلاق الزوايا القديمة، ومنع الناس من زيارة قبور أقاربهم، بل يريد إجبار الجميع على التخلي عن تقاليدهم!

ساد الصمت لحظات، ثم ارتفعت الأصوات.

- إغلاق الزوايا؟!

- ومن أعطاه الحق في منع الناس من زيارة موتاهم؟

- يبدو أن دراسته في المدينة جعلته ينظر إلى أهل القرية باحتقار!

لم يسأل أحد عن مصدر الخبر، ولم يفكر أحد في الذهاب إلى عامر للتأكد من صحته. كان الخبر صادماً بما يكفي ليجد طريقه إلى العقول قبل أن يجد طريقه إلى الحقيقة.

وفي أقل من ساعة، تجاوزت الشائعة حدود السوق، وانتقلت إلى الأزقة والبيوت والمقاهي، ووصلت إلى النساء اللواتي كن يتجمعن أمام الأبواب، وإلى الرجال الذين اعتادوا الجلوس تحت الأشجار العتيقة في ساحة القرية.

وفي كل مرة كانت الشائعة تنتقل فيها، كانت تكتسب تفصيلاً جديداً .

قال أحدهم إن عامر يريد هدم الزوايا القديمة.

وأضاف آخر أنه يخطط لمنع الناس من إقامة عاداتهم الموروثة.

أما ثالث، فقد أقسم أنه سمع بأذنيه أن عامر يريد تغيير دين القرية كله !

وهكذا، تحولت عبارة لم يقلها عامر قط إلى اتهام خطير، وتحولت مناقشاته الثقافية إلى معركة وهمية لم يخضها.

في أحد البيوت القريبة من ساحة القرية، كانت أم الخير تجلس مع عدد من النساء حين دخلت امرأة مسرعة، وملامحها توحي بأنها تحمل خبراً لا يحتمل التأجيل.

قالت وهي تلتقط أنفاسها:

- هل سمعتن بما ينوي عامر فعله؟

رفعت أم الخير رأسها.

- وما الأمر هذه المرة؟

جلست المرأة على حافة المقعد، ثم قالت:

- يريد أن يغلق الزوايا ويمنع زيارة القبور!

لم يعد الأمر مجرد كلام، فقد أخبرني أحد أقاربي أن المسألة أصبحت وشيكة.

ضربت امرأة مسنة كفاً بكف، وقالت بانفعال :

- إذا كان هذا صحيحاً، فماذا بقي لنا؟

لقد ورثنا هذه العادات عن آبائنا وأجدادنا !

حاولت امرأة أخرى أن تبدو أكثر هدوءاً :

- لكن هل سمعتم هذا الكلام من عامر نفسه؟ تبادلت النساء النظرات.

لم تجب إحداهن.

ثم قالت صاحبة الخبر بسرعة :

- لا أعرف إن كان قد قاله بنفسه، لكن الناس كلهم يتحدثون عنه!

كان ذلك كافياً لإنهاء النقاش. فالناس، في نظر بعض أهل «عين النسر»، لم يكونوا بحاجة إلى دليل ما داموا يستطيعون الاستشهاد بالناس أنفسهم.

وفي بيت آخر، كان سالم يسمع رجلين يتحدثان عن عامر. شعر بالضيق، فقد بدأ يلاحظ أن أهل القرية يطلقون الأحكام على الآخرين بسهولة، ثم يتصرفون وكأن أحكامهم حقائق لا تقبل النقاش.

قال لأحدهما:

- هل تحدثتم معه قبل أن تصدقوا هذا الكلام؟

نظر الرجل إليه باستغراب.

- وهل نحتاج إلى الحديث معه حتى نعرف ما يخطط له؟

أجابه سالم بهدوء:

- إذا لم نتحدث معه، فكيف سنعرف ما يفكر فيه؟ قطب الرجل حاجبيه، ثم قال ساخطاً:

- يبدو أنك أصبحت تدافع عنه أيضاً!

غادر سالم المكان دون أن يجيب. كان قد أدرك أن السؤال في «عين النسر» قد يصبح تهمة، وأن من يطلب الدليل قد يجد نفسه متهماً بالدفاع عن الباطل.

وصلت الشائعة إلى عامر في وقت الظهيرة.

كان يجلس في المركز الثقافي، يراجع بعض الأوراق المتعلقة بنشاط جديد يعتزم تنظيمه، حين دخل صديقه مسرعاً وأغلق الباب خلفه.

قال الصديق:

- هل سمعت بما يتحدث عنه الناس؟

رفع عامر عينيه عن الأوراق.

أي حديث؟

تردد صديقه قليلاً، ثم قال:

- انتشرت شائعة تقول إنك تريد إغلاق الزوايا القديمة ومنع زيارة القبور وإجبار الناس على التخلي عن تقاليدهم.

تجمدت ملامح عامر للحظة.

ماذا قلت؟

- هذا ما يتناقله الناس في السوق والبيوت. وهناك من يقول إنك تريد تغيير دين القرية!

نهض عامر من مقعده دفعة واحدة، فاصطدمت ساقه بالطاولة، وسقطت بعض الأوراق على الأرض.

قال بغضب:

- تغيير دين القرية؟! من أين جاءوا بهذا الكلام؟ ومتى دعوت إلى إغلاق زاوية واحدة؟ ومتى قلت إن الناس يجب أن يتخلوا عن تقاليدهم؟

حاول صديقه تهدئته :

- أعرف أنك لم تقل ذلك، لكن الشائعة انتشرت، والناس يتحدثون عنها وكأنهم سمعوا الكلام منك مباشرة.

راح عامر يمشي في الغرفة ذهاباً وإياباً. لم يكن غضبه نابعاً من الإساءة الشخصية وحدها، بل من شيء أعمق؛ فقد قضى أسابيع يحاول إقناع أهل القرية بأن السؤال ليس جريمة، وأن الاختلاف في الرأي لا يعني العداء، وأن التفكير لا يتعارض مع احترام الناس ومعتقداتهم.

والآن، جاءته الشائعة لتضعه في صورة عدو لكل ما يحبه أهل القرية ويحترمونه.

توقف أمام النافذة، ونظر إلى الطريق الذي يمر أمام المركز الثقافي. رأى رجلين يتحدثان بالقرب من الباب، وحين لمحاه خفض أحدهما صوته، بينما ابتعد الآخر بخطوات سريعة.

التفت إلى صديقه وقال بمرارة :

- لقد سبقوا الحقيقة هذه المرة، يا صديقي. لم ينتظروا حتى يعرفوا ما قلت، بل قرروا أولاً ما أريد فعله، ثم اخترعوا لي كلاماً لم أنطق به.

اقترب منه صديقه وقال:

- وما الذي ستفعله؟ هل ستخرج إلى السوق وتواجههم؟ ظل عامر صامتاً لحظات، ثم التقط الأوراق المبعثرة عن الأرض ورتبها بعناية.

قال بصوت أكثر هدوءاً:

- ليس كل قديم باطلاً، وليس كل جديد صحيحاً. أنا لم أطلب من أحد أن يهدم ماضيه، ولم أقل إن احترام الأموات خطأ. ما أرفضه هو أن يتحول الخوف إلى تجارة، وأن يصبح الجهل وسيلة للسيطرة على عقول الناس.

ثم أضاف:

- هناك فرق بين أن يحترم الإنسان موتاه، وبين أن يستغل أحد خوفه وحزنه ليبتزّه. وهناك فرق بين العادات الاجتماعية التي تجمع الناس ولا تؤذي أحداً، وبين ممارسات قد تضر بصحتهم أو تمنعهم من طلب العلاج. لماذا يصرون على محو هذه الفروق كلها؟

لم يجد صديقه جواباً.

كان يعرف أن المشكلة لم تعد في الشائعة وحدها، بل في الأرض التي وجدت فيها الشائعة مكاناً مناسباً لتنمو.

في المساء، جلس عامر وحده في المركز الثقافي، وأمامه ورقة بيضاء.

كان يستطيع أن يكتب بياناً يرد فيه على الاتهامات، وأن يوزعه على أهل القرية. وكان يستطيع أيضاً أن يذهب إلى السوق ويواجه الذين نشروا الشائعة، واحداً بعد آخر.

لكنه أدرك أن ذلك قد يزيد الأمر تعقيداً. فمن صدقوا الشائعة دون دليل، ربما لن يقتنعوا ببيان مكتوب، ومن اتهموه بأنه يريد تغيير دين القرية قد يفسرون دفاعه عن نفسه على أنه محاولة لإخفاء الحقيقة.

لذلك قرر أن يفعل شيئاً مختلفاً .

كتب في أعلى الورقة:

«لقاء مفتوح لأهالي «عين النسر»: الحقيقة قبل الحكم»

ثم كتب تحت العنوان:

«دعوة إلى كل من سمع كلاماً عن عامر أو عن المركز الثقافي، وإلى كل من يريد أن يعرف الحقيقة بنفسه. لا أسماء ممنوعة، ولا أسئلة محرمة، ولا اتهامات بلا دليل. الحضور متاح للجميع.»

تأمل الورقة قليلاً، ثم ابتسم ابتسامة خفيفة.

لم يكن متأكداً من أن أحداً سيحضر، لكنه كان مقتنعاً بأن الصمت سيمنح الشائعة فرصة أكبر للانتشار.

في صباح اليوم التالي، علّق الإعلان على باب المركز الثقافي، وطلب من بعض الشبان أن يخبروا أهل القرية بموعد اللقاء.

غير أن ردود الفعل لم تكن كما توقع.

قرأ رجل الإعلان، ثم قال ساخراً :

- يريد أن يدافع عن نفسه بعدما انكشف أمره !

ورد آخر :

- لا تذهبوا. ربما يريد إقناعكم بأفكاره الجديدة !

أما أحد الذين ساهموا في نشر الشائعة، فقد نظر إلى الإعلان طويلاً، ثم مزقه بيده قبل أن يبتعد مسرعاً .

لكن صبياً كان يراقبه من زاوية الطريق رأى ما حدث، وحفظ وجه الرجل جيداً .

لم يذهب الصبي إلى عامر ليخبره، فقد كان يخشى أن يتورط في مشكلة، لكنه ظل يتساءل في نفسه: لماذا يمزق رجل إعلاناً يدعو الناس إلى معرفة الحقيقة، إذا كان واثقاً من صحة ما يقوله؟

حل المساء، وبدأت الرياح تحرك أغصان الأشجار المحيطة بالمركز الثقافي.

فتح عامر الأبواب، ورتب المقاعد بنفسه. وضع بعض الأوراق على الطاولة، وأحضر إبريقاً من الماء، ثم وقف عند المدخل ينتظر.

مرت الدقائق بطيئة.

الخامسة مساءً.

ثم الخامسة والنصف.

وبعدها اقترب موعد اللقاء، ولم يدخل سوى رجل مسن وشابان وامرأة جلست في آخر القاعة.

نظر عامر إلى المقاعد الفارغة، وشعر بوخزة من خيبة الأمل. كان قد توقع حضور عدد أكبر، ولو بدافع الفضول، لكنه وجد القاعة شبه خالية.

قال صديقه، الذي وقف بجانبه :

- يبدو أنهم لن يأتوا.

أجابه عامر وهو ينظر إلى الباب :

- ربما يخشون أن يسمعوا شيئاً يخالف ما صدقوه، وربما يخافون من كلام الآخرين أكثر مما يخافون من الحقيقة.

ثم أضاف :

- لا بأس. سنبدأ بمن حضر.

أغلق الباب نصف إغلاق، وتقدم إلى مقدمة القاعة. لم يستخدم مكبر الصوت، ولم يرفع صوته. نظر إلى الحاضرين واحداً بعد آخر، ثم بدأ كلامه.

- أشكركم على حضوركم. أعرف أن بعضكم جاء بدافع الفضول، وربما جاء آخرون لأنهم يريدون أن يعرفوا إن كنت فعلاً أنوي إغلاق الزوايا القديمة ومنع زيارة القبور.

توقف قليلاً، ثم تابع:

- أريد أن أقول لكم شيئاً واضحاً: لم أدعُ إلى إغلاق الزوايا، ولم أطالب بمنع الناس من زيارة قبور أقاربهم، ولم أطلب من أحد أن يتخلى عن عاداته الاجتماعية. ومن لديه دليل على أنني قلت ذلك، فليتفضل ويضعه أمامنا جميعاً.

ساد الصمت.

رفع الرجل المسن رأسه، ثم سأل:

- ولكنك تتحدث دائماً عن الخرافات، وتنتقد بعض ما يفعله الناس. أليس هذا بداية للتغيير الذي يتحدثون عنه؟

لم يغضب عامر، بل اقترب من الرجل وقال:

- من حقك أن تسأل، ومن حقي أن أوضح. أنا لا أطلب من الناس أن يتركوا عاداتهم لمجرد أنني لا أمارسها. ولا أرى أن كل ما ورثناه عن أجدادنا سيئ. بالعكس، في تراثنا أشياء جميلة تستحق أن نحافظ عليها وننقلها إلى أبنائنا.

ثم جلس على حافة الطاولة وتابع:

- لكن هل يعني احترام التراث أن نمنع أنفسنا من التفكير؟ إذا كانت هناك عادة تجمع العائلة وتزرع المحبة بين الناس، فلماذا نحاربها؟ وإذا كانت هناك ممارسة تعرض مريضاً للخطر أو تدفع أسرة إلى ترك العلاج الضروري، أليس من واجبنا أن نناقشها؟

قال الشاب الذي كان يجلس في الصف الثاني:

- وماذا عن زيارة القبور؟

أجابه عامر:

- لم أطلب منع أحد من زيارة قبر قريب له. الحزن على الميت أمر إنساني، والوفاء له لا يحتاج إلى أن نتخلى عن عقولنا. ما أطلبه هو أن نفرق بين الوفاء والمحبة من جهة، وبين استغلال الحزن والخوف من جهة أخرى.

رفعت المرأة الجالسة في آخر القاعة يدها بتردد.

- يقولون إنك تريد تغيير دين القرية.

نظر إليها عامر طويلاً، ثم قال:

- ومن هم الذين يقولون؟ وهل سألني أحد منهم مباشرة؟ هل جلس أحدهم معي وطلب مني أن أوضح موقفي؟ أم أن الناس اكتفوا بنقل الكلام بعضهم عن بعض حتى صار الاتهام حقيقة في أعينهم؟

لم تجب المرأة.

شعر الحاضرون أن السؤال لا يخص عامر وحده، بل يخصهم هم أيضاً.

فكم مرة سمعوا خبراً عن شخص، فصدقوه قبل أن يسألوه؟ وكم مرة نقلوا كلاماً لم يتأكدوا منه، ثم شاركوا من حيث لا يشعرون في ظلم إنسان بريء؟

تابع عامر بصوت هادئ:

- لا أطلب من أحد أن يصدقني لمجرد أنني أقف أمامكم. أنا لا أريد منكم أن تستبدلوا ثقتكم العمياء بالآخرين بثقة عمياء بي. أريد منكم شيئاً واحداً: تحققوا من كل ما سمعتموه عني، كما يجب أن تتحققوا من كل ما تسمعونه عن أي إنسان.

ثم أشار إلى الورقة كانت معلقة على الحائط وقال:

- إذا كنت مخطئاً، ناقشوني. وإذا كان لديكم دليل على خطئي، قدموه. لكن لا تحاكموني إلى كلام لم أقله، ولا تجعلوا الشائعة بديلاً عن الحقيقة.

ساد الصمت مرة أخرى، لكنه كان مختلفاً هذه المرة.

لم يكن صمت الخوف، بل صمت أناس بدأوا يراجعون ما سمعوه.

وفجأة، انفتح الباب.

التفت الجميع نحو المدخل، فظهر رجل بدا عليه الارتباك. كان يتلفت خلفه، وكأنه يخشى أن يراه أحد وهو يدخل.

تقدم خطوتين، ثم توقف.

قال عامر :

- تفضل، اجلس. الباب مفتوح للجميع .لم يجلس الرجل.

ظل واقفاً، يضغط بيده على طرف معطفه، ثم قال بصوت متردد :

- أريد أن أسأل سؤالاً .

أجابه عامر :

- اسأل.

ابتلع الرجل ريقه، ونظر إلى الحاضرين قبل أن يتكلم :

-إذا كنت لا تريد إغلاق الزوايا، ولا منع زيارة القبور، فمن أين جاءت هذه الأخبار كلها؟

كان السؤال الذي انتظره عامر، لكنه لم يكن يملك جواباً مؤكداً عنه.

قال:

- هذا ما أريد أن أعرفه أنا أيضاً. الشائعة لا تولد دائماً من فراغ؛ أحياناً يطلقها شخص يريد أن يخيف الناس، وأحياناً ينقلها آخر دون أن يفكر، ثم يصدقها ثالث لأنه سمعها من

شخص يثق به. لكن معرفة مصدرها لا تبدأ باتهام عشوائي، بل بتتبع الكلام والسؤال عن الدليل.

هز الرجل رأسه ببطء، ثم قال:

- سمعت الخبر من رجل في السوق، وقد أقسم أنه يعرف أشخاصاً سمعوا كلامك.

سأله عامر:

- وهل ذكر أسماءهم؟

- لا.

- وهل أخبرك متى قلت ذلك الكلام؟

تردد الرجل.

- لا.

- وهل قال إنه سمعه مني مباشرة؟

خفض الرجل عينيه.

- لا.

قال عامر بهدوء:

- إذن، ما الذي نملكه؟ سلسلة من الكلام، تبدأ بشخص مجهول وتنتهي باتهام خطير. أهذا يكفي كي نحكم على إنسان؟

لم يرد الرجل.

ثم تقدم إلى أحد المقاعد وجلس، وكأنه يشعر للمرة الأولى بثقل ما شارك في نقله.

انتهى اللقاء بعد ساعة، ولم يتحول الحاضرون فجأة إلى أنصار لعامر، ولم تختفِ الشائعة من القرية في ليلة واحدة. لكن شيئاً صغيراً بدأ يتغير.

خرج الرجل المسن وهو يقول لصاحبه :

- ربما كنا نستعجل الحكم على هذا الشاب.

أما المرأة، فقد قررت أن تسأل بنفسها قبل أن تنقل أي خبر جديد. والشاب الذي طرح سؤالاً عن زيارة القبور ظل يفكر في الفرق بين احترام العادات والخوف من مناقشتها.

ومع ذلك، لم يكن الجميع مستعداً للتراجع.

في أحد أركان السوق، اجتمع ثلاثة رجال ممن ساهموا في نشر الشائعة. كان أحدهم غاضباً لأن اللقاء لم ينتهِ كما توقع، بينما ظل الثاني صامتاً، أما الثالث فراح يراقب الطريق المؤدي إلى المركز الثقافي.

قال الأول :

- لقد بدأ يشكك الناس في الكلام الذي سمعوه !

رد الثاني :

- لكنه لم يطلب منهم التخلي عن تقاليدهم. لقد قال ذلك أمام الجميع.

قاطعه الأول بحدة :

- وهل ستصدقه الآن؟ إنه يعرف كيف يتحدث !

ثم اقترب منهم رجل رابع، وانحنى قليلاً قبل أن يهمس:

- إذا استمر هذا الشاب في جمع الناس حوله، فلن يصدقوا كل ما نقوله بعد اليوم.

تبادل الثلاثة النظرات.

لم يكن خوفهم الحقيقي من إغلاق الزوايا، ولا من منع زيارة القبور؛ فهذه أمور لم يثبت أن عامر دعا إليها أصلاً.

كان ما يخيفهم شيئاً آخر: أن يتعلم أهل «عين النسر» السؤال، وأن يطالبوا بالدليل، وأن يكتشفوا أن بعض ما اعتادوا تصديقه لم يكن سوى كلام متوارث بلا برهان.

قال الرجل الأول بصوت منخفض:

- يجب أن نفعل شيئاً قبل أن تتغير عقول الناس.

ثم انصرفوا في اتجاهات مختلفة، لكنهم لم ينتبهوا إلى أن شاباً كان يجلس بالقرب منهم قد سمع جزءاً من حديثهم.

ظل الشاب في مكانه لحظات، ثم نهض ومضى نحو المركز الثقافي. كان يحمل خبراً لم يكن عامر يعرفه بعد.

في تلك الليلة، عاد عامر إلى بيته متعباً، لكنه لم يشعر بالهزيمة. كان يدرك أن اللقاء لم ينهِ المعركة، وأن الشائعة قد تعود بأسماء جديدة وتفاصيل أكثر خطورة.

جلست أمه أمامه وسألته:

- هل اقتنع الناس بكلامك؟

ابتسم ابتسامة متعبة وقال :

- بعضهم بدأ يسأل، وهذا يكفيني الآن .

قالت أمه :

- لكن الذين يكرهونك لن يتوقفوا عن الكلام .

أجابها :

- لا أستطيع أن أمنع الناس من الكلام، لكنني أستطيع أن أطالبهم بالدليل. المشكلة ليست في أن يختلف معي أحد، بل في أن يتهمني بما لم أقله، ثم يرفض أن يسمعني .

نظرت إليه أمه بعطف وقالت :

- احذر يا بني. ليس كل من يسمع الحقيقة مستعداً لقبولها .

أطرق عامر رأسه، وتذكر وجوه الحاضرين، والمقاعد الفارغة، والرجل الذي دخل خائفاً ثم جلس صامتاً. وتذكر أيضاً أولئك الذين مزقوا الإعلان، والذين فضّلوا تصديق اتهام مجهول على سماع كلمة واحدة منه.

قال في نفسه إن الحقيقة لا تنتصر دائماً في اللحظة التي تظهر فيها، وإن العقل الذي تعود الخوف يحتاج إلى وقت طويل كي يتعلم التحرر منه.

لكن ما لم يكن يعرفه هو أن الشائعة لم تكن مجرد كلام عابر، وأن بعض الذين أشعلوها لم يفعلوا ذلك دفاعاً عن العادات أو خوفاً على الدين كما زعموا.

كان وراءها من يخشى أن تنكشف أسرار قديمة، وأن يفقد نفوذاً بناه على خوف الناس وثقتهم العمياء.

وفي مكان آخر من القرية، جلس أحد أولئك الرجال تحت ضوء مصباح ضعيف، وأخرج هاتفه من جيبه. فتح رسالة قديمة، وقرأها مرتين، ثم كتب رسالة جديدة إلى رقم لم يكن مسجلاً باسمه.

لم تتجاوز الرسالة سطراً واحداً:

« عامر بدأ يقترب من الحقيقة. يجب أن نوقفه قبل أن يصل إلى الأسماء »

ضغط زر الإرسال، ثم أغلق الهاتف بسرعة.

وفي الخارج، كانت الرياح تصفر بين الأزقة، بينما ظل المركز الثقافي غارقاً في الظلام.

لم يكن عامر يعلم أن الشائعة التي اتهمته بمحاربة تقاليد القرية قد قادته، دون أن يدري، إلى بداية خيط أخطر بكثير من مجرد كذبة.

فقد بدأت الحقيقة تتحرك.

وكان هناك من يخشى وصولها أكثر مما يخشى انتشار الشائعات.

وللمرة الأولى، لم يعد السؤال في «عين النسر»:

هل يريد عامر تغيير القرية؟

بل أصبح السؤال الذي يخشاه البعض:

من الذي يريد إبقاء القرية خائفة من الحقيقة؟

الفصل الثاني عشر:
ليلة الحريق

لم تكن «عين النسر»، تلك القرية التي اعتادت أن تنام باكرًا وتستيقظ على أصوات الديكة وخطوات الفلاحين المتجهين إلى حقولهم، تعلم أن ليلتها القادمة ستترك في ذاكرتها جرحًا لن يندمل بسهولة.

كان الليل هادئًا على غير العادة. غابت الأصوات من الأزقة الضيقة، وأغلقت الأبواب، وانطفأت المصابيح واحدًا بعد آخر، بينما ظل المركز الثقافي قائمًا في طرف الساحة كمنارة صغيرة تقاوم ظلامًا أكبر منها.

في ذلك المبنى القديم، الذي كان يومًا مدرسة مهجورة، بدأ عامر حلمه بإعادة الحياة إلى مكان نسيه الجميع. حوّل حجراته المتصدعة إلى فضاءات للقراءة والنقاش، وجمع فيه الكتب والقصص والمراجع، وفتح أبوابه للشباب الذين لم يجدوا مكانًا يطرحون فيه أسئلتهم بحرية.

لم يكن المركز مجرد جدران ورفوف؛ كان بالنسبة إلى عامر بداية معركة طويلة ضد الجهل والخرافة والخوف. لكن هناك من لم يكن سعيدًا بما يحدث خلف تلك الأبواب. كان بعضهم يرى في الكتب خطرًا، وفي الأسئلة تمردًا، وفي كل شاب يتعلم كيف يفكر تهديدًا لسلطة اعتاد أن يمارسها على عقول الآخرين.

ولم يكن عامر يعلم أن تلك الليلة ستضعه أمام اختبار لم يخطر له على بال.

1- صرخة في قلب الليل

بعد منتصف الليل بقليل، تسللت رائحة غريبة إلى أحد البيوت القريبة من المركز الثقافي.

استيقظت امرأة مسنة من نومها، جلست على فراشها، ثم راحت تشم الهواء في حيرة.

قالت وهي توقظ زوجها:

- هل تشم هذه الرائحة؟ كأن شيئًا يحترق! فتح الرجل عينيه بصعوبة، ثم نهض متثاقلًا واتجه نحو النافذة. وما إن أزاح الستار حتى تجمد في مكانه.

كان خيط من الدخان الأسود يتصاعد من نوافذ المركز الثقافي، تتخلله ألسنة نار برتقالية راحت تكبر شيئًا فشيئًا.

صرخ بأعلى صوته:

- النار! المركز الثقافي يحترق!

انطلقت الصرخة في الأزقة كطلقة اخترقت سكون الليل.

فتحت الأبواب بعنف، وخرج الرجال والنساء في ملابس النوم، يحمل بعضهم دلاء الماء، بينما اكتفى آخرون بالوقوف

مذهولين وهم يشيرون إلى النيران التي بدأت تلتهم النوافذ الخشبية.

ركض شاب نحو المبنى، يتبعه رجلان يحملان أوعية مملوءة بالماء. صاح أحدهم:

- أسرعوا! يجب أن نوقف النار قبل أن تصل إلى بقية الغرف!

لكن الدخان كان كثيفًا، والحرارة المنبعثة من المدخل جعلت الاقتراب منه مغامرة خطيرة.

حاول رجل دفع الباب، غير أن موجة من الدخان الساخن اندفعت في وجهه، فتراجع وهو يسعل.

قال آخر:

- ابتعدوا! لا تدخلوا، فقد ينهار السقف!

وفي تلك اللحظة، كان أحد الجيران يتصل بالحماية المدنية، بينما راح آخرون ينقلون الماء من البيوت القريبة.

وسط الفوضى، وقف رجل في الخمسين من عمره يراقب المشهد بوجه جامد، ثم تمتم:

- قلت لكم إن هذا المكان لن يجلب للقرية إلا المتاعب.

التفت إليه شاب كان يحمل دلوًا، وصاح غاضبًا:

- أليس هذا وقتًا لإطفاء النار بدل إطلاق الأحكام؟

لم يجبه الرجل، بل أشاح بوجهه ومضى نحو مجموعة أخرى من المتفرجين.

أما النيران، فلم تكن تنتظر أحدًا.
كانت تلتهم كل ما تجده أمامها.

2- عامر أمام رماد أحلامه

كان عامر في بيته حين رن هاتفه بعنف.
انتفض من مكانه، وأمسك الهاتف بيد مرتجفة.
جاءه صوت صديقه مرتبكًا:
- عامر! انهض بسرعة! المركز الثقافي يحترق !

لم يسأل عامر عن السبب، ولم ينتظر أن يسمع بقية الكلام. ارتدى ملابسه على عجل وخرج مسرعًا، بينما كانت الكلمات تتردد في رأسه كأنها صدى كابوس.
المركز يحترق ! لم يكن يستطيع أن يتخيل المشهد.
كيف يمكن للنار أن تلتهم في دقائق ما جمعه خلال سنوات؟
تذكر أول كتاب وضعه على رف المكتبة، وأول طفل دخل المركز مترددًا ثم غادره مبتسمًا، وأول نقاش جمع فيه شباب القرية حول سؤال بسيط: كيف نعرف أن ما نسمعه صحيح؟
تذكر عائشة وهي ترتب الكتب بعناية، وسالم وهو يساعده في نقل الطاولات، والوجوه التي أضاءتها الدهشة حين اكتشف أصحابها أن التفكير ليس جريمة، وأن السؤال ليس عيبًا.
كان يركض في الطريق المظلم، يتعثر بالحجارة، ولا يشعر بالألم.

وعندما وصل إلى الساحة، رأى المشهد الذي سيظل محفورًا في ذاكرته طويلًا.

كانت النيران قد التهمت جزءًا من المركز، والدخان يخرج من النوافذ كأنه سحابة سوداء تحجب السماء.

توقف عامر فجأة.

لم يتحرك. لم يتكلم. ظل ينظر إلى المبنى الذي بذل فيه من وقته وجهده وأمله ما لم يبذله في أي مكان آخر.

صرخ أحدهم:

- عامر! ابتعد! لا تقترب !

لكنه لم يسمع. تقدم خطوات قليلة، فرأى من خلال إحدى النوافذ رفوفًا مشتعلة، تتساقط منها الكتب بعد أن تحولت صفحاتها إلى أجنحة سوداء تتطاير في الهواء. كتاب وراء كتاب. حلم وراء حلم.

مد يده إلى رأسه، وتمتم بصوت لم يسمعه أحد :

- لماذا؟ ماذا فعلت هذه الكتب؟

لم يكن السؤال موجهًا إلى الحاضرين وحدهم، بل إلى القرية كلها، إلى ذلك الصمت الطويل الذي أحاط بها، وإلى العقول التي تعودت تصديق الحكايات قبل البحث عن أصحابها.

اقترب منه صديقه ووضع يده على كتفه.

قال بحزن:

- سنعيد بناءه يا عامر. لا تحزن.

نظر إليه عامر بعينين حمراوين من الدخان والدموع.

- هل تعتقد أن الأمر يتعلق بالجدران فقط؟

صمت صديقه.

تابع عامر وهو يشير إلى النافذة المشتعلة:

- هنا تعلم طفل أن يسأل. وهنا اكتشفت عائشة أنها تستطيع أن تحلم بمستقبل آخر. وهنا جلس رجال لم يتفقوا يومًا، لكنهم تعلموا أن يختلفوا دون أن يتحولوا إلى أعداء. إنهم لا يحرقون الكتب وحدها... إنهم يحاولون إحراق كل ما بدأ يتحرك في هذه القرية.

لم يجد صديقه جوابًا.

وفي تلك اللحظة، سقط رف كامل داخل المكتبة، فارتفع لهيب مفاجئ جعل الواقفين يتراجعون.

أغمض عامر عينيه.

كان صوت انهيار الرف أشبه بصوت باب يغلق على مرحلة كاملة من حياته.

3- عائشة والدفاتر الزرقاء

بينما كان الجميع منشغلين بإخماد النار، وصلت عائشة إلى الساحة وهي تلهث.

كانت قد سمعت الخبر من إحدى جاراتها، فلم تفكر في شيء سوى المركز الثقافي.

حين رأت الدخان، وضعت يدها على فمها.

- يا إلهي!

بحثت بعينيها عن عامر حتى لمحته واقفًا قرب المدخل، شاحب الوجه، عاجزًا عن الكلام.

ركضت نحوه.

- عامر! ماذا حدث؟

أجابها دون أن يرفع عينيه:

- لا أعرف.

نظرت إلى النيران، ثم إلى النافذة الخلفية التي لم تكن النار قد وصلت إليها بعد.

وفجأة تذكرت الغرفة الصغيرة الموجودة في آخر الممر، حيث كانوا يحتفظون ببعض الدفاتر والمخطوطات والوثائق التي جمعها المركز.

كانت هناك دفاتر كتب فيها الطلاب أفكارهم، ورسائل قديمة تبرع بها أحد سكان القرية، وملاحظات سجلها عامر خلال لقاءاته مع الناس.

ومن بينها دفتر أزرق احتفظت فيه عائشة بأفكارها وأسئلتها، بعد أن شجعها عامر على ألا تخجل من الكتابة.

قالت بصوت مرتجف:

- هناك دفاتر في الغرفة الخلفية ! أمسك عامر بذراعها بسرعة .

- لا تفكري في الدخول! المكان خطير !

لكن عائشة لم تكن تنظر إليه. كانت تحدق في النافذة الخلفية، حيث ظهر ضوء خافت يتراقص على الجدار.

قالت بإصرار:

- لن أتركها تحترق إن كان بالإمكان إنقاذها.

صرخ عامر :

- عائشة، عودي إلى الوراء !

غير أنها كانت قد اتجهت نحو الجانب الخلفي من المبنى، حيث وجدوا بابًا صغيرًا يؤدي إلى الغرفة.

لحق بها شابان، بينما بقي عامر قرب المدخل يصرخ محذرًا إياهم.

لم يكن الطريق آمنًا، لكن الغرفة الخلفية لم تكن قد اشتعلت بالكامل. تسلل الدخان إلى داخلها، وبدأت الحرارة ترتفع بسرعة.

دخلت عائشة وهي تحمي وجهها بقطعة قماش، وأخذت تجمع الدفاتر من فوق الطاولة وتضعها في كيس قديم.

وجدت دفترًا، ثم آخر، ثم مجموعة أوراق مربوطة بخيط.

وفجأة، سمعت صوتًا خلفها.

صوتًا خافتًا، لكنه واضح بما يكفي ليجعل قلبها يتوقف لحظة.

- هل وجدتِه؟

استدارت بسرعة.

لم يكن أحد خلفها.

نظرت إلى الباب، ثم إلى النافذة الصغيرة.

من هناك؟

لم يجبها أحد.

في الخارج، تعالت أصوات الرجال، وسمعت عامر ينادي اسمها.

حملت ما استطاعت من الدفاتر واتجهت إلى الباب، لكن شيئًا لفت انتباهها قرب الخزانة القديمة.

كان هناك ظرف بني صغير، نصفه تحت قطعة خشب سقطت من الرف.

انحنت والتقطته.

لم يكن عليه اسم مرسل أو عنوان، وإنما كُتبت عليه عبارة واحدة بخط أسود عريض:

«إلى من يظن أن الحقيقة لا تحترق.»

شعرت بقشعريرة تسري في جسدها.

من وضع الظرف هنا؟

ولماذا بقي بعيدًا عن النار حتى تلك اللحظة؟

مدت يدها لتفتحه، لكن صوتًا قويًا دوّى في الخارج، أعقبه سقوط جزء من السقف.

صرخ أحد الشابين:

- اخرجي الآن! السقف سينهار !

وضعت عائشة الظرف داخل جيبها، وضمت الدفاتر إلى صدرها، ثم خرجت مسرعة.

وبمجرد أن ابتعدت عن الباب، سقط جزء من السقف داخل الغرفة التي غادرتها قبل ثوانٍ.

تراجعت وهي ترتجف، ثم جلست على الأرض غير قادرة على التقاط أنفاسها.

ركض عامر نحوها.

- هل أصابك شيء؟

هزت رأسها.

- لا... أنقذت الدفاتر.

نظرت إليه، ثم أضافت بصوت خافت :

- ووجدت شيئًا آخر.

- ماذا وجدتِ؟

ترددت لحظة، وتحسست الظرف داخل جيبها.

ثم قالت:

- سأخبرك عندما نكون وحدنا.

4- الحريق الذي لم يطفئ الشكوك

بعد دقائق طويلة بدت كأنها ساعات، وصلت الحماية المدنية. اندفع رجال الإطفاء إلى العمل، وامتدت خراطيم المياه نحو المبنى، بينما راح الدخان يتصاعد بكثافة فوق أسطح البيوت المجاورة.

تراجع الأهالي إلى مسافة آمنة، لكن أحدًا لم يغادر الساحة.

كان الجميع يريد أن يعرف ما حدث.

وحين بدأت النيران تخمد، ظهرت آثار الخراب بوضوح.

جزء من السقف صار كومة من الأخشاب المتفحمة، والنوافذ تحطمت، والجدران اسودت، أما المكتبة التي كانت تملأ المكان بالحياة فقد تحولت إلى مشهد من الرماد والزجاج المكسور.

دخل عامر بحذر بعد أن سمح له رجال الحماية المدنية بالاقتراب من الجزء الآمن.

وقف أمام الرفوف المحترقة.

انحنى والتقط كتابًا متفحمًا، لم يبق منه إلا جزء من الغلاف .

مسح عنه الرماد بأصابعه، فتناثر على يده كالغبار.

كان الكتاب من أوائل الكتب التي جمعها للمركز. جلس على ركبتيه، وظل ينظر إليه طويلًا.

لم يبكِ، ولم يصرخ.

كان حزنه أكبر من أن تسمح له الكلمات بالخروج.

اقترب منه رجل من سكان القرية، وقال محاولًا مواساته:

- لا تحزن يا بني، إنها مجرد كتب، ويمكن تعويضها.

رفع عامر رأسه ببطء.

- مجرد كتب؟

أشار إلى الرماد المنتشر حوله.

- هذه الكتب لم تكن أوراقًا فقط. كانت تحمل أفكارًا، وتجارب، وأسئلة، وأحلامًا. قد نعوض الورق، لكن كيف نعوض السنوات التي قضيناها في جمعها؟ وكيف نعوض الثقة التي بدأت تنمو في نفوس الشباب؟

خفض الرجل رأسه، ولم يجد ما يقوله.

وعلى مسافة قريبة، كان آخرون يتحدثون بصوت منخفض.

قال رجل :

- ربما كان السبب تماسًا كهربائيًا. المبنى قديم، وأسلاكه ليست جديدة.

أجابه آخر وهو يهز رأسه:

- تماس كهربائي؟ وهل التماس الكهربائي يختار هذه المكتبة بالذات؟

قال الأول بحدة:

- لا تتحدث فيما لا تعرف. يجب أن ننتظر التحقيق.

تدخل رجل ثالث:

- التحقيق لن يغير شيئًا. هذا الشاب جلب المشكلات إلى القرية منذ عاد من الجامعة. قبل ظهوره كنا نعيش في هدوء.

سمع عامر العبارة، فوقف ونظر إلى الرجل.

- هل تقصد أن تعليم الناس سبب للمشكلات؟

أجابه الرجل متجنبًا النظر إليه:

- أنا لا أتهم أحدًا، لكن بعض الأسئلة لا تجلب إلا الفتن.

قال عامر:

- وهل الصمت يجلب الحقيقة؟

تدخل أحد الحاضرين:

- كفى! ليس هذا وقت الجدال.

لكن عامر لم يكن يريد جدالًا. كان يريد جوابًا واحدًا.

من أشعل النار؟

غير أن السؤال الذي ظل معلقًا في الهواء لم يجد من يجرؤ على الاقتراب منه.

5- الشيخ فاضل يسمع الخبر

في تلك الليلة، لم يكن الشيخ فاضل بعيدًا عما يحدث. وصل إليه الخبر قبل أن يخبره به أحد مباشرة. فقد دخل عليه رجل من أتباعه، وجلس قبالته دون أن يخلع معطفه.

قال الرجل:

هل سمعت بما حدث؟

رفع الشيخ فاضل عينيه عن الكتاب المفتوح أمامه.

- ماذا حدث؟

- المركز الثقافي احترق.

توقف الشيخ عن الحركة.

لم يبدُ عليه الحزن أو الدهشة كما توقع الرجل، بل ظل صامتًا لثوانٍ طويلة، ثم سأل:

هل احترق كله؟

- جزء كبير منه، لكنهم تمكنوا من إخماد النار قبل أن تمتد إلى المباني المجاورة.

أغلق الشيخ الكتاب ببطء.

وماذا عن عامر؟

- وصل إلى المكان، ويبدو أنه فقد معظم مكتبته.

أطرق الشيخ برأسه.

كان الرجل يراقبه باهتمام، ثم قال:

- يظن الناس أن الحريق رسالة له.

رفع الشيخ فاضل رأسه فجأة.

- ومن قال ذلك؟

- الناس يتحدثون. بعضهم يقول إن ما حدث عقاب له لأنه يتدخل فيما لا يعنيه، وبعضهم يقول إن هناك من يريد إسكات صوته.

ضرب الشيخ بأصابعه على ذراع الكرسي.

- الناس يتحدثون كثيرًا. الكلام لا يثبت شيئًا.

ثم نهض وأخذ يسير في الغرفة ذهابًا وإيابًا.

كان يحاول أن يبدو هادئًا، لكن الرجل لاحظ أنه عاد إلى النافذة أكثر من مرة، وكأنه ينتظر شخصًا ما.

قال الرجل:

- هل تعتقد أن عامر سيتوقف الآن؟

توقف الشيخ عند النافذة.

- لا أعرف.

ثم أضاف بعد لحظة:

- بعض الناس تزداد عنادًا عندما يخسرون.

قال الرجل:

- وربما يصبح أكثر إصرارًا على معرفة الحقيقة.

لم يجبه الشيخ.

ظل ينظر إلى الظلام خارج النافذة، بينما راحت فكرة واحدة تدور في رأسه:

- إذا لو لم يكن الحريق نهاية الحكاية، بل بدايتها؟

6- الظرف الذي يحمل السر

مع اقتراب الفجر، عاد عامر إلى منزله برفقة عائشة. كان التعب واضحًا على وجهها، بينما ظل هو صامتًا طوال الطريق. وعندما دخلا غرفة صغيرة في منزل عائلته، أخرجت عائشة الدفاتر التي أنقذتها، ووضعتها فوق الطاولة.

قال عامر :

لقد أنقذتِ شيئًا مهمًا الليلة. لولاك لضاعت هذه الدفاتر أيضًا.

أجابته :

- لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة. عندما رأيت النار، شعرت أن شيئًا من ذاكرتنا يحترق معها. ثم أخرجت الظرف البني من جيبها ووضعته أمامه.

تغير وجه عامر.

- ما هذا؟

- وجدته في الغرفة الخلفية، قرب الخزانة القديمة.

أمسك الظرف بحذر، وقلبه بين يديه.

كانت العبارة المكتوبة عليه واضحة :

«إلى من يظن أن الحقيقة لا تحترق. »

سألها :

- هل فتحته؟

- لا.

تردد عامر قليلًا، ثم شق حافة الظرف. في داخله كانت هناك ورقة مطوية، وصورة صغيرة، ومفتاح معدني قديم.

فتح الورقة أولًا.

لم يكن فيها سوى سطرين :

«ليس كل ما احترق قد ضاع، وليس كل من نجا بريئًا .ابحثوا عمّا أخفاه الجدار الشرقي قبل أن يختفي الشاهد الأخير. »

قرأ عامر العبارة مرة، ثم أعاد قراءتها بصوت منخفض.

نظرت إليه عائشة بقلق.

- أي شاهد يقصد؟ وأي جدار شرقي؟ لم يجبها .أخرج الصورة من الظرف.

كانت صورة قديمة بالأبيض والأسود، يظهر فيها المركز الثقافي قبل سنوات طويلة، حين كان لا يزال مدرسة. وقف أمامه عدد من الرجال، لكن وجوههم لم تكن واضحة تمامًا بسبب تلف الصورة.

في الخلف، قرب الجدار الشرقي، ظهر رجل يحمل صندوقًا خشبيًا صغيرًا. وكان هناك شخص آخر يقف بعيدًا عنه، وقد شُطب وجهه بقلم أسود.

اقتربت عائشة من الصورة.

- انظر إلى هذا الرجل.

قال عامر :

- أي رجل؟

أشارت إلى الشخص الذي شُطب وجهه.

- لماذا شُطب وجهه؟ ومن الذي فعل ذلك؟

قلب عامر الصورة، فوجد كتابة باهتة على ظهرها.

ثلاث كلمات فقط :

«لم يكن حادثًا.»

ساد الصمت في الغرفة.

كان صوت الريح يطرق النافذة، والضوء الأول للفجر يتسلل ببطء إلى المكان.

نظر عامر إلى المفتاح المعدني.

لم يكن يعرف أي باب يفتحه، ولا أين يقع الشيء الذي يشير إليه صاحب الرسالة.

لكنه أدرك أن الحريق قد يكون أخفى شيئًا، أو كشف شيئًا لم يكن أحد يريد له أن يظهر.

قالت عائشة بصوت خافت:

- هل تعتقد أن من أشعل النار ترك لنا هذه الرسالة؟

أجابها عامر:

- لا أستطيع أن أتهم أحدًا دون دليل.

ثم وضع الصورة والرسالة فوق الطاولة.

- لقد تعلمنا أن نبحث عن الحقيقة قبل أن نصدر الأحكام. لن أتخلى عن ذلك الآن، حتى لو كان الأمر يتعلق بمن يريد إسكاتنا.

سألته عائشة:

- وماذا سنفعل؟

رفع عامر عينيه نحو النافذة، حيث بدأت القرية تستيقظ ببطء.

- سنبدأ من الجدار الشرقي...

7- القرية التي رفضت السؤال

مع شروق الشمس، انتشر خبر الحريق في «عين النسر». تجمع الناس في الساحة، وتناقلوا روايات مختلفة عن أسباب ما حدث.

قال بعضهم إن أسلاك الكهرباء القديمة تسببت في الكارثة.

وقال آخرون إن الحريق كان متعمدًا.

أما فريق ثالث، فقد وجد في الحادث فرصة لتجديد اتهاماته لعامر، مدعيًا أن محاولاته لتغيير أفكار الناس هي التي جلبت المصائب إلى القرية.

لم يكن أحد يملك دليلًا قاطعًا.

ومع ذلك، كان كل شخص يتحدث بثقة من يعرف الحقيقة كاملة.

في المقهى، جلس رجلان يتجادلان.

قال الأول :

- لا بد من إجراء تحقيق لمعرفة السبب.

أجابه الثاني :

- وما فائدة التحقيق؟ لقد وقع ما وقع . إذا لم نعرف السبب، فقد يتكرر الحريق . الأفضل أن نترك الأمر للجهات المختصة، وألا نتدخل في أمور لا تخصنا.

كان هذا هو الرد الذي اعتادت القرية سماعه كلما اقترب الحديث من سؤال صعب.

لا تتدخل .لا تسأل.

اترك الأمور كما هي.

لكن الحريق هذه المرة ترك وراءه أثرًا لا يمكن تجاهله.

فقد بدأت الشكوك تتسلل إلى النفوس، وأصبح كل شخص يتساءل في داخله عما إذا كان ما سمعه صحيحًا أم مجرد رواية صنعها الخوف.

وفي منزل الشيخ فاضل، لم يكن الهدوء أقل اضطرابًا.

جلس الشيخ وحده، وأمامه فنجان قهوة برد دون أن يلمسه.

كان يفكر في عامر، وفي الكتب المحترقة، وفي الرسالة التي لم يكن يعلم بوجودها. لم يكن يعرف ما الذي عثرت عليه عائشة في الغرفة الخلفية، لكنه شعر بأن الحريق فتح بابًا كان ينبغي أن يظل مغلقًا. أما عامر، فقد عاد إلى المركز الثقافي في وضح النهار.

وقف أمام المبنى المحترق، ثم سار بمحاذاة الجدار الشرقي، يتفحص الحجارة المتشققة وآثار الدخان.

تذكر العبارة المكتوبة في الرسالة :

ابحثوا عمّا أخفاه الجدار الشرقي قبل أن يختفي الشاهد الأخير.

توقف أمام جزء من الجدار بدا مختلفًا عن بقية أجزائه.

كانت بعض الحجارة أحدث لونًا، وكأنها نُقلت من مكان آخر ثم أعيد تركيبها.

انحنى عامر ولمس إحداها.

كانت هناك فجوة صغيرة بين حجرين.

أدخل إصبعه بحذر، فشعر بشيء صلب خلفهما.

تراجع خطوة، ونظر حوله.

لم يكن في الساحة أحد قريب منه.

أخرج هاتفه واتصل بعائشة.

- تعالي إلى المركز، لكن لا تخبري أحدًا بما وجدناه.

سألته بقلق:

- هل عثرت على شيء؟

أجابها:

- لا أعرف بعد. لكنني أظن أن الحريق لم يكن الشيء الوحيد الذي حدث هنا.

أغلق الهاتف، وعاد ينظر إلى الجدار.

وفي اللحظة التي مد فيها يده نحو الحجر، سمع صوت خطوات خلفه.

استدار بسرعة.

كان رجل يقف على مسافة قصيرة منه، يرتدي معطفًا داكنًا ويضع قبعة تخفي جزءًا من وجهه.

قال عامر:

- من أنت؟ وماذا تريد؟

لم يجب الرجل مباشرة.

نظر إلى الجدار، ثم إلى عامر، وقال بصوت منخفض:

- إذا كنت تريد أن تبقى هذه القرية هادئة، فانْسَ أمر الرسالة.

تجمد عامر في مكانه.

لم يكن قد أخبر أحدًا بوجودها.

كيف عرف هذا الرجل؟ وقبل أن يتمكن من طرح سؤال آخر، استدار الغريب ومضى في الزقاق بسرعة.

ناداه عامر:

- انتظر! من أرسلك؟

لكن الرجل لم يلتفت. ركض عامر خلفه، غير أن الغريب اختفى عند المنعطف، وكأن الأرض ابتلعته.

عاد عامر إلى الجدار، وقلبه يخفق بعنف.

لقد أصبح الأمر أكبر من حريق في مكتبة.

هناك شخص يعرف ما حدث داخل الغرفة الخلفية، وهناك من يخشى أن يكتشف عامر سر الجدار الشرقي.

وللمرة الأولى منذ عاد إلى «عين النسر»، شعر أن الخطر لا يكمن فقط في الأفكار التي يحاول تغييرها، بل في أسرار قديمة دُفنت تحت طبقات من الصمت.

نظر إلى المبنى المحترق، وقال لنفسه:

- قد تحرقون الكتب، وقد تسودّ الجدران، وقد تخيفون الناس، لكنكم لن تستطيعوا منع السؤال إلى الأبد.

ثم مد يده نحو الحجر المختلف.

وفي اللحظة نفسها، سمع من بعيد صوتًا ينادي اسمه.

كان صوت عائشة.

التفت إليها، فرأى وجهها شاحبًا وهي تلوّح بورقة في يدها .

اقتربت منه مسرعة، وقالت وهي تلهث :

- عامر... لقد اكتشفت شيئًا في أحد الدفاتر التي أنقذتها !

أخذ الورقة منها.

كانت صفحة ممزقة من دفتر قديم، كُتبت عليها أسماء عدة أشخاص، وإلى جانب أحد الأسماء رُسمت علامة سوداء.

وفي أسفل الصفحة، ظهرت عبارة قصيرة :

«إذا احترقت المدرسة، فاعلموا أن السر لم يمت.»

رفع عامر رأسه ببطء.

كان الاسم الأول في القائمة هو اسم رجل عرفته القرية جميعًا .

أما الاسم الأخير ...فكان اسمًا لم يتوقع أن يراه أبدًا.

اسمًا جعل عائشة تتراجع خطوة، وجعل عامر يشعر بأن الأرض تميد تحت قدميه.

لم ينطق أي منهما بكلمة.

فقد أدركا أن ليلة الحريق لم تكن مجرد ليلة خسرا فيها مكتبة، بل ربما كانت الليلة التي بدأت فيها حقيقة قديمة بالخروج من قبرها.

وفي «عين النسر»، حيث اعتاد الناس أن يخافوا السؤال، كان هناك من يستعد لفعل أي شيء حتى لا تظهر الإجابة.

الفصل الثالث عشر:

الطبيب الذي عاد إلى قريته

لم تكن عودة الطبيب كمال إلى «عين النسر» حدثًا عاديًا في نظر عامر، فقد كان يعرف أن القرية التي اعتادت أن تفسر أمراضها بالخوف والعين والحسد تحتاج إلى أكثر من طبيب يفتح عيادته ويستقبل المرضى؛ كانت تحتاج إلى من يعيد إلى أهلها الثقة في العلم، ويقنعهم بأن المرض لا يُعالج دائمًا بالتمائم والهمسات الغامضة، بل بالتشخيص الصحيح والدواء المناسب.

وصل كمال إلى القرية في صباح ربيعي هادئ، بعد سنوات طويلة قضاها في المدينة بين الدراسة والتدريب والتخصص. كان يحمل حقيبة صغيرة، وملامحه تجمع بين تعب السفر وفرحة العودة إلى المكان الذي نشأ فيه. مرّ أمام المدرسة القديمة، وتوقف لحظة عند شجرة التوت التي اعتاد الجلوس تحتها في طفولته، ثم تابع طريقه نحو بيت أسرته.

لم يكن كمال غريبًا عن أهل «عين النسر»؛ فقد عرفوه طفلًا هادئًا، مجتهدًا، لا يفارق الكتب. وكان بعض كبار السن يتذكرون كيف كان يرافق والده إلى السوق، بينما كان أقرانه يقضون أوقاتهم في اللعب. لكنهم لم يتوقعوا جميعًا أن يعود يومًا طبيبًا، يحمل في ذاكرته صور القرية القديمة، وفي قلبه رغبة صادقة في خدمة أهلها.

أما عامر، فقد استقبل عودته بفرح كبير.

التقيا مساءً في المركز الثقافي، حيث كان عامر يعمل على تنظيم أنشطة تهدف إلى نشر الوعي ومحاربة الخرافات التي تحولت، مع مرور السنوات، إلى سلطة خفية تتحكم في قرارات بعض الناس.

صافحه عامر بحرارة وقال :

- أخيرًا عدت يا كمال!

لقد طال انتظارنا.

ابتسم كمال وهو يضع حقيبته على الكرسي :

- عدت لأنني شعرت أن القرية التي منحتني طفولتي تستحق أن أرد لها بعض الجميل. تعلمت في المدينة أشياء كثيرة، لكنني لم أنسَ الناس الذين تركتهم هنا، ولا المشكلات التي كانوا يعانون منها.

جلس عامر قبالته، ثم قال :

- ستجد أن القرية تغيرت قليلًا، لكنها ما زالت تعيش تحت تأثير الخوف. هناك من يرفض الذهاب إلى الطبيب لأنه يعتقد أن مرضه سببه العين، وهناك من يوقف علاجه بمجرد أن يسمع كلامًا من مشعوذ. والأسوأ أن بعضهم يخشى أن يعترض، حتى لا يتهمه الآخرون بضعف الإيمان أو معاداة التقاليد.

تنهد كمال وقال :

- لهذا السبب تحديدًا يجب أن نعمل معًا. لن أستطيع تغيير كل شيء في يوم واحد، لكن يمكننا أن نبدأ بخطوة صغيرة.

رفع عامر رأسه باهتمام:

- وما هذه الخطوة؟

أجاب كمال بثقة:

- يوم صحي مجاني في المركز الثقافي. نستقبل فيه الأطفال وكبار السن والمرضى، ونقدم الفحوص الأولية والنصائح الطبية، ونشرح للناس متى ينبغي عليهم زيارة الطبيب، ولماذا لا يجوز إيقاف العلاج دون استشارة المختص.

أشرق وجه عامر، ومد يده مصافحًا صديقه مرة أخرى.

- هذا ما نحتاج إليه بالضبط. سننظم الحملة بالتعاون مع المتطوعين، وسنفتح أبواب المركز للجميع، دون تمييز أو شروط.

انتشر خبر الحملة الصحية في «عين النسر»، وعلقت إعلانات صغيرة على جدران المركز الثقافي، وعلى باب المدرسة القديمة، وبالقرب من المحلات. وجاء في الإعلان دعوة واضحة إلى إحضار الأطفال وكبار السن وكل من يعاني مرضًا أو يحتاج إلى استشارة طبية.

لكن الخبر لم يستقبل بالترحيب نفسه في كل مكان.

في مقهى القرية، جلس رجلان يتحدثان بصوت منخفض.

قال الأول :

- سمعت أن الطبيب كمال سيقيم يومًا للفحص المجاني.

رد الثاني وهو يحرك فنجانه :

- وما حاجتنا إلى ذلك؟ أليس الشيخ فاضل يعرف أمراض الناس وأسبابها؟

نظر إليه الأول بتردد :

- لكن كمال طبيب درس سنوات طويلة، وربما يستطيع مساعدة من لم تتحسن حالتهم.

اقترب منهما رجل ثالث، ثم قال بنبرة ساخرة :

- سنرى كم شخصًا سيذهب إليه. الناس هنا لا يغيرون ما اعتادوا عليه بسهولة.

لم يكن عامر يعلم بما دار في المقهى، لكنه كان يدرك أن الحملة لن تكون مجرد نشاط صحي؛ فقد أصبحت، دون أن يقصد، اختبارًا حقيقيًا لقدرة القرية على التمييز بين ما تعرفه بالدليل وما تتبناه بدافع الخوف.

وفي صباح اليوم المحدد، فتح المركز الثقافي أبوابه منذ الساعات الأولى. رتّب المتطوعون الكراسي، وجهزوا الطاولات، ووضعوا لافتة تحمل عبارة :

«صحتك أمانة، والتشخيص الصحيح بداية العلاج.»

وصل كمال مرتديًا معطفه الطبي الأبيض، وإلى جانبه عامر الذي تولى استقبال الناس وتنظيم دخولهم.

مرت الساعة الأولى بطيئة.

لم يحضر سوى عدد قليل من الأشخاص، معظمهم من كبار السن الذين أقنعهم أبناؤهم بالمجيء. وكان كمال يتفقد الباب بين الحين والآخر، دون أن يخفي قلقه.

قال عامر محاولًا تشجيعه :

- لا تقلق. أحيانًا يحتاج الناس إلى وقت حتى يطمئنوا.

أجابه كمال :

- أنا لا أخشى قلة العدد، بل أخشى أن يبقى المرضى بعيدين عن العلاج لأنهم يعتقدون أن طلب المساعدة الطبية يناقض ما يؤمنون به.

وقبل أن يكمل حديثه، سمعا صوت امرأة عند المدخل تقول بقلق :

- هل الطبيب موجود؟ أرجوكم، ابني لا يتوقف عن السعال.

دخلت المرأة وهي تحمل طفلًا صغيرًا، بدا عليه التعب. كانت تضمه إلى صدرها، وتمسح بيدها على رأسه، فيما ارتسم الخوف على وجهها.

اقترب منها عامر وساعدها على الجلوس، ثم استدعى كمال.

فحص الطبيب الطفل بعناية، واستمع إلى صدره، وطرح على أمه أسئلة عن مدة السعال، وارتفاع الحرارة، وطبيعة نومه، والأدوية التي تناولها.

كانت المرأة تجيب بتردد، وكأنها تخشى أن تقول شيئًا قد يثير استغراب الطبيب.

سألها كمال :

- منذ متى بدأ السعال؟

قالت :

- منذ عدة أيام، لكنه يزداد ليلًا. وقد أعطيته بعض الأعشاب، لكن حالته لم تتحسن.

- هل ارتفعت حرارته؟ وهل يعاني صعوبة في التنفس؟ أجابت عن أسئلته، ثم خفضت صوتها وأضافت :

- في الحقيقة، كنت أظن أن السبب هو العين. أخبرتني إحدى النساء أن ابني أصيب بها، ونصحتني بأن أذهب به إلى شخص يعالج هذه الأمور.

تبادل كمال وعامر نظرة قصيرة، لكن الطبيب لم يبتسم بسخرية، ولم يوبخ المرأة على اعتقادها.

قال بهدوء :

- أفهم أنك خائفة على ابنك، وكل أم تبحث عن وسيلة تحمي بها طفلها. لكن السعال له أسباب متعددة، ولا يمكننا أن

نحدد السبب بمجرد التخمين. علينا أن نفحصه جيدًا، وقد نحتاج إلى تحاليل أو فحوص إضافية حتى نعرف ما يعانيه.

سكتت المرأة لحظة، ثم سألت:

- أتريد أن تقول إن العين ليست السبب؟

أجابها كمال:

- أقول إننا لا نستطيع أن ننسب المرض إلى سبب غيبي ثم نترك الأسباب الطبية المحتملة دون فحص. الإيمان شيء، وإهمال العلاج شيء آخر. واجبنا أن نبحث عن السبب الذي يمكن التحقق منه، وأن نقدم للطفل الرعاية التي يحتاج إليها.

نظرت المرأة إلى ابنها، ثم إلى الطبيب.

- وهل سيتحسن؟

قال كمال:

- سنفعل ما نستطيع لمساعدته، لكن الأهم أن نتبع الخطوات الصحيحة. سأطلب الفحوص اللازمة بحسب حالته، وإذا ظهرت عليه صعوبة في التنفس أو تدهور واضح، فلا تنتظري موعدًا آخر، بل توجهي به إلى الاستعجالات.

أومأت المرأة برأسها، وقد بدا أن شيئًا من القلق بدأ يزول عن وجهها.

وعندما خرجت من غرفة الفحص، التفتت إلى عامر وقالت:

- كنت أظن أن الطبيب سيغضب مني حين أخبره بما اعتقدته، لكنه استمع إليّ ولم يسخر مني.

أجابها عامر:

- نحن لا نريد أن نهين أحدًا بسبب ما يعتقده، بل نريد أن نساعد الناس على معرفة ما ينفعهم وما قد يضرهم.

خرجت المرأة وهي تمسك بيد ابنها، وقد أصبحت تعرف أن الخطوة التالية ليست البحث عن تفسير غامض، بل إجراء الفحوص التي أوصى بها الطبيب.

بعد ذلك، دخل رجل مسن يتكئ على عصاه، وقد تجاوز السبعين من عمره. جلس أمام كمال وهو يتنفس ببطء، ثم أخرج من جيبه ورقة مطوية بعناية.

قال:

- يا بني، أعاني منذ مدة من ارتفاع ضغط الدم. أتناول دواءً وصفه لي طبيب منذ سنوات، لكنني أشعر أحيانًا بالدوار، فقال لي بعض الناس إن عليّ التوقف عنه، لأن جسدي اعتاد عليه.

أخذ كمال الورقة، وراجع أسماء الأدوية والجرعات، ثم قاس ضغطه وسأله عن الأعراض التي يشعر بها.

وبعد أن انتهى من الفحص، قال:

- لا توقف الدواء من تلقاء نفسك يا عم. ارتفاع ضغط الدم قد لا يسبب أعراضًا واضحة دائمًا، لكنه قد يؤدي إلى مضاعفات خطيرة إذا لم تتم السيطرة عليه. والدوار الذي تشعر به يحتاج إلى تقييم، فقد تكون له أسباب متعددة. علينا مراجعة علاجك وقياس الضغط ومتابعة حالتك، وقد تحتاج إلى مراجعة طبيبك لتعديل الجرعة إذا اقتضى الأمر.

هز الرجل رأسه، ثم قال:

- لكن أحدهم أخبرني أن الدواء يضعف الجسم، وأن الأعشاب أفضل منه.

ابتسم كمال ابتسامة هادئة، وقال:

- ليست كل الأعشاب ضارة، وليست كل الأدوية مناسبة لكل شخص، لكن العلاج يجب أن يقوم على معرفة حالة المريض، لا على كلام يتناقله الناس. وبعض الأعشاب قد تتداخل مع الأدوية وتسبب مشكلات. لا تستبدل علاجك بوصفة مجهولة، ولا تغير الجرعة دون استشارة مختص.

ظل الرجل صامتًا لحظات، ثم نظر إلى عامر وقال:

- لقد أمضيت سنوات وأنا أصدق كل ما يقوله الناس، لأنني أخاف أن أكون مقصرًا في حق نفسي. لم يخبرني أحد بهذه الطريقة من قبل.

رد عامر:

- المشكلة ليست في السؤال يا عم، بل في أن نخاف من السؤال حتى عندما يتعلق الأمر بصحتنا.

نهض الرجل ببطء، وشكر الطبيب، ووعده بمتابعة حالته.

وقبل أن يغادر، توقف عند الباب والتفت إلى كمال:

- سأخبر أبنائي بما قلته لي. لعلهم يتوقفون هم أيضًا عن إعطاء النصائح الطبية لكل من يشتكي أمامهم.

ابتسم كمال وقال:

- انصحهم بأن يستشيروا الطبيب، فهذا أفضل ما يمكن أن تقدمه لهم.

ومع اقتراب منتصف النهار، ازدادت حركة الناس داخل المركز الثقافي، وإن بقي عدد الحاضرين أقل مما كان يطمح إليه عامر. جاءت امرأة في منتصف العمر، تحمل ملفًا طبيًا، وجلست أمام كمال وهي تبدو مترددة.

قالت:

- لدي مرض أتابعه منذ مدة، وقد وصف لي الطبيب علاجًا أتناوله بانتظام. لكنني ذهبت مؤخرًا إلى شخص قال إنني لا أحتاج إلى الدواء، وإن عليّ التوقف عنه واتباع وصفته الخاصة.

رفع كمال نظره إليها وسألها:

- هل توقفت عن العلاج بالفعل؟

أجابت بصوت خافت:

- خففت الجرعات في البداية، ثم توقفت منذ أيام. كنت أخشى أن أكون أضر بنفسي إذا واصلت تناوله.

تغيرت ملامح كمال، لكنه حافظ على هدوئه.

- يجب ألا تتوقفي عن علاج موصوف دون الرجوع إلى الطبيب الذي يتابع حالتك. بعض الأدوية قد يكون إيقافها المفاجئ خطرًا، وبعض الأمراض تتفاقم حتى عندما لا يشعر المريض بأعراض واضحة. أحتاج إلى معرفة اسم الدواء وسبب وصفه لك حتى أوجهك إلى الخطوة المناسبة.

أخرجت المرأة أوراقها من الملف، ووضعتها أمامه.

قرأ كمال المعلومات بعناية، ثم أوضح لها ضرورة مراجعة الطبيب المختص في أقرب وقت لتقييم حالتها واستئناف العلاج أو تعديله وفقًا لتوجيهاته.

قالت المرأة وقد غلبها الندم:

- لقد صدقته لأنه تحدث بثقة، وأخبرني أنه يعرف ما لا يعرفه الأطباء.

أجاب كمال:

- الثقة في الكلام لا تجعل الكلام صحيحًا. قد يتحدث الإنسان بثقة كبيرة وهو لا يملك دليلًا، وقد يعترف الطبيب بأنه يحتاج إلى فحص إضافي لأنه لا يريد أن يخدع مريضه بتشخيص

متسرع. الفرق أن الطبيب الجاد يبحث عن الحقيقة، حتى لو اضطر إلى القول: لا أعرف بعد.

كان عامر يستمع إلى الحوار من قرب، وشعر أن كلمات كمال تتجاوز حدود غرفة الفحص. فقد كانت هذه المرأة مثالًا على ما يحدث حين يتحول الكلام الغامض إلى بديل عن المعرفة، وحين يصبح الخوف أقوى من الدليل.

وقبل أن تغادر، قالت المرأة:

- سأعود إلى الطبيب الذي وصف لي العلاج. لقد فهمت الآن أن صحتي ليست مجالًا للتجارب.

أجاب كمال:

- هذا قرار حكيم، وأتمنى لك السلامة.

خلال الساعات التالية، واصل كمال فحص المرضى وتقديم النصائح. تحدث مع الأمهات عن متابعة صحة الأطفال، ومع كبار السن عن أهمية قياس ضغط الدم والالتزام بالمراجعات الطبية، وحثّ الجميع على عدم تناول الأدوية عشوائيًا أو استخدام وصفات مجهولة المصدر.

وكان عامر يتنقل بين الحاضرين، يشرح لهم أهداف الحملة، ويوزع منشورات توعوية أعدها المتطوعون. لم يكن يريد أن يحل المركز الثقافي محل المستشفى أو العيادة، بل أن يكون جسرًا يصل الناس بالمعرفة والخدمات الصحية.

وفي إحدى الاستراحات، وقف كمال أمام مجموعة من الأهالي وقال :

- أيها الإخوة والأخوات، لا أحد منا يعرف كل شيء، ولهذا نتعلم ونسأل ونستشير. عندما يمرض طفل، لا ينبغي أن نضيع الوقت في تبادل الاتهامات أو البحث عن شخص نلقي عليه المسؤولية. وعندما يعاني مسن من ارتفاع الضغط، لا يكفي أن نقول إنه بخير لأنه يستطيع المشي. وعندما يصف الطبيب علاجًا، فلا يجوز إيقافه بناءً على نصيحة عابرة.

ثم أضاف، وهو ينظر إلى الوجوه المتجمعة أمامه :

- نحن لا نطلب منكم أن تتخلوا عن احترامكم لعاداتكم أو عن روابطكم الاجتماعية. نطلب فقط ألا نسمح لأي اعتقاد بأن يحرم مريضًا من العلاج، وألا نجعل الخوف يحل محل الفحص والتشخيص. يمكن للإنسان أن يحافظ على إيمانه، وأن يأخذ بالأسباب الطبية في الوقت نفسه.

ساد الصمت للحظات، ثم رفعت امرأة يدها وسألته :

- وإذا لم نجد تفسيرًا للمرض، فماذا نفعل؟

أجابها كمال:

- نواصل البحث وفق الإمكانات المتاحة، ونطلب رأي المختصين عند الحاجة. ليس كل ما نجهله دليلًا على وجود سبب خارق، وليس الاعتراف بأننا لا نعرف بعد عيبًا. العيب

أن ندعي معرفة السبب دون دليل، ثم نمنع المريض من الحصول على المساعدة.

تبادل بعض الحاضرين النظرات، بينما أومأ آخرون موافقين.

أما عامر، فقد شعر بأن كلمات الطبيب تفتح نافذة صغيرة في جدار الخوف الذي أحاط بالقرية طويلًا.

لكن المفاجأة التي لم يتوقعها أحد جاءت بعد الظهر. بينما كان المتطوعون يرتبون الأوراق استعدادًا لإنهاء الحملة، اقترب شاب من عامر وسحبه إلى جانب القاعة.

قال بصوت منخفض:

- أريد أن أخبرك بشيء، لكنني لا أريد أن يسمعني أحد.

نظر عامر إليه باهتمام.

تكلم، ما الأمر؟

تردد الشاب قليلًا، ثم قال:

- بعض الناس يتحدثون عن الحملة منذ الصباح. يقولون إنكم لا تريدون علاج المرضى فقط، بل تريدون إقناع الناس بأن كل ما يؤمنون به خطأ. وهناك من يقول إن عودة كمال ليست بريئة، وإنك تستخدمه لتغيير القرية.

شعر عامر بمرارة في صدره، لكنه لم يظهر غضبه.

وهل قالوا ذلك لأنهم حضروا الحملة ورأوا ما فعلناه؟

هز الشاب رأسه.

- لا.

بعضهم لم يدخل المركز أصلًا.

سكت عامر قليلًا، ثم قال:

- إذن كيف حكموا على شيء لم يشاهدوه؟ لم يجد الشاب جوابًا.

وفي تلك اللحظة، خرج كمال من غرفة الفحص، ولاحظ أن الحديث بينهما قد توقف فجأة.

اقترب منهما وسأل:

- هل هناك مشكلة؟

أخبره عامر بما سمعه.

تنهد كمال، ثم قال:

- كنت أتوقع أن يرحب الجميع بهذه المبادرة، لكنني كنت مخطئًا. يبدو أن بعض الناس يخشون التغيير حتى عندما يأتي على هيئة مساعدة.

رد عامر:

- ليس التغيير هو ما يخيفهم دائمًا، بل ما قد يخسرونه إذا بدأ الناس يسألون ويتحققون بأنفسهم.

نظر كمال إلى القاعة، حيث كان بعض المرضى ينتظرون نصائحهم الأخيرة، ثم قل:

- لا ينبغي أن نجعل الشائعات توقفنا. اليوم جاء عدد قليل، لكن امرأة قد تعود بطفلها إلى الطبيب بدل أن تكتفي بتفسير غامض، ورجل مسن قد يواصل علاج ضغط الدم بدل أن يوقفه، ومريضة قد تتراجع عن قرار خطير اتخذته دون استشارة. أليس هذا كافيًا لنعتبر يومنا ناجحًا؟

ابتسم عامر وقال:

- بل هو بداية لما نريد أن نفعله.

ثم أضاف:

- لكن علينا أن نكون مستعدين لما سيأتي. إذا كانت الشائعات قد بدأت الآن، فقد يحاول أصحاب المصالح تحويل هذه الحملة إلى دليل ضدنا.

لم يجب كمال مباشرة. فقد كان يعرف أن المعرفة وحدها لا تكفي دائمًا، وأن مواجهة الخرافة قد تصطدم بمصالح أشخاص اعتادوا أن يجدوا في خوف الآخرين مصدرًا للنفوذ والمال.

قال عامر:

- ولهذا يجب أن نحارب الاستغلال، وأن نعمل أيضًا على تحسين الوصول إلى العلاج والتعليم. المعرفة لا تعيش في الفراغ؛ تحتاج إلى مؤسسات وثقة وفرص حقيقية. أعجب عامر بكلامه.

للمرة الأولى، شعر أن المواجهة قد تنتقل من مجرد نقاش حول المعتقدات إلى مشروع عملي يساعد الناس على تغيير حياتهم.

الفصل الرابع عشر:
شهادة جعفر

لم يكن الحزن الذي سكن بيت جعفر حزنًا عابرًا تستطيع الأيام أن تمحوه بسهولة، بل كان جرحًا عميقًا يزداد اتساعًا كلما مرّ الوقت. فمنذ وفاة ابنه الصغير، تغير كل شيء في حياته. أصبح البيت الذي كان يضج بالحركة والضحكات مكانًا صامتًا، تتردد في زواياه ذكريات طفل لم يعد يركض بين الغرف، ولم تعد ضحكته تملأ المكان.

كان جعفر يقضي معظم أيامه جالسًا في ركن من أركان البيت، ينظر إلى أشياء ابنه الصغيرة. لعبته التي تركها قرب النافذة، وحذاءه الذي لم يعد له صاحب، وقطعة ثيابه التي احتفظت برائحتها بقايا الأيام الأخيرة. كان يمد يده أحيانًا إلى تلك الأشياء، ثم يسحبها بسرعة، كأنه يخشى أن يواجه الحقيقة التي يحاول عقله رفضها.

لم يكن فقدان ابنه وحده ما يؤلمه؛ كان هناك سؤال يطارده في كل لحظة، سؤال لم يستطع الهرب منه مهما حاول: لماذا لم آخذه إلى المستشفى؟

كان السؤال يعود إليه كل ليلة، حين يهدأ البيت ويغرق في صمت ثقيل. يتذكر حرارة جسد ابنه المرتفعة، وأنفاسه المتعبة، ووجه زوجته المذعور وهي ترجوه أن ينقله إلى الطبيب. يتذكر كيف تمسك برأيه، وكيف أقنع نفسه بأن

الشيخ فاضل يعرف ما لا يعرفه الآخرون، وأن ما يحدث لطفله قد يكون أمرًا غامضًا لا يفهمه الأطباء.

كان يريد أن يصدق ذلك، لأن تصديقه كان أسهل من مواجهة جهله وخوفه.

لكن الموت لم يترك له فرصة لتصحيح قراره.

مرت أسابيع طويلة، ولم يعد جعفر الرجل الذي عرفه أهل «عين النسر». كان يغادر بيته عند الضرورة فقط، يشتري ما يحتاج إليه ثم يعود مسرعًا، متجنبًا نظرات الناس وأسئلتهم. بعضهم كان يواسيه بصدق، وبعضهم كان يربت على كتفه ويقول إن ما حدث قضاء وقدر، وإن عليه أن ينسى الماضي ويمضي في حياته.

غير أن آخرين كانوا ينصحونه بالصمت.

قال له أحدهم ذات مساء، وهو يجلس إلى جانبه أمام البيت:

- يا جعفر، لا تفتح هذا الموضوع مع أحد. ما حدث قد حدث، والكلام لن يعيد ابنك. الأفضل أن تنسى التفاصيل حتى لا تدخل في مشكلات أنت في غنى عنها.

نظر جعفر إليه طويلًا، ثم سأله بصوت خافت:

- وكيف أنسى؟

لم يجد الرجل جوابًا.

تابع جعفر، وقد ارتجفت شفتاه:

- هل أنسى وجه ابني حين كان يطلب مني أن أساعده؟ هل أنسى زوجتي وهي ترجوني أن آخذه إلى الطبيب؟ هل أستطيع أن أمحو من ذاكرتي تلك الساعات التي كنت أملك فيها فرصة لإنقاذه، لكنني أضعتها؟

خفض الرجل رأسه، ثم نهض بعد لحظات وغادر.

بقي جعفر وحده، وشعر للمرة الأولى أن الصمت الذي نصحه الناس به لن يحميه، بل سيجعله سجينًا لخطئه إلى آخر العمر.

كان يعرف أن الكلام لن يعيد ابنه، لكنه بدأ يفهم أن السكوت قد يسمح لغيره بتكرار المأساة نفسها.

وفي إحدى الليالي، بينما كانت زوجته تجمع أغراض الطفل استعدادًا لوضع بعضها في صندوق صغير، وجد جعفر نفسه واقفًا عند باب الغرفة.

قال لها بصوت مكسور:

- هل تظنين أنه كان يمكن أن يعيش لو أخذناه إلى المستشفى؟

توقفت يداها عن الحركة. لم تنظر إليه مباشرة، بل ظلت تحدق في ثياب الصغير.

ثم قالت:

- لا أعرف يا جعفر. لكنني طلبت منك أن تأخذه إلى الطبيب، وكنت أتمنى أن تسمعني.

كانت كلماتها قليلة، لكنها سقطت على قلبه كحجارة ثقيلة.
لم تلُمه، ولم ترفع صوتها، ولم تذكره بتفاصيل تلك الليلة.
وربما كان ذلك أشد إيلامًا من أي عتاب.
جلس على الأرض، ووضع يديه على وجهه.
- لقد أخطأت يا زوجتي. أخطأت حين جعلت خوفي أقوى من عقلي، وحين صدقت كلامًا لم أتحقق منه، وحين ظننت أن اللجوء إلى الشيخ يغنيني عن الطبيب.

اقتربت منه وجلست إلى جواره. لم تقل شيئًا، لكنها وضعت يدها على كتفه.

وفي تلك اللحظة أدرك جعفر أن الاعتراف بالخطأ لا يزيل الألم، لكنه قد يكون بداية الطريق إلى منع ألم جديد.

في صباح يوم لاحق، سمع جعفر أن المركز الثقافي في «عين النسر» سيستقبل لقاءً جديدًا ينظمه عامر حول الوعي والخرافة ومسؤولية الإنسان عن قراراته.
ظل يفكر طويلًا قبل أن يقرر الذهاب.
كان يخشى مواجهة الناس، ويخشى أن ينظروا إليه بوصفه الرجل الذي تسبب في مأساة ابنه. لكنه كان يخشى شيئًا آخر أكثر من ذلك: أن يظل صامتًا، بينما يستمر آخرون في تصديق الأوهام نفسها التي صدقها.
ارتدى معطفه القديم، وخرج من البيت.

كانت خطواته بطيئة، وكأن كل خطوة تعيده إلى تلك الليلة التي لم يستطع تجاوزها. وحين وصل إلى المركز الثقافي، وجد عددًا من الرجال والنساء يجلسون في القاعة. كان عامر يقف قرب المنصة، يتحدث مع بعض الحاضرين.

لمح جعفر ، فتقدم نحوه وصافحه بحرارة.

- أهلًا بك يا جعفر. يسعدني حضورك.

لم يجب جعفر فورًا. نظر إلى الوجوه التي التفتت نحوه، ثم قال :

- جئت اليوم لأن عندي كلامًا يجب أن أقوله. لا أريد أن أحتفظ به في صدري أكثر من ذلك.

ساد الهدوء في القاعة.

جلس جعفر في الصف الأمامي، وظل صامتًا دقائق، يشبك أصابعه ويفكها، كأنه يبحث عن الكلمات التي يستطيع بها أن يروي أكثر لحظات حياته قسوة.

اقترب منه عامر وقال برفق :

- خذ وقتك يا جعفر. نحن هنا لنستمع إليك.

رفع جعفر رأسه. كانت عيناه حمراوين، وصوته متعبًا، لكنه بدأ يتحدث.

- كلكم تعرفون أنني فقدت ابني. بعضكم جاء يعزيني، وبعضكم سألني عما حدث، وبعضكم سمع روايات مختلفة عن تلك

الليلة. واليوم أريد أن أروي لكم الحقيقة كما عشتها، لا كما يتناقلها الناس.

توقف قليلًا، ثم تابع :

- كان ابني مريضًا، وحرارته مرتفعة منذ يومين. كانت حالته تزداد سوءًا، وزوجتي ترجوني أن آخذه إلى المستشفى. قالت لي إن الطفل يحتاج إلى طبيب، وإنه لا ينبغي أن ننتظر أكثر. لكنني لم أستمع إليها.

انخفض رأسه، وراح يفرك يديه بعصبية.

- أخذت ابني إلى الشيخ فاضل. كنت أظن أنه يستطيع أن يفعل شيئًا لا يستطيع الأطباء فعله. كنت أسمع الناس يتحدثون عنه، ويقولون إنه يعرف أسرارًا لا يعرفها غيره، وإنه قادر على كشف ما خفي عن العيون. صدقتهم، ولم أسأل نفسي عن الدليل، ولم أفكر في أن المرض قد يكون خطيرًا وأن الوقت قد لا ينتظر أحدًا.

ساد الصمت، ولم يسمع في القاعة سوى صوت المروحة القديمة في السقف.

أكمل جعفر :

- حملت ابني بين ذراعي، وكان جسده ساخنًا وأنفاسه ضعيفة. دخلت به إلى الشيخ، فطلب مني الانتظار. كنت أراقب طفلي

وأتمنى أن يتحسن، وكنت أتمسك بأي كلمة أسمعها. لكن حالته لم تتحسن كما كنت أرجو.

رفع جعفر عينيه نحو الحاضرين، ثم قال بصوت اختنق بالبكاء:

- مات ابني. لم يستطع إكمال كلامه. غطى وجهه بيديه، وانحنى إلى الأمام. تحرك بعض الحاضرين في مقاعدهم، بينما وضعت امرأة في آخر القاعة يدها على فمها، وأجهش رجل مسن بالبكاء في صمت.

تركه عامر لحظات، ولم يحاول مقاطعة ألمه.

بعد قليل، مسح جعفر دموعه، واستقام في جلسته.

- لا أريد أن أتهم أحدًا بكلام لا أستطيع إثباته، ولا أريد أن أختبئ خلف الأعذار. أنا جئت لأعترف بخطئي أنا. لقد كنت الأب الذي كان عليه أن يحمي ابنه، لكنني اتخذت قرارًا لم يكن ينبغي لي اتخاذه.

ثم نظر إلى عامر مباشرة، وقال:

- لا أستطيع أن أبحث عن عذر أقنع به نفسي. كلما أغمضت عيني رأيت وجه ابني، وكلما تذكرت تلك الليلة سمعت صوت زوجتي وهي تطلب مني أن آخذه إلى الطبيب. كنت أستطيع أن أستمع إليها، لكنني لم أفعل. كنت أستطيع أن أطلب المساعدة الطبية، لكنني تأخرت.

ارتجف صوته، ثم أضاف:

- لا أعرف إن كان ابني سينجو لو وصل إلى المستشفى في الوقت المناسب، ولا أستطيع أن أجزم بما كان سيحدث. لكنني أعرف أن المرض يحتاج إلى الطبيب، وأنني لم أفعل ما كان ينبغي لي فعله. وهذه الحقيقة وحدها تكفيني لأعيش مع الندم.

ساد صمت عميق.

لم يكن جعفر يطلب الشفقة، ولم يكن يحاول أن يبرئ نفسه. كان يقف أمام الناس مجردًا من الأعذار التي احتمى بها طويلًا، يريد أن يقول ما لم يستطع قوله من قبل.

وفجأة، نهض من مقعده.

نظر إلى الحاضرين واحدًا واحدًا، ثم قال:

- أرجوكم، لا تكرروا خطئي. إذا مرض أحد أطفالكم، فلا تنتظروا حتى تتدهور حالته. لا تجعلوا الخوف من العين أو الحسد أو كلام الناس يمنعكم من طلب العلاج. اذهبوا إلى المستشفى، واستشيروا الطبيب، واسألوا عن أسباب المرض وطرق علاجه. لا تتركوا أبناءكم يدفعون ثمن قرارات تتخذونها تحت تأثير الخوف.

ثم أشار بيده إلى صدره، وأضاف:

- أنا لا أتحدث إليكم لأنني أفضل من غيري، بل لأنني ارتكبت خطأً أدفع ثمنه كل يوم. إن استطاعت شهادتي أن تدفع أبًا واحدًا إلى حمل طفله إلى الطبيب بدلًا من إضاعة الوقت، فسأشعر أنني فعلت شيئًا، ولو كان صغيرًا، من أجل الأطفال الذين ما زالوا ينتظرون من يحميهم.

وقفت الكلمات في حلقه، ثم قال جملة هزت القاعة كلها:

- لقد فقدت ابني مرة، ولا أريد أن أكون سببًا في فقدان ابن آخر.

انفجرت الدموع في عينيه من جديد.

نهض رجل من الصف الثاني، وتقدم نحوه، ووضع يده على كتفه. ثم وقفت امرأة وقالت بصوت خافت:

- رحم الله ابنك يا جعفر.

لم يجب جعفر، بل أطرق رأسه.

أما عامر، فظل واقفًا في مكانه، وقد أدرك أن ما سمعه الناس للتو لم يكن مجرد شهادة عن مأساة عائلية، بل كان مواجهة صادقة مع أحد أخطر آثار الخرافة: أن تجعل الإنسان يتخلى عن مسؤوليته، ثم يبحث عن الأعذار بعدما يفقد القدرة على إصلاح ما حدث.

قال عامر للحاضرين :

- إن الاعتراف بالخطأ يحتاج إلى شجاعة، لكن الشجاعة الحقيقية أن نتعلم منه قبل أن تتكرر المأساة. لسنا هنا لمحاكمة جعفر أو زيادة ألمه، بل لنفهم كيف يمكن للخوف حين يتحكم في عقولنا أن يدفعنا إلى قرارات خطيرة. إن احترام المعتقدات والعادات لا يعني أن نتخلى عن التفكير، ولا أن نؤخر العلاج، ولا أن نضع حياة أطفالنا في أيدي أشخاص لا يملكون دليلًا على قدرتهم على علاج الأمراض.

ثم التفت إلى جعفر وأضاف :

- لقد قلت اليوم ما قد يعجز كثيرون عن قوله. وأرجو أن تجد في صدقك قوة تساعدك على مواصلة الحياة، لا لأنك تستطيع نسيان ابنك، بل لأنك تستطيع أن تجعل من تجربتك تحذيرًا ينقذ الآخرين.

جلس جعفر ببطء، وأغمض عينيه للحظات.

للمرة الأولى منذ أسابيع، شعر أنه لم يعد يحمل السر وحده. لم يختف حزنه، ولم تنفتح أبواب بيته على الحياة من جديد، ولم يعد ابنه إلى حضنه. لكنه شعر أن الصمت الذي كان يخنقه بدأ يتراجع قليلًا .

بعد انتهاء اللقاء، اقترب منه شاب كان يستمع إليه باهتمام، وقال :

- يا عمي جعفر، لدي أخ صغير يمرض أحيانًا، وأبي يصر على أخذه إلى أحد الذين يعالجون بالأعشاب والرقية الشعبية. ماذا أفعل إذا رفض الذهاب إلى الطبيب؟

نظر إليه جعفر طويلًا، وكأن السؤال أعاده إلى اللحظة التي كان يتمنى لو تصرف فيها بطريقة مختلفة.

قال له :

- لا تدخل معه في شجار، ولا تهنه، ولكن حاول أن تقنعه بهدوء. أخبره أن طلب العلاج لا يتعارض مع الدعاء، وأن الطبيب يبحث عن سبب المرض ووسيلة علاجه. وإذا كانت حالة أخيك خطيرة، فلا تؤخروا طلب المساعدة الطبية. لا تنتظروا حتى يصبح الندم هو الشيء الوحيد الذي يبقى لكم.

شكره الشاب وانصرف.

ظل جعفر واقفًا أمام باب المركز الثقافي، يتابع الناس وهم يغادرون في مجموعات صغيرة. كان يسمع بعضهم يتحدث عن شهادته، وبعضهم يناقش ما قاله عامر، وآخرين يلتزمون الصمت وكأن كلمات جعفر فتحت في ذاكرتهم أبوابًا لم يرغبوا في فتحها.

اقترب عامر منه وسأله :

- هل تريد أن أوصلك إلى البيت؟

هز جعفر رأسه موافقًا.

وفي الطريق، قال بعد صمت طويل:

- يا عامر، كنت أظن أن الاعتراف سيخفف عني كل هذا الألم، لكنني ما زلت أشعر أن شيئًا ينقصني.

أجابه عامر:

- لأن الألم لا يزول بمجرد الكلام. أنت فقدت ابنك، وهذا جرح لا يمكن لأحد أن يمحوه. لكنك اليوم منعت صمتك من أن يصبح ستارًا يخفي الحقيقة. لا تستطيع تغيير الماضي، لكنك تستطيع أن تساعد غيرك على اتخاذ قرار أفضل.

تنهد جعفر وقال:

- أتمنى لو أنني فهمت هذا قبل فوات الأوان.

لم يجد عامر جوابًا مناسبًا، فترك الصمت يسير بينهما.

وحين وصلا إلى البيت، وقف جعفر عند الباب قليلًا قبل أن يدخل. نظر إلى النافذة التي كان ابنه يطل منها كل صباح، ثم رفع عينيه إلى السماء.

همس بصوت لا يكاد يسمع:

- سامحني يا بني، إن كان الاعتذار يصل إلى من غابوا.

ثم دخل وأغلق الباب برفق.

لم تكن تلك الليلة نهاية حزنه، لكنها كانت بداية تحوله من رجل يهرب من الحقيقة إلى رجل يملك شجاعة مواجهتها.

وفي «عين النسر»، بقيت شهادة جعفر تتردد بين البيوت، لا بوصفها حكاية عن أب أخطأ فحسب، بل بوصفها تحذيرًا من عقل استسلم للخوف، ومن أوهام قد تبدو بسيطة حتى تتحول إلى مأساة لا يمكن إصلاحها.

لقد مات الطفل، وبقي الأب حيًا يحمل ذكراه.

لكن شهادته تركت في القرية سؤالًا لم يعد من السهل تجاهله:

كم من إنسان قد نخسره قبل أن نتعلم أن الخوف ليس دليلًا، وأن الادعاء ليس علمًا، وأن حياة الإنسان أغلى من كل وهم؟

الفصل الخامس عشر:
سقوط القناع الأول

لم تكن «عين النسر»، تلك القرية التي اعتادت أن تدفن أسرارها تحت طبقات الصمت والخوف، كما كانت قبل الحريق الذي التهم جزءًا من المركز الثقافي. فقد تركت النيران وراءها رماد الكتب، ورائحة الخشب المحترق، وأسئلة ثقيلة أخذت تتسلل إلى البيوت والمقاهي والحقول. وكان أكثر ما يقلق أهل القرية أن الحريق لم يكن مجرد حادث عابر، بل بدا كأنه محاولة لإسكات صوت بدأ يوقظ العقول من سباتها الطويل.

في الأيام الأولى، انشغل المحققون بمعاينة المكان والاستماع إلى الشهود. فحصوا الأبواب والنوافذ، وجمعوا بقايا المواد المحترقة، واستجوبوا عددًا من الأشخاص الذين شوهدوا بالقرب من المركز الثقافي ليلة الحريق. غير أن التحقيقات لم تصل إلى دليل حاسم يحدد المسؤول عما حدث.

كان عامر يتابع التطورات بقلق، لكنه لم يسمح للشكوك بأن تتحول إلى اتهامات. فقد تعلم أن الحقيقة لا تُبنى على الظنون، وأن اتهام إنسان دون دليل قد يكون ظلمًا لا يقل خطورة عن الجريمة نفسها.

وفي إحدى الأمسيات، جلس في بيته يتأمل دفتر جده القديم، حين دخلت عليه أمه خديجة تحمل فنجانًا من القهوة.

قالت وهي تضعه أمامه:

- بلغني أن بعض الناس قرروا تقديم شكاوى ضد عاشور.

رفع عامر رأسه متسائلًا:

- شكاوى؟ بشأن ماذا؟

- الأموال التي دفعوها مقابل تلك المنتجات التي كان يبيعها لهم. يقولون إنه وعدهم بأشياء لا يستطيع أحد إثباتها، وإنه أخافهم حتى يشتروا منه.

ظل عامر صامتًا لحظة، ثم قال:

- إذا كان هناك من تضرر، فليتقدم بشكواه إلى الجهات المختصة. لا أريد أن يتحول الأمر إلى انتقام شخصي. ما نريده هو أن يعرف الناس الحقيقة، وأن يستعيد كل إنسان حقه إن ثبت أنه تعرض للخداع.

نظرت إليه أمه طويلًا، ثم قالت بصوت خافت:

- لكن عاشور لن يسكت. إنه يعتبرك عدوًا له منذ اليوم الذي فتحت فيه أبواب المركز الثقافي.

ابتسم عامر ابتسامة حزينة.

- أنا لم أفتح أبواب المركز لمحاربة أحد يا أمي. فتحته حتى لا يبقى الإنسان أسير خوفه، وحتى يعرف أن السؤال ليس جريمة، وأن التفكير ليس خروجًا عن الأخلاق.

لم تكن خديجة مطمئنة، لكنها أدركت أن ابنها قد تجاوز مرحلة التراجع.

1- الشكوى الأولى

في صباح اليوم التالي، اجتمع عدد من سكان القرية أمام مقر الدرك. كان بينهم فلاحون وحرفيون وأصحاب محلات صغيرة، وحتى رجال عرفوا لسنوات طويلة بأنهم من أشد المدافعين عن عاشور.

كان أول المتقدمين رجلًا صاحب ورشة صغيرة لإصلاح الآلات الزراعية. وقف أمام الموظف المختص، وأخرج من جيبه ورقة مطوية بعناية، ثم قال:

- أريد تقديم شكوى بشأن الأموال التي دفعتها لعاشور.

سأله الموظف:

- ما موضوع الشكوى تحديدًا؟

تنهد الرجل وقال:

- أقنعني بأن مشروعي سيتعرض للفشل بسبب الحسد والعين، وأنني بحاجة إلى منتجات خاصة لحمايته.

قال لي إن بعض الأشخاص لا يريدون لي النجاح، وإن خسارتي المقبلة ستكون دليلًا على أنني لم أحم نفسي كما ينبغي. اشتريت منه ما طلبه، ودفعت مبلغًا كبيرًا، لكنني لم أحصل على أي ضمان حقيقي، ولم يقدم لي دليلًا على ما ادعاه.

ثم أضاف، وقد بدت المرارة واضحة في صوته:

- أنا رجل أعمل بيدي منذ ثلاثين سنة. لم أكن أصدق هذه الأمور بهذه الصورة، لكنه عرف كيف يدخل إلى قلبي من باب الخوف على رزق أبنائي.

لم يكن الرجل وحده.

تقدم بعده رجل آخر، ثم امرأة، ثم شاب اقترض مالًا من أحد أقاربه ليشتري منتجات وعده عاشور بأنها ستجلب له الحظ وتفتح أمامه أبواب العمل.

وكانت الشكاوى تتشابه في بعض تفاصيلها، لكنها تختلف في المبالغ والوعود والظروف التي دفعت أصحابها إلى الشراء.

بعض المنتجات كانت عادية، لا يظهر فيها ما يجعلها ضارة في ذاتها، لكن أسعارها كانت مرتفعة بصورة أثارت الشكوك. أما المشكلة الأكبر فكانت في الادعاءات التي رافقت بيعها، والوعود التي لم يقدم أصحابها دليلًا على صحتها، والعبارات المخيفة التي قيل إنها استُخدمت لإقناع الناس بالدفع.

قال أحد المشتكين:

- لم يكن يبيعنا أشياء فحسب، بل كان يبيعنا الطمأنينة، ثم يجعلنا نخاف من فقدانها إذا لم نشترِ المزيد. كانت تلك العبارة كافية لتلخص ما بدأ يتكشف في القرية. فالمسألة لم تعد خلافًا بين عامر و عاشور، كما حاول البعض تصويرها، بل أصبحت قضية تتعلق بأموال الناس وثقتهم وحقهم في معرفة حقيقة ما يشترونه.

2- استدعاء عاشور

وصل خبر الاستدعاء إلى عاشور في منتصف النهار.

كان جالسًا في متجره الصغير، يراجع دفترًا أسود دوّن فيه أسماء بعض زبائنه والمبالغ التي دفعوها، عندما دخل عليه أحد معارفه مسرعًا.

قال الرجل:

- عاشور، لقد استدعوك للتحقيق.

رفع عاشور رأسه فجأة.

- من استدعاني؟

- الجهات المختصة. هناك شكاوى كثيرة بشأن المنتجات التي بعتها للناس.

أغلق عاشور الدفتر بعنف حتى كاد غلافه يتمزق.

- شكاوى؟ بعد كل ما فعلته من أجلهم؟ هؤلاء هم الذين كانوا يأتون إليّ من تلقاء أنفسهم !

حاول الرجل تهدئته:

- اذهب واستمع إليهم، وقدّم ما لديك من وثائق. ربما يكون الأمر مجرد سوء تفاهم.

حدق عاشور فيه بعينين ضيقتين.

- سوء تفاهم؟ لا يوجد سوء تفاهم. هناك شخص واحد يقف وراء كل هذا.

لم يحتج الرجل إلى السؤال عن المقصود.

قال عاشور بصوت خافت، لكنه مشحون بالغضب:

- «عامر.»

ثم نهض وأغلق المتجر، وخرج بخطوات متسارعة، تاركًا الدفتر الأسود داخل الدرج دون أن ينتبه إلى أن إحدى صفحاته بقيت بارزة قليلًا.

كانت تلك الصفحة تحمل أسماء ثلاثة رجال، وإلى جانب كل اسم مبلغ مالي، ثم عبارة قصيرة مكتوبة بخط مختلف:

«الدفعة الثانية بعد إتمام المهمة.»

لم يكن أحد في تلك اللحظة يعرف معنى العبارة، ولا المهمة التي تشير إليها، ولا سبب اختلاف الخط عن بقية الكتابات.

لكن الدفتر لم يكن الشيء الوحيد الذي تركه عاشور وراءه. فقد بقي باب الدرج غير مغلق بإحكام، وكان هناك من يراقب المتجر من الجهة المقابلة للطريق. رجل يرتدي معطفًا رماديًا، يقف قرب محل قديم لبيع قطع الغيار. وعندما لمح عاشور يبتعد، أخرج هاتفه واتصل بشخص لم يذكر اسمه.

قال بصوت منخفض:

- لقد استدعوه للتحقيق.

جاءه صوت متوتر من الطرف الآخر:

- وهل وجدوا الدفتر؟

- لا أظن ذلك.

صمت الرجل لحظات، ثم قال:

- إذن، علينا أن نتصرف قبل أن يتكلم. أغلق المكالمة، وغادر المكان دون أن يلتفت خلفه.

خلف باب التحقيق دخل عاشور إلى مقر التحقيق وهو يحاول إخفاء اضطرابه. كان يرتدي ثيابًا أنيقة، ويحمل حقيبة جلدية صغيرة، وقد حرص على أن يبدو هادئًا وواثقًا كما اعتاد أن يظهر أمام أهل القرية.

جلس أمام المحقق، ووضع الحقيبة بجانبه.

بدأت الأسئلة بسيطة.

ما طبيعة المنتجات التي كان يبيعها؟ من أين كان يحصل عليها؟ كيف كان يحدد أسعارها؟ وهل كان يقدم للمشترين ضمانات مكتوبة بشأن النتائج التي يتحدث عنها؟

أجاب عاشور بثقة في البداية.

قال:

- إن المنتجات لا تسبب ضررًا، وإن الناس كانوا يشترونها برضاهم، وإن الأسعار تختلف بحسب النوع والجودة.

لكن المحقق عاد إلى السؤال الذي كان عاشور يحاول الابتعاد عنه:

- هل قلت لبعض الزبائن إن عدم شراء هذه المنتجات قد يؤدي إلى فشل مشروعاتهم أو وقوع مصائب في أسرهم؟

تغيرت ملامح عاشور.

- لم أقل ذلك بهذه الطريقة.

- بأي طريقة إذن؟

تردد لحظة، ثم أجاب:

- كنت أنصح الناس فقط. لم أجبر أحدًا على الشراء.

فتح المحقق ملفًا أمامه، وأخرج ورقة تتضمن أقوال أحد المشتكين.

- هذا الرجل يقول إنك أخبرته بأن مشروعه لن ينجح ما لم يشترِ منك منتجًا معينًا، وإنك طلبت منه مبلغًا كبيرًا مقابل ذلك.

رد عاشور بسرعة:

- إنه يكذب!

- وهل تكذب بقية الشهود أيضًا؟

ساد الصمت.

للمرة الأولى، شعر عاشور بأن الكلمات التي اعتاد استخدامها لإقناع الآخرين لم تعد تؤدي وظيفتها. كان يستطيع أن يرفع صوته أمام رجل خائف، أو أن يلمح إلى خطر غامض أمام امرأة قلقة، لكنه لم يجد وسيلة سهلة لمواجهة أسئلة تطلب منه وقائع محددة وأدلة واضحة.

استمر التحقيق ساعات، وانتهى إلى جمع أقواله وفحص الوثائق المقدمة، مع مواصلة التحريات بشأن طبيعة المنتجات وطريقة تسويقها.

وعندما خرج، كان وجهه محتقنًا بالغضب. توقف عند الباب، ثم التفت إلى أحد الذين ينتظرون في الخارج وقال بصوت مرتفع:

- عامر هو الذي حرّض الناس عليّ!

منذ فتح ذلك المركز الثقافي وهو يريد تدميري !

سمعه رجل مسن كان يجلس على مقعد قريب، فرفع رأسه وقال بهدوء:

- وهل أجبرك عامر على تحديد الأسعار التي كنت تطلبها؟

التفت عاشور إليه بعنف.

- لا تتدخل فيما لا يعنيك !

أجابه الرجل:

- حين يتعلق الأمر بأموال الناس وخوفهم، يصبح الأمر شأنًا يعني الجميع .لم يجد عاشور جوابًا.

خرج مسرعًا، لكن خطواته لم تعد تحمل ثقة الرجل الذي دخل قبل ساعات.

«أريد أموالي»

في المساء، انتشرت أخبار التحقيق في أنحاء «عين النسر». اجتمع عدد من الزبائن السابقين لعاشور قرب المقهى القديم، وكان بينهم الرجل صاحب الورشة الصغيرة لإصلاح الآلات الزراعية، وشاب، ورجل آخر خسر جزءًا كبيرًا من مدخراته في شراء منتجات لم يستطع التحقق من الوعود التي رافقتها.

قال رجل اربعيني وهو يضرب كفه بكفه:

- دفعت مبلغا كبيرا لكي لا يفشل مشروعي. كنت أستعد لفتح محل لبيع الأدوات الكهربائية، فقال لي عاشور إن هناك من يحسدني، وإنني إن لم أشترِ منه ما عرضه عليّ فسأخسر كل شيء قبل أن أبدأ.

سأله صاحب الورشة:

- وهل أعطاك دليلًا على ذلك؟

ضحك الرجل ضحكة قصيرة خالية من الفرح.

- أعطاني كلامًا كثيرًا، وحذرني من أشياء لا أستطيع رؤيتها. كلما ترددت، قال لي إن التردد نفسه قد يكون سببًا في وقوع ما أخشاه.

ثم أضاف، وقد ارتفع صوته :

- واليوم أريد أن أعرف: أين الدليل؟ وأين ذهبت أموالي؟

قال الرجل الآخر:

- أنا لا أطالب باسترجاع المال فقط. أريد أن أعرف لماذا جعلني أخاف من كل شيء. كنت أراقب أطفالي، وأشك في جيراني، وأظن أن كل مصيبة تقع في بيتي وراءها شخص يريد إيذائي.

ساد الصمت بين الرجال.

لقد أدركوا أن خسارتهم لم تكن مالية وحدها. فقد دفعهم الخوف إلى الشك في أقرب الناس إليهم، وحول حياتهم اليومية إلى سلسلة من الهواجس والانتظارات المرعبة.

قال صاحب الورشة:

- لنذهب إليه جميعًا. نطلب منه إعادة أموالنا، وليقدم الدليل على كل ما وعدنا به .لم يعترض أحد.

وفي صباح اليوم التالي، توجهت مجموعة من الرجال إلى متجر عاشور.

كان عاشور داخل المحل حين سمع أصواتهم تقترب. نظر من خلف الزجاج، فرأى وجوهًا يعرفها جيدًا؛ وجوهًا كانت بالأمس تستقبله بالترحاب، وتستشيره في شؤونها الخاصة، وتصدّق كلماته دون نقاش.

أما اليوم، فقد جاءت تطالبه بالحساب.

فتح الباب وقال متظاهرًا بالهدوء:

- ما الأمر؟ لماذا اجتمعتم بهذه الطريقة؟

تقدم الرجل الأربعيني خطوة إلى الأمام.

- نريد أموالنا.

قطب عاشور حاجبيه.

- أي أموال؟

رد صاحب الورشة:

- الأموال التي دفعناها مقابل المنتجات والوعود التي قدمتها لنا.

رفع عاشور يديه محتجًا.

لقد اشتريتم بمحض إرادتكم! لم أجبر أحدًا منكم !

قال الرجل الآخر :

صحيح، لم تمسك بيد أحد منا لتجبره على الدفع. لكنك أخبرتنا بأمور لم تقدم دليلًا عليها، وأوهمتنا بأن مستقبلنا ومصالحنا معرضة للخطر إن لم نشترِ منك.

اقترب رجل آخر وقال :

- أخبرتني أن ابنتي لن تتزوج ما لم أدفع ثمن المنتج الذي عرضته عليّ. كيف عرفت ذلك؟ ومن أين جئت بهذا الكلام؟

تغير وجه عاشور.

- كنت أحاول مساعدتك !

- مساعدتي أم تخويفي؟

ارتفعت الأصوات، وتجمع بعض المارة أمام المتجر.

حاول عاشور إغلاق الباب، لكن الرجل الأربعيني وضع يده عليه وقال :

- لن نغادر قبل أن نتفق على طريقة واضحة لمعالجة شكاوينا.

صرخ عاشور :

- أنتم لا تفهمون شيئًا! لقد استغل عامر عقولكم ضدّي! جاءه صوت من آخر المجموعة :

- إذا كان عامر هو الذي أخطأ، فليحاسبوه على خطئه. أما أنت، فأجب عن الأسئلة المتعلقة بأموالك ومنتجاتك !

كانت تلك اللحظة مختلفة عن كل ما عرفه عاشور من قبل. فقد اكتشف أن الخوف الذي استخدمه طويلًا لإسكات الآخرين لم يعد قادرًا على منعهم من الكلام.

3- المفاجأة خلف الجدار

بينما كان الجدل يحتدم أمام المتجر، كان صبي صغير يُدعى لطفي يمر في الزقاق المجاور عائدًا من دكان الخباز. سمع أصواتًا مرتفعة، فتوقف قرب نافذة جانبية نصف مفتوحة.

لم يكن الصبي مهتمًا بالخلاف في البداية، لكنه انتبه عندما رأى رجلًا يخرج من الباب الخلفي للمتجر وهو يحمل كيسًا أسود صغيرًا.

كان الرجل يلتفت خلفه باستمرار، وكأنه يخشى أن يراه أحد. عرف لطفي وجهه. كان صالح، الرجل الذي عمل سنوات مع عاشور، والذي سبق أن رآه أكثر من مرة يدخل المتجر في أوقات متأخرة.

انتظر الصبي حتى ابتعد الرجل، ثم اقترب من النافذة بحذر.

سمع صوت عاشور من الداخل يقول:

- قلت لك إن الوقت لم يحن بعد!

وجاءه صوت آخر، لم يستطع تمييز صاحبه:

- لم يعد الأمر بيدنا. لقد بدأوا يتكلمون، وإذا وصلوا إلى الدفتر فسينكشف كل شيء.

رد عاشور بعصبية :

- الدفتر ليس المشكلة. المشكلة في الورقة التي اختفت !

سكت الرجل الآخر لحظة، ثم قال :

ومن أخذها؟ جاء الجواب هامسًا، لكن لطفي التقط اسمًا واحدًا بوضوح :

- « جعفر.»

تجمد الصبي في مكانه.

كان يعرف جعفر، الرجل الذي فقد ابنه قبل مدة، والذي صار قليل الكلام منذ تلك الفاجعة. ولم يكن يفهم ما الذي يمكن أن يربطه بعاشور أو بدفتر غامض أو بورقة يخشى الرجلان انكشافها.

وفجأة، انفتح الباب الخلفي بعنف.

ظهر صالح، وألقى نظرة حادة في اتجاه النافذة.

تراجع لطفي بسرعة، واختبأ خلف جدار منخفض، وهو يحبس أنفاسه.

سمع خطوات تقترب.

ثم صوت صالح :

- من هناك؟

لم يجب أحد.

مرت ثوانٍ بدت للصبي أطول من الليل كله، قبل أن يبتعد الرجل عائدًا إلى المتجر.

نهض لطفي بعد أن تأكد من خلو الزقاق، وركض نحو البيت.

كان قلبه يخفق بعنف، ولم يكن يعرف إن كان ما سمعه دليلًا على جريمة أم مجرد حديث غامض بين رجلين مذعورين.

لكنه كان يعرف شيئًا واحدًا:

اسم جعفر لم يأتِ في ذلك الحديث مصادفة.

4 - عامر أمام الحقيقة الجديدة

في المساء، ذهب لطفي إلى المركز الثقافي المؤقت الذي اتخذه عامر مقرًا للأنشطة بعد الحريق.

كان عامر جالسًا مع عائشة والطبيب كمال، يراجعون بعض الوثائق المتعلقة بحملة التوعية التي كانوا يستعدون لاستئنافها.

دخل لطفي مترددًا.

قال عامر:

- ما بك يا لطفي؟ تبدو خائفًا.

نظر الصبي نحو الباب، ثم اقترب وهمس:

- سمعت شيئًا عن عاشور.

تبادل عامر و عائشة نظرة سريعة.

أشار إليه عامر بالجلوس، ثم قال:

- خذ وقتك، واحكِ ما حدث كما سمعته تمامًا. لا تضف شيئًا من عندك، ولا تخفِ شيئًا.

روى لطفي ما شاهده، ثم نقل الكلمات التي سمعها، بما فيها ذكر الدفتر والورقة المختفية واسم جعفر.

لم يقاطعه عامر.

وعندما انتهى الصبي، ظل صامتًا لبعض الوقت.

قالت عائشة بقلق:

- هل تعتقد أن جعفر متورط في شيء؟

أجاب عامر بحزم:

- لا يمكننا استنتاج ذلك من حديث سمعه طفل من خلف نافذة. قد يكون جعفر شاهدًا، أو صاحب معلومة، أو لا علاقة له بالموضوع أصلًا. علينا أن نتحقق قبل أن نتهم أحدًا.

تدخل الطبيب كمال:

- لكن الحديث عن ورقة مختفية ودفتر يخشون وصول الناس إليه قد يشير إلى وجود أمور لم تظهر في التحقيقات بعد.

أومأ عامر.

- هذا ما ينبغي التحقق منه.

ثم التفت إلى لطفي وقال:

- أحسنت لأنك أخبرتنا، لكن لا تقترب من متجر عاشور مرة أخرى، ولا تحاول مراقبة أحد. سلامتك أهم من أي معلومة.

هز لطفي رأسه موافقًا.

وقبل أن يغادر، توقف عند الباب وسأل:

- أستاذ عامر، هل يمكن أن يكون الحريق قد وقع حتى لا يعرف الناس ما في ذلك الدفتر؟

نظر عامر إليه طويلًا.

كان السؤال أكبر من عمر صاحبه، لكنه لم يكن مستحيلًا.

قال بهدوء:

- كل الاحتمالات تحتاج إلى دليل يا لطفي. سنبحث عن الحقيقة، لكننا لن نحول الشك إلى يقين قبل أن نعرف ما حدث.

خرج الصبي، وبقي الثلاثة في صمت.

ثم قالت عائشة:

- إذا كان ما سمعه لطفي صحيحًا، فقد تكون قضية عاشور أوسع مما ظننا.

أجاب عامر:

- ربما. لكن علينا أن نتذكر أن هناك فرقًا بين شخص يبيع منتجًا بسعر مرتفع، وشخص يستخدم الخوف للتأثير في

الناس، وشخص قد يكون متورطًا في أمر آخر. لكل واقعة أدلتها، ولكل متهم حقه في أن يُعرف ما نُسب إليه قبل الحكم عليه.

أغلق دفتر جده، ونهض متجهًا نحو النافذة.

في الخارج، كانت «عين النسر» تبدو هادئة، لكن تلك السكينة لم تعد تخفي ما كان يحدث تحت سطحها.

لقد بدأ الناس يطالبون بحقوقهم، وبدأت الأسئلة تتجاوز حدود المتجر إلى أمور أكثر غموضًا.

أما عاشور، الذي اعتاد أن يرى نفسه رجلًا لا يستطيع أحد الاقتراب من أسراره، فقد أدرك للمرة الأولى أن القناع الذي ارتداه طويلًا بدأ يتشقق.

غير أن عامر لم يكن يعلم بعد أن أخطر ما في الحكاية ليس الأموال التي دُفعت، ولا الوعود التي لم تثبت صحتها، ولا حتى الدفتر الأسود. بل الورقة التي اختفت. تلك الورقة التي جعلت رجلين يرتجفان لمجرد ذكرها، وربما كانت تحمل معلومة قادرة على تغيير مسار القضية كلها.

5 - المفاجأة الأخيرة

في ساعة متأخرة من الليل، عاد عاشور إلى متجره بعد أن تأكد من أن الشارع أصبح خاليًا.

أغلق الباب الأمامي، ثم توجه إلى الغرفة الخلفية. أخرج مفتاحًا صغيرًا من جيبه، وفتح خزانة حديدية مثبتة داخل الجدار.

كانت الخزانة تحتوي على أوراق مالية، ودفاتر قديمة، وبعض الإيصالات.

قلب الأوراق بعصبية، ثم سحب الدفتر الأسود.

فتحه عند الصفحة التي تحمل أسماء الرجال الثلاثة.

كان أحد الأسماء مشطوبًا بخط غليظ، وتحت الاسم الأول كُتبت عبارة لم ينتبه إليها من قبل، أو ربما حاول أن يتجاهلها:

«لا تُسلَّم الدفعة الأخيرة إلا بعد إغلاق المركز الثقافي.»

تراجع عاشور خطوة إلى الوراء.

لم يكن هو من كتب العبارة.

عرف الخط فورًا، وشعر ببرودة تسري في أطرافه.

فقد كان الخط يعود إلى شخص وثق به لسنوات، شخص لم يتوقع يومًا أن يجد اسمه مرتبطًا بما يحدث.

قلب الصفحة التالية، فوجد قصاصة ورق ممزقة، لم يبقَ منها سوى نصف جملة:

«إذا احترقت الكتب، فلن يبقى ما يكشف...»

توقف عن القراءة.

كان يعلم أن هناك من أراد للمركز الثقافي أن يصمت، لكنه لم يكن متأكدًا إلى أي مدى وصل ذلك الشخص في تنفيذ ما أراد.

وفي تلك اللحظة، سمع صوتًا خلفه.

- هل وجدت ما تبحث عنه؟

استدار عاشور بسرعة.

كان صالح واقفًا عند الباب، ووجهه شاحب على نحو لم يره عليه من قبل.

قال عاشور بصوت متوتر:

- كيف دخلت؟

أغلق صالح الباب بهدوء.

- هذا ليس المهم الآن. المهم أنك أصبحت في خطر.

قبض عاشور على الدفتر.

- من الذي كتب هذه العبارة؟

لم يجب صالح مباشرة.

اقترب من الطاولة، ووضع عليها شيئًا صغيرًا ملفوفًا بقطعة قماش.

ثم قال:

- الورقة التي اختفت لم يأخذها جعفر.

حدق عاشور فيه.

- ماذا تقول؟

رفع صالح عينيه إليه، وقال ببطء:

- الورقة عند شخص آخر، شخص يعرف ما حدث ليلة الحريق، ويعرف من كان يريد إسكات عامر قبل أن يبدأ الناس في طرح الأسئلة.

شعر عاشور بأن الغرفة تضيق من حوله.

سأل بصوت خافت:

- من هو؟ لكن صالح لم يجب.

فقد سمع الاثنان في اللحظة نفسها طرقًا قويًا على الباب الأمامي للمتجر.

ثلاث طرقات متتالية.

ثم صوت رجل من الخارج:

- عاشور، افتح الباب! نعلم أنك في الداخل.

تبادل الرجلان نظرة مذعورة.

أخفى صالح الشيء الذي أحضره، بينما أسرع عاشور إلى إطفاء المصباح.

تكرر الطرق.

ثم جاء صوت ثالث، أكثر هدوءًا، لكنه حمل تهديدًا واضحًا:

- لن ينفعك الاختباء هذه المرة.

تراجع عاشور حتى التصق بالجدار، والدفتر الأسود يرتجف بين يديه.

وفي الظلام، أدرك أن سقوط قناعه الأول لم يكن سوى بداية الحكاية.

فقد بدأ الناس يكتشفون كيف استُخدم خوفهم في البيع والإقناع، لكن الحقيقة المتعلقة بالحريق كانت تسير في طريق آخر، طريق لم يعد عاشور يسيطر عليه.

وعندما سمع صوت المفتاح يتحرك في القفل، أدرك أن القادم لم يكن مجرد سؤال جديد في التحقيق.

كان شخصًا يعرف سره، وجاء هذه الليلة ليأخذ منه شيئًا لا يريد أن يفقده.

وانفتح الباب ببطء ...لكن الرجل الذي دخل لم يكن من رجال الدرك، ولم يكن عامر، ولم يكن أحدًا من الذين طالبوه بأموالهم.

كان رجلًا ظن عاشور أنه غادر القرية إلى الأبد.

رجلًا يحمل في يده صورة قديمة، وعلى ظهرها تاريخ يعود إلى الليلة التي بدأ فيها كل شيء.

قال الرجل وهو يضع الصورة أمامه :

- انتهى وقت الكذب يا عاشور. إما أن تخبرهم بالحقيقة، وإما أن أروي لهم ما حدث بنفسي.

تجمد عاشور في مكانه.

فقد عرف الصورة.

وعرف الرجل.

أما ما لم يعرفه، فهو كيف وصلت تلك الصورة إلى يديه بعد كل هذه السنوات.

وفي الخارج، كانت «عين النسر» تستعد لليلة لن تشبه أي ليلة سبقتها.

الفصل السادس عشر:
مواجهة تحت شجرة الزيتون

كانت شجرة الزيتون القديمة تقف في الطرف الغربي من قرية «عين النسر»، كأنها شاهد صامت على أجيال تعاقبت تحت أغصانها، وسمعت من أسرار الناس أكثر مما سمعه أي إنسان. تجاوز عمرها عشرات السنين، وكانت جذورها الممتدة في الأرض تشبه حكايات القرية المتشابكة، التي يصعب معرفة بداياتها ونهاياتها.

في ذلك المساء الهادئ، حين بدأت الشمس تختفي خلف الجبال، وتسللت نسمات باردة بين أشجار الزيتون، وصل عامر إلى المكان بعد أن تلقى رسالة قصيرة من الشيخ فاضل تطلب منه لقاءً بعيداً عن أعين الناس.

كان الشيخ جالساً على مقعد حجري قديم، واضعاً يديه فوق عصاه، وعيناه معلقتان بالأفق. بدا هادئاً، لكن ملامحه كانت تخفي توتراً لم يستطع إخفاءه تماماً.

اقترب عامر وألقى التحية.

رد الشيخ دون أن يرفع رأسه: تأخرت يا عامر.

جلس عامر على حجر مقابل له، ثم قال بهدوء:

- لم أكن أعلم أن لقاءنا يحتاج إلى موعد خاص.

ابتسم الشيخ ابتسامة خفيفة وقال:

- بعض الكلام لا يصلح أن يقال أمام الناس.

وقال:

- سمعت أنك تتحدث عني في كل مكان.

أجابه عامر:

- لم أذكر اسمك في لقاءاتي إلا حين سألني الناس عن ممارسات محددة، وكنت أطلب منهم التحقق من كل ادعاء.

ضرب الشيخ الأرض بطرف عصاه وقال:

- أنت شاب متعلم، لكنك لا تفهم قلوب الناس. هؤلاء الذين تتحدث إليهم لا يبحثون دائماً عن الأدلة والبراهين. بعضهم فقد ابنه، وبعضهم يخاف على أطفاله، وبعضهم يعيش ألماً لا يستطيع الطبيب أن يفسره بسهولة. يأتون إليّ لأنهم يريدون من يسمعهم، لا من يحاضرهم. يأتي إليّ رجل مكسور، أو امرأة خائفة، أو أم فقدت الأمل. هل تعرف ماذا يعني أن يستمع إليهم أحد؟

ثم قال الشيخ بصوت منخفض:

- هناك أشياء لا تستطيع تفسيرها يا عامر. ليس كل ما يحدث في هذه الحياة يدخل في حساباتك.

لم يرد عامر فورًا.

كان في كلام الشيخ جانب يستحق التفكير. فبعض الناس لم يذهبوا إليه لأنهم يصدقون كل ما يقوله، بل لأنهم لم يجدوا من يستمع إلى آلامهم.

قال عامر:

- الاستماع إلى الناس أمر مهم. ومواساتهم أمر مهم. لكن ذلك لا يمنح أي شخص حق استغلال خوفهم أو تقديم ادعاءات لا يستطيع إثباتها.

رد الشيخ:

- وهل العلم يستطيع أن يجيب عن كل سؤال؟

- لا. العلم لا يدعي أنه يعرف كل شيء. قوته أنه يميز بين ما نعرفه وما لا نعرفه، ويبحث عن إجابات قابلة للاختبار. أما أن نجهل السبب، فهذا لا يمنحنا الحق في اختراع سبب ثم مطالبة الناس بتصديقه.

سكت الشيخ.

ثم قال:

- أنت تريد أن تهدم كل ما يؤمن به الناس.

هز عامر رأسه.

- أريد أن أبني مجتمعًا لا يُهان فيه الإنسان لأنه يسأل، ولا يُحرم فيه مريض من العلاج، ولا تُتهم فيه امرأة بالشر لأن محصول جارها تلف، ولا يُبتز فيه فقير باسم الحماية من المجهول.

نظر الشيخ إلى شجرة الزيتون.

- الناس يحتاجون إلى شيء يخافونه، وشيء يرجونه.

أجابه عامر:

- يحتاجون إلى الأمل، نعم. لكن الأمل ليس هو الخوف، والرجاء ليس هو الخداع. يمكننا أن نمنح الناس الطمأنينة دون أن نسلبهم عقولهم.

نهض الشيخ وغادر دون أن يودعه.

لم ينتصر عامر في تلك المواجهة، ولم يغير رأي الشيخ. لكنه أدرك أن خلف بعض الوجوه التي تبدو قوية خوفًا من فقدان المكانة، وخلف بعض الممارسات الخاطئة حاجات إنسانية حقيقية. كان عليه أن يواجه الأمرين معًا.

فأدرك عامر أن معركته لم تعد مع شخص يبيع الوهم، أو رجل يخيف الناس باسم الغيب، بل مع شبكة من المصالح والخوف والتواطؤ، استطاعت أن تجعل الجهل تجارة، وأن تحول معاناة البسطاء إلى مصدر للثراء والنفوذ.

ومع ذلك، ظل سؤال واحد يطارده:

الفصل السابع عشر:
الرسالة المجهولة

لم يكن عامر يتوقع أن تحمل له تلك الليلة مفاجأة جديدة، فقد اعتاد منذ الحريق الذي التهم جزءاً من المركز الثقافي أن يعيش على وقع الأسئلة والشكوك. كانت القرية تبدو هادئة في ظاهرها، لكن شيئاً غامضاً كان يتحرك تحت سطح ذلك الهدوء، وكأن الحريق لم يكن سوى بداية لحكاية لم تُكشف فصولها بعد.

عاد عامر إلى منزله في ساعة متأخرة من المساء، بعد يوم طويل قضاه في متابعة بعض الإجراءات المتعلقة بالتحقيقات، والحديث مع عدد من سكان القرية الذين تضرروا من الأحداث الأخيرة. وضع مفاتيحه فوق الطاولة، وأشعل المصباح، ثم اتجه نحو غرفته. غير أن عينه التقطت شيئاً أبيض عند أسفل الباب.

توقف في مكانه.

كانت ورقة مطوية بعناية، وقد دُسّت من الخارج تحت الباب.

انحنى والتقطها، ثم نظر نحو الممر الخارجي من خلال النافذة. لم يرَ أحداً. فتح الباب بسرعة، وأطل برأسه في الاتجاهين، لكن الزقاق كان خالياً إلا من ضوء مصباح بعيد يتراقص على الجدران بفعل الريح.

أغلق الباب وعاد إلى الداخل.

كانت الورقة بلا ظرف، وبلا اسم أو عنوان. فتحها ببطء، فوجد فيها عبارة واحدة مكتوبة بخط مستعجل، بدت حروفها متداخلة وكأن صاحبها كتبها في لحظة خوف أو ارتباك:

«إذا أردت أن تعرف من أشعل النار، فابحث عمن خاف من الكتب أكثر مما خاف من الحريق.»

قرأ عامر العبارة مرة، ثم أعاد قراءتها. لم تكن طويلة، لكنها بدت وكأنها تخفي وراء كلماتها عالماً كاملاً من الأسرار. جلس على الأريكة ووضع الورقة أمامه.

- من الذي أرسلها؟ ولماذا اختار هذا الوقت بالذات؟ وهل كان صاحبها شاهداً على شيء لم يجرؤ على قوله أمام المحققين؟ أم أنها مجرد محاولة لتوجيه التحقيق نحو شخص بعينه؟ عاد يقرأ الجملة الأخيرة: «من خاف من الكتب أكثر مما خاف من الحريق.»

توقف عند كلمة الكتب.

تذكر رفوف المركز الثقافي التي تحولت إلى رماد، والكتب التي التهمتها النيران، وتذكر الندوات التي كان ينظمها حول التفكير النقدي ومواجهة الخرافة، والوجوه التي كانت تغادر القاعة غاضبة كلما سمع أصحابها أسئلة لا يجدون لها إجابات مقنعة.

تذكر أيضاً بعض التهديدات غير المباشرة التي تلقاها قبل الحريق، حين قال له أحدهم إن بعض الأسئلة لا ينبغي أن تُطرح، وإن هناك أموراً من الأفضل أن تبقى كما كانت.

هل كان الحريق محاولة لإسكات صوت المعرفة؟

نهض من مكانه واتجه نحو النافذة. كان الزقاق لا يزال خالياً، لكن إحساساً غريباً تملكه بأن هناك من يراقبه من مكان ما. أطفأ المصباح للحظات، وأزاح الستارة قليلاً. لم يرَ شيئاً واضحاً، سوى ظل شجرة يتحرك مع الريح.

عاد إلى الطاولة، ووضع الرسالة داخل كتاب قديم، ثم أخذ هاتفه واتصل بصديقه وليد.

جاءه صوت وليد متعباً:

- هل حدث شيء يا عامر؟

الوقت متأخر.

أجابه عامر بصوت منخفض:

- وصلتني رسالة غريبة، وأعتقد أنها قد تكون مرتبطة بحريق المركز الثقافي.

ساد الصمت للحظات، ثم قال وليد:

- ماذا كتُب فيها؟

قرأ عامر العبارة كما وردت في الورقة.

تنهد وليد وقال:

- هذا كلام خطير، لكنه ليس دليلاً على شيء. قد يكون صاحبه يعرف شيئاً، وقد يكون يريد فقط أن يزرع الشكوك في رأسك.

قال عامر:

- هذا ما أفكر فيه. لكن لماذا يختار الكتب تحديداً؟ ومن الذي يمكن أن يخاف منها إلى درجة إحراق مكان يحتضنها؟

أجابه وليد بحزم:

لا تحاول أن تحقق وحدك. لا تواجه أحداً بناء على رسالة مجهولة. عليك أن تسلمها إلى الجهات المختصة، وتشرح لهم كيف وصلتك. إذا كان صاحبها يعرف شيئاً، فقد تساعدهم على الوصول إليه.

ظل عامر صامتاً قليلاً، ثم قال:

- سأفعل ذلك صباحاً. لا أريد أن أفسد التحقيق بتصرف متسرع.

في تلك الليلة لم يستطع النوم بسهولة. كانت الرسالة تستحوذ على تفكيره، وكلما أغلق عينيه عادت إليه صورة المركز الثقافي وهو يحترق، وصورة الكتب المتفحمة التي عثر عليها رجال الحماية المدنية بين الأنقاض.

وقبل الفجر بقليل، خطر له سؤال لم يفكر فيه من قبل:

- ماذا لو لم يكن الهدف من الحريق تدمير المركز الثقافي فحسب، بل تدمير كل ما كان يجري داخله من نقاشات وأسئلة ومحاولات لتحرير العقول من الخوف؟

في صباح اليوم التالي، توجه عامر إلى الجهة المختصة المكلفة بمتابعة التحقيق في الحريق. كان يحمل الرسالة داخل غلاف شفاف حتى لا تتعرض للتلف.

استقبله أحد المحققين، وبعد تبادل التحية سأله :

- هل ظهرت معلومات جديدة تتعلق بالقضية؟

أخرج عامر الورقة ووضعها فوق المكتب.

- وصلتني هذه الرسالة الليلة الماضية، وكانت مدسوسة تحت باب منزلي. لا أعرف من وضعها، ولا أستطيع الجزم بصحة ما ورد فيها، لكنني رأيت من واجبي تسليمها إليكم.

تناول المحقق الورقة وقرأها بتمعن. تغيرت ملامح وجهه قليلاً، ثم رفع عينيه نحو عامر.

- هل تعرف الخط؟

- لا. لم أرَ هذه الكتابة من قبل.

- هل سبق أن تلقيت تهديدات؟.

- نعم، كانت هناك خلافات كلامية مع بعض الأشخاص بسبب الأنشطة التي نظمناها في المركز، لكنني لا أتهم أحداً دون دليل.

سأله المحقق:

- هل تتذكر أشخاصاً أبدوا عداءً واضحاً للكتب أو للأنشطة الثقافية التي كنتم تنظمونها؟

فكر عامر قليلاً، ثم أجاب:

- لا أريد أن أخلط بين الاختلاف في الرأي والعداء. من حق أي شخص أن يعارض أفكارنا أو ينتقد أنشطتنا، لكن إذا تحول الاعتراض إلى تهديد أو اعتداء، فالأمر يصبح مختلفاً. أعتقد أن عليكم فحص جميع الاحتمالات.

أومأ المحقق برأسه، ثم طلب من زميله تسجيل ظروف وصول الرسالة وتاريخ تسليمها، وأمر بحفظها ضمن وثائق القضية، مع إمكانية إخضاعها للفحص الفني ومحاولة تحديد مصدرها.

وقبل أن يغادر عامر، سأله المحقق:

- هل تعتقد أن صاحب الرسالة يعرف الفاعل؟

أجابه عامر:

- لا أعرف. لكنه ربما يعرف شيئاً عن الدافع، وهذا وحده يستحق التحقيق.

قال المحقق:

- سنأخذ الأمر بعين الاعتبار، لكن تذكر أن الرسائل المجهولة قد تكون أحياناً وسيلة لتضليل التحقيق، فلا نبني عليها اتهاماً قبل التحقق.

غادر عامر المكان وهو يشعر أن خطوة صغيرة قد اتخذت في طريق طويل، لكنه لم يكن يعلم أن الرسالة ستفتح أمام المحققين مساراً جديداً من البحث.

في المساء، جلس وليد مع عامر أمام المنزل.

سأله وليد :

- هل سلمت الرسالة؟.

- نعم، وأخذوا الموضوع بجدية.

- وهل طلبوا منك أسماء؟

- سألوني عن الأشخاص الذين عارضوا أنشطة المركز، لكنني لم أذكر اسماً محدداً. لا أريد أن يتحول التحقيق إلى تصفية حسابات.

قال وليد :

- لكن العبارة واضحة، هناك من أراد إسكاتكم.

أجابه عامر :

- ربما، لكن علينا أن نعرف الحقيقة، لا أن نختار شخصاً ونبحث عما يدينه. العقل الذي ندافع عنه يجب أن يكون عادلاً حتى مع من نختلف معهم.

وبينما كانا يتحدثان، مر رجل مسرعاً أمام المنزل، ثم توقف للحظة والتفت نحوهما قبل أن يواصل طريقه.

لاحظ وليد ذلك وقال :

- هل تعرفه؟

نظر عامر إلى الاتجاه الذي اختفى فيه الرجل.

- أظن أنني رأيته من قبل، لكنني لا أتذكر أين.

لم يعلّق وليد، غير أن نظراتهما ظلت معلقة بالزقاق حتى اختفى الرجل تماماً.

وفي تلك اللحظة، اهتز هاتف عامر برسالة من رقم مجهول. فتحها، فوجد فيها كلمات قليلة:

«لم يكن الحريق الأول، ولن يكون الأخير إذا واصلت البحث.»

تجمدت عيناه للحظات.

قرأ الرسالة مرة ثانية، ثم ناول الهاتف لوليد.

قال وليد بقلق :

- يبدو أن الأمر أكبر مما كنا نتصور.

أغلق عامر الهاتف ووضعه على الطاولة، ثم قال بصوت هادئ يخفي وراءه غضباً عميقاً :

- من يحرق الكتب يخاف الأفكار، ومن يهدد الباحث عن الحقيقة يخاف أن تنكشف أسراره. لن أتهم أحداً، ولن أتراجع عن البحث.

كان الليل قد أرخى سدوله على «عين النسر»، وعادت الأزقة إلى صمتها المعتاد، لكن عامر أدرك أن الصمت هذه المرة لم يكن علامة على انتهاء الخطر، بل ربما كان دليلاً على أن شخصاً ما بدأ يشعر بأن أسراره أصبحت مهددة.

أما الرسالة الأولى، فقد بقيت محفوظة لدى المحققين، تحمل عبارة واحدة قد تقود إلى الحقيقة، أو قد تكون فخاً جديداً في طريقها.

وللمرة الأولى، لم يعد السؤال في «عين النسر»: من أحرق المركز الثقافي؟ بل: من كان يخشى أن يقرأ الناس ما كانت كتبه تكشفه؟

الفصل الثامن عشر:
امتحان العقل

لم تكن قاعة المركز الثقافي في «عين النسر» تتسع لذلك العدد الكبير من الحاضرين. فقد انتشر الخبر في القرية منذ أيام، وأصبح موضوع المناظرة حديث المجالس والمقاهي وحتى الحقول. كان البعض يرى أنها فرصة لمناقشة أفكار ظلت محصنة بالصمت لعقود، بينما اعتبرها آخرون محاولة للتشكيك في تاريخ الأجداد والاستهانة بما تركوه من عادات ومعتقدات.

نظم المركز الثقافي مناظرة عامة بعنوان:

«بين الموروث والتفكير النقدي: هل نحترم الماضي أم نراجعه؟»

لم يكن الهدف إثبات أن كل الموروث خطأ، بل مناقشة كيفية التمييز بين العادات النافعة والمعتقدات التي قد تسبب الضرر.

حضر معلمون منهم من تقاعد وطلاب وفلاحون وشيوخ وشباب، وجلس رجال من أجيال مختلفة في صفوف متقابلة. كان في مقدمة الحاضرين الشيخ فاضل، الذي جاء هذه المرة دون أن يعلن موقفه، وجلس إلى جانبه عاشور، صاحب المنتجات التي أثارت حولها شكاوى كثيرة في القرية. أما عائشة فكانت تجلس قرب الطبيب كمال، تحمل دفترها الأزرق وتستعد لتدوين الملاحظات.

وقف عامر أمام الحاضرين، وانتظر حتى خفتت الأصوات، ثم قال:

- أشكركم على حضوركم. أريد أن أوضح منذ البداية أن هذه المناظرة ليست محاكمة للأجداد، وليست دعوة إلى التخلي عن عاداتنا وتقاليدنا. نحن أبناء تاريخ طويل، ولا يمكن لأمة أن تعيش بلا ذاكرة. لكن السؤال الذي ينبغي أن نطرحه هو:

- هل كل ما ورثناه عن أجدادنا صحيح؟ وهل يصبح الاعتقاد صحيحاً لمجرد أن أجيالاً متعاقبة آمنت به؟

ساد الصمت لحظات، ثم أضاف:

- دعونا نتفق على قاعدة أساسية: احترام الإنسان الذي سبقنا لا يعني أن نمنح كل أفكاره حصانة من السؤال. فقد يكون أجدادنا عظماء في شجاعتهم وكرمهم وتجاربهم، لكنهم، مثلنا، بشر يخطئون ويصيبون.

رفع رجل مسن يده، وكان من أقدم فلاحي القرية، وقال:

- يا بني، نحن لم نصل إلى ما وصلنا إليه بالكتب والدراسات وحدها. أجدادنا عرفوا الأرض والطقس والزراعة والمرض، وكانت لهم تجارب لا ينبغي أن تحتقرها الأجيال الجديدة.

ابتسم عامر وقال:

- أتفق معك تماماً. بل إن المعرفة التي واكبها الأجداد في الزراعة والطب الشعبي ومراقبة الطبيعة تستحق الدراسة

والتوثيق. لكن هناك فرقاً بين التجربة والمعتقد. التجربة يمكن اختبارها ومقارنتها وتطويرها، أما الاعتقاد الذي لا يقبل الاختبار ولا يسمح بالسؤال فقد يتحول إلى عائق أمام المعرفة.

تدخل معلم العلوم، قائلاً:

- العلم لا يطلب منا أن نرفض كل ما هو قديم، بل يطلب منا أن نبحث عن الدليل. خذوا مثلاً معرفة الفلاحين بمواسم المطر واتجاه الرياح وأنواع التربة. لقد واكبوا خبرات مهمة عبر أجيال. لكن عندما يقول أحدهم إن كسوف الشمس يحدث لأن قوة غيبية غاضبة تعاقب الناس، فإننا ننتقل من الملاحظة الطبيعية إلى تفسير لا يستند إلى دليل علمي.

رفع أحد الشباب صوته:

- ولكن أستاذ، أليس العلم نفسه يتغير؟ أليست هناك نظريات علمية كانت مقبولة ثم ثبت خطؤها؟ أجاب المعلم: بالتأكيد. وهذه إحدى نقاط قوة العلم، لا ضعفه. العلم لا يدعي امتلاك الحقيقة النهائية في كل مسألة، بل يطور تفسيراته عندما تظهر أدلة أقوى. النظرية العلمية ليست مجرد رأي شخصي، وإنما تفسير يستند إلى ملاحظات وتجارب وأدلة قابلة للفحص والتكرار.

تدخل عامر:

- هنا يظهر الفرق بين التفكير العلمي والتفكير الخرافي. التفكير العلمي يقول: ربما أكون مخطئاً، فلنبحث عن الدليل. أما التفكير الخرافي فيقول: أنا على حق، ومن يسألني فهو عدو للحقيقة.

ضحك بعض الحاضرين، بينما بدا الانزعاج على وجه عاشور.

رفع الشيخ فاضل يده وقال:

- كلامكم جميل، لكنني أخشى أن يؤدي هذا التفكير إلى أن يصبح كل شاب قاضياً على أجداده، فيرفض ما لا يفهمه، ويعتبر كل عادة قديمة خرافة.

أجابه عامر بهدوء:

- وهذا ما لا ندعو إليه يا شيخ. التفكير النقدي لا يعني رفض كل شيء، بل يعني التمييز. هناك عادات تحفظ التضامن بين الناس، مثل إكرام الضيف والتعاون في مواسم الحصاد ومساعدة المحتاج. وهناك ممارسات قد تكون مؤذية، مثل منع المريض من العلاج بحجة أن مرضه سببه الحسد، أو تخويف الأطفال بقصص لا أساس لها حتى يعيشوا في رعب دائم.

قالت عائشة، بعد أن استأذنت في الكلام:

- أريد أن أضيف مثالاً من واقع الفتيات. بعض العادات كانت تنظم حياة الأسرة وتحافظ على التضامن، لكن بعضها الآخر

تحول إلى قيود تمنع الفتاة من التعليم واختيار مستقبلها.
وعندما نسأل عن سبب ذلك، يكون الجواب أحياناً:
- هكذا وجدنا آباءنا يفعلون.
التفتت إليها نساء في القاعة، وأومأت إحداهن بالموافقة.
تابعت عائشة:
- هل يكفي أن تكون العادة قديمة حتى تكون عادلة؟ وهل يمكن أن نطلب من فتاة أن تتخلى عن حلمها في الدراسة لمجرد أن المجتمع اعتاد رؤية الفتاة في دور محدد؟
قال رجل من الصف الخلفي:
- لكن لكل مجتمع خصوصيته، ولا يمكن أن نستورد أفكار الآخرين دون مراعاة قيمنا.
أجاب عامر:
- صحيح، لا ينبغي أن نقلد الآخرين دون تفكير، كما لا ينبغي أن نرفض كل جديد لأنه جاء من خارج مجتمعنا. الفكرة لا تصبح صحيحة بجنسية صاحبها، ولا تصبح خاطئة لأنه ينتمي إلى ثقافة أخرى. نحن نزن الأفكار بأدلتها ونتائجها ومدى انسجامها مع القيم الإنسانية والأخلاقية.
هنا طلب الطبيب كمال الكلمة، فوقف وأخرج ورقة صغيرة من جيبه.
قال:

- أريد أن أتحدث عن الموروث الصحي. في الطب الشعبي وصفات كثيرة، بعضها قد تكون له فوائد فعلية، وبعضها لم تثبت فعاليته، وبعضها قد يكون ضاراً. المشكلة تبدأ عندما تتحول الوصفة إلى بديل عن التشخيص والعلاج الطبي، أو عندما يطلب من المريض ترك الدواء لأنه مصاب بالعين أو لأن قوة مجهولة تسكن جسده.

ثم أضاف :

- هناك فرق علمي بين الارتباط والسببية. إذا تناول شخص عشبة معينة ثم تحسنت حالته، فهذا لا يثبت وحده أن العشبة هي سبب التحسن. ربما كان المرض سيتحسن تلقائياً، أو كان يتناول علاجاً آخر، أو كان التحسن مؤقتاً. لإثبات الفعالية نحتاج إلى دراسات مضبوطة، ومجموعات مقارنة، ونتائج قابلة للتكرار.

رفع أحد الحاضرين يده وقال :

- وهل يعني هذا أن كل ما تعلمناه من أمهاتنا وجداتنا في العلاج لا قيمة له؟

أجاب كمال:

- أبداً. المعرفة الشعبية تستحق البحث، وقد تكون منطلقاً لاكتشاف مواد نافعة. لكن علينا أن نختبرها قبل استخدامها

في علاج الأمراض. احترام خبرة الجدة لا يعني أن نعرض حياة المريض للخطر.

ساد تصفيق خفيف في القاعة.

كان عاشور يتابع النقاش بقلق، ثم قرر التدخل:

- أنتم تتحدثون عن العلم وكأنه قادر على تفسير كل شيء. لكن الناس لا يعيشون بالتحاليل والأرقام وحدها. هناك أمور يشعر بها الإنسان ولا يستطيع إثباتها في المختبر.

التفت إليه عامر وقال:

- لا أحد ينكر أن للإنسان مشاعر وتجارب شخصية لا يمكن اختزالها في الأرقام. لكن عندما تقدم ادعاءً للناس وتطلب منهم المال بناء عليه، فإنك تنتقل من تجربتك الخاصة إلى مسؤولية عامة. وإذا قلت لشخص إن منتجك يحميه من الحسد أو يجلب له الحظ أو يمنع عنه المصائب، فمن حقه أن يسألك:

- ما الدليل؟

قال عاشور بنبرة حادة:

- وماذا عن الناس الذين اشتروا منتجاتي وشعروا بالراحة بعدها؟

أجابه الطبيب كمال:

- الشعور بالراحة أمر حقيقي بالنسبة لصاحبه، لكنه لا يثبت بالضرورة صحة التفسير الذي قدمته له. في علم النفس توجد ظاهرة معروفة تسمى تأثير التوقع، أو تأثير الدواء الوهمي. فقد يشعر الإنسان بتحسن نتيجة اعتقاده بأن شيئاً ما سيساعده، حتى لو لم تكن لذلك الشيء فعالية علاجية محددة.

تدخل أستاذ العلوم:

- وهناك أيضاً ما يسمى الانحياز التأكيدي. الإنسان يميل إلى تذكر الحالات التي تؤكد اعتقاده، ويتجاهل الحالات التي تناقضه. فإذا اشترى شخص منتجاً ثم حدثت له مصادفة سعيدة، نسب ذلك إلى المنتج، لكنه قد لا يتذكر عشرات المرات التي استخدمه فيها ولم يحدث شيء.

قال عامر:

- وهذا بالضبط ما يجعل التفكير النقدي ضرورياً. نحن لا نسأل فقط:

- من الذي تحسن؟

بل نسأل أيضاً:

- كم شخصاً استخدم المنتج ولم يتحسن؟ وما الظروف الأخرى التي رافقت التجربة؟ وهل يمكن تكرار النتيجة عند أشخاص مختلفين؟

رفع الشيخ فاضل رأسه وقال:

- لكن الناس يحتاجون إلى من يطمئنهم، خصوصاً عندما يواجهون المرض والمصائب. لا يمكن أن نتركهم وحدهم في لحظات الضعف.

أجابه عامر:

- صحيح، الإنسان يحتاج إلى المواساة والإيمان والأمل، لكنه يحتاج أيضاً إلى الصدق. ليس من الرحمة أن نخيف المريض حتى نسيطر عليه، ولا من الحكمة أن نبيع له الوهم تحت غطاء النصيحة. يمكننا أن نواسيه ونقف إلى جانبه ونشجعه على الدعاء، وفي الوقت نفسه نوجهه إلى الطبيب ونبحث عن الأسباب الحقيقية لمشكلته.

سكت الشيخ فاضل، وبدا أنه يفكر في الكلمات.

في تلك اللحظة، وقف أحد الطلاب وقال:

- أستاذ عامر، أريد أن أطرح سؤالاً أصعب. إذا كان علينا أن نراجع الموروث بالعقل، فمن يحدد لنا ما هو النافع وما هو الضار؟ أليس العقل نفسه معرضاً للخطأ والتأثر بالمصالح والأهواء؟

أعجب عامر بالسؤال، وقال:

- سؤال مهم. العقل الفردي وحده لا يكفي دائماً، ولهذا نحتاج إلى أدوات تساعدنا على تصحيح أخطائنا، مثل الحوار،

والبحث العلمي، وتعدد الآراء، ومراجعة المصادر، والاستماع إلى المختصين. لا ينبغي أن يكون الإنسان أسير رأيه، بل عليه أن يقارن بين الأدلة ويقبل تصحيح موقفه.

ثم اقترب من السبورة وكتب ثلاث كلمات :

الدليل... التجربة... النتيجة .

وقال :

- عندما نواجه أي فكرة أو ممارسة، يمكن أن نطرح ثلاثة أسئلة: ما الدليل الذي تستند إليه؟ هل يمكن اختبارها بطريقة موضوعية؟ وما النتائج التي تترتب عليها؟

وأضاف :

- إذا كانت عادة اجتماعية تساعد على التعاون ولا تضر أحداً، فلماذا نرفضها؟ وإذا كان اعتقاد ما يؤدي إلى حرمان طفل من العلاج أو منع فتاة من التعليم أو استغلال خوف الناس للحصول على أموالهم، فلماذا نحميه باسم احترام الماضي؟

ارتفعت الأصوات في القاعة، وتداخلت الآراء.

قال أحد الشيوخ :

- نحن لا نريد أن نفقد هويتنا.

فرد شاب :

- وهل هويتنا أضعف من أن تحتمل السؤال؟

قال رجل آخر :

- بعض العادات تربطنا بأجدادنا وتشعرنا بالانتماء.

فأجابه أستاذ العلوم:

- الانتماء لا يتعارض مع المعرفة. يمكننا أن نحافظ على لباسنا ولهجتنا وأغانينا وأمثالنا وحكاياتنا الشعبية، وأن نوثق تاريخنا، وفي الوقت نفسه نرفض ما يسبب الأذى. الهوية الحية تتطور، أما الهوية التي تمنع أبناءها من التفكير فإنها تتحول إلى قيد.

كانت عائشة تراقب وجوه الحاضرين. لاحظت أن بعض النساء بدأن يتحدثن فيما بينهن، وأن الطلاب الذين حضروا مترددين صاروا يرفعون أيديهم بثقة أكبر.

ثم وقعت لحظة غير متوقعة.

وقف جعفر، الذي فقد ابنه بعد أن تأخر في طلب العلاج، وكان يجلس في آخر القاعة. بدا متعباً، لكنه تقدم ببطء نحو المنصة.

قال بصوت خافت:

- أريد أن أحكي شيئاً، وربما يكون كلامي مؤلماً.

التفت الجميع إليه.

تابع:

- عندما مرض ابني، كنت خائفاً عليه. ذهبت به إلى من قال لي إن مرضه ليس مرضاً عادياً، وإن هناك من يتبعه. دفعت

المال، وانتظرت، وصدقت الوعود. وكلما اشتد مرضه قيل لي إن الأمر يحتاج إلى وقت، وإن الشك في العلاج قد يفسده. كنت أبحث عن أمل، ولم أفهم أنني أضيع الوقت.

توقف قليلاً، ومسح عينيه.

- لا أتهم كل من يقدم نصيحة شعبية، ولا أقول إن كل الناس سيئون. لكنني تعلمت متأخراً أن الخوف قد يجعل الإنسان يصدق ما لا يصدقه في الظروف العادية. لو عدت إلى ذلك اليوم، لأخذت ابني إلى الطبيب فوراً، ولما سمحت لأحد أن يمنعني من ذلك.

لم يتكلم أحد.

كان عاشور ينظر إلى الأرض، بينما خفض الشيخ فاضل رأسه. أما عامر فاقترب من جعفر ووضع يده على كتفه، وقال:

- شهادتك شجاعة يا جعفر، وما حدث لا ينبغي أن يتحول إلى سبب لجلد الذات، بل إلى درس يحمي الآخرين.

جلس جعفر، وظلت كلماته معلقة في القاعة كأنها جرس إنذار.

بعد لحظات، طلب الشيخ فاضل الكلام.

وقف ببطء، وقال:

- ربما أخطأنا عندما جعلنا بعض الناس يخافون من السؤال. وربما خلطنا أحياناً بين النصيحة وبين ما تعودنا عليه. لكنني

أريد أن أقول إن الإيمان لا ينبغي أن يكون وسيلة لاستغلال الناس، وإن من يدعي امتلاك القدرة على معرفة كل أسباب المصائب لا بد أن يسأل عن دليله.

كانت كلماته مفاجئة، حتى إن عامر تبادل النظرات مع عائشة.

قال الشيخ:

- لا أطلب من الناس أن يصدقوني لمجرد أنني شيخ، كما لا أطلب منهم أن يصدقوا غيري لمجرد أنه يحمل شهادة جامعية. فليكن الدليل هو الحكم، وليكن الإنسان بعيداً عن الاستغلال.

لم يصفق الجميع، لكن الصمت هذه المرة لم يكن صمت الخوف، بل صمت التأمل.

في نهاية المناظرة، عاد عامر إلى المنصة، ونظر إلى الحاضرين قائلاً:

- أريد أن أطرح عليكم السؤال الذي بدأنا به:

هل كل ما ورثناه عن أجدادنا صحيح؟

ثم أجاب بنفسه:

. - لا. وليس كل ما ورثناه خاطئاً أيضاً. لقد ترك لنا الأجداد كنوزاً من الحكمة والخبرة والشجاعة والتضامن، وتركوا لنا كذلك أفكاراً كانت مرتبطة بظروف زمانهم ومعارف عصرهم. واجبنا ليس أن نهدم الماضي، ولا أن نعيش أسرى له، بل أن

نأخذ منه ما ينفعنا، ونراجع ما يحتاج إلى مراجعة، ونترك ما ثبت ضرره.

الفصل التاسع عشر:
حين انكشف الوهم

لم تكن «عين النسر»، في ذلك الصباح، تشبه القرية التي عرفها أهلها طوال سنوات. كان شيء ما قد تغير في وجوه الناس، وفي نظراتهم المتبادلة، وحتى في الأحاديث التي كانت تدور عند أبواب الدكاكين وتحت ظلال الأشجار العتيقة. لم تعد الهمسات تدور حول الأشباح والحسد والجن وحدها، بل أصبح اسم عاشور يتردد في كل مكان، مقرونًا بكلمات لم يكن أحد يجرؤ على نطقها بصوت مرتفع من قبل.

لقد بدأت الحقيقة تظهر، لا دفعة واحدة كما يحدث في الحكايات، بل ببطء، من خلال وثائق وفواتير وشكاوى وشهادات ظلت حبيسة الأدراج أشهرًا طويلة.

وفي صباح يوم الخميس، انتشر الخبر في السوق الأسبوعي كالنار في الهشيم.

كان أحد التجار يقرأ رسالة وصلته على هاتفه، ثم رفع رأسه وقال للرجل الذي يقف بجانبه:

- هل سمعت؟ لقد بدأت الإجراءات القانونية ضد عاشور بسبب مخالفات في تسويق منتجاته !

اقترب منه رجل ثالث وسأله بلهفة :

- أي منتجات؟

- تلك التي كان يقول إنها تحمي من العين والحسد؟

أجابه التاجر وهو يعيد قراءة الرسالة :

- نعم، بعض الوعود التي كان يقدمها للناس لم تكن تستند إلى أدلة، وهناك شكاوى تتعلق باستعمال التخويف لدفع الزبائن إلى الشراء.

ساد صمت قصير، ثم انفجر السوق بالأسئلة.

قال رجل مسن وهو يهز رأسه:

- كنت أشتري منه كل شهر. كان يقول لي إن البيت لن يسلم من المصائب ما لم أشترِ تلك الأشياء!

وأضاف آخر، وقد بدا عليه الغضب:

- أما أنا، فقد أقنعني بأن ابني لن ينجح في حياته ما لم أقتنِ منتجًا خاصًا لجلب الحظ. دفعت له مالًا كنت قد ادخرته لشراء دواء لزوجتي.

تدخل شاب كان يستمع إليهما:

- وهل كان يجبركم على الشراء؟

التفت إليه الرجل المسن وقال:

- لم يكن يضع السكين على رقابنا، لكنه كان يعرف كيف يخيفنا. كان يتحدث عن أمور لا نستطيع رؤيتها، ثم يجعلنا نشعر بأننا سنكون في خطر إن لم ندفع له المال.

قال الشاب بهدوء:

- وهذا هو الأمر الذي يجب أن نفهمه. ليس كل من يخيف الناس يحمل سلاحًا في يده؛ بعضهم يعرف كيف يجعل الخوف نفسه سلاحًا.

تبادل الرجال النظرات، وكأن كلمات الشاب قد وضعت أيديهم على جرح ظل مفتوحًا سنوات طويلة.

في زاوية السوق، وقف عاشور داخل محله الصغير. كان يراقب حركة الناس من خلف الباب نصف المفتوح، وقد اختفت من وجهه ابتسامته المعتادة. كانت الرفوف لا تزال تحمل العلب والأكياس والزجاجات التي اعتاد عرضها، لكن تلك الأشياء التي كانت تمنحه سلطة غريبة على عقول بعض الزبائن أصبحت الآن موضع شك.

دخل عليه رجل كان من زبائنه الدائمين، ووضع على الطاولة علبة صغيرة اشتراها قبل أشهر.

قال الرجل:

- أريد أن أسألك سؤالًا يا عاشور.

حاول عاشور أن يستعيد هدوءه.

- تفضل، ماذا تريد؟

أشار الرجل إلى العلبة وقال:

- قلت لي إن هذه ستحميني من الحسد، وإن المصائب ستبتعد عن بيتي إذا احتفظت بها. دفعت لك ثمنها، وكنت أعود إليك

كلما حدثت مشكلة في عائلتي. الآن أريد أن أعرف: على أي أساس قلت لي ذلك؟

تغيرت ملامح عاشور، وأخذ يقلب العلبة بين أصابعه.

- يا أخي، الناس يشترون هذه الأشياء منذ زمن طويل، وأنا لم أخترع شيئًا جديدًا.

رد الرجل:

- لم أسألك عما يشتريه الناس. سألتك عن الدليل الذي جعلك تؤكد لي أنها تحميني.

حاول عاشور تغيير الموضوع:

- أنت تعرف أن الحياة مليئة بالأسرار، وليس كل شيء يمكن تفسيره.

اقترب الرجل منه وقال بصوت خافت، لكنه حازم:

- صحيح، ليس كل شيء نعرفه. لكن جهلنا بشيء لا يمنحك الحق في أن تخترع له تفسيرًا، ثم تبيع لنا الخوف في علبة صغيرة.

لم يجد عاشور جوابًا مناسبًا.

خرج الرجل من المحل دون أن يرفع صوته أو يهدده. غير أن وقع كلماته كان أثقل على عاشور من أي شجار. فقد بدأ يدرك أن المشكلة لم تعد في الوثائق التي وصلت إلى الجهات

المختصة وحدها، بل في الناس الذين أخذوا يستعيدون أسئلتهم القديمة.

كان طوال سنوات يعتقد أن سر قوته يكمن في معرفته بما يخافه الآخرون. أما الآن، فقد اكتشف أن الخوف الذي جمع حوله الزبائن يمكن أن يتحول إلى شك، وأن الشك قد يقودهم يومًا إلى طلب الدليل.

في الجهة الأخرى من القرية، كان الشيخ فاضل يجلس في فناء منزله الواسع، يحتسي الشاي حين دخل عليه رجل من معارفه دون موعد.

لم يعتد الشيخ أن يستقبل ضيوفه بهذه الطريقة، لكنه لاحظ منذ أيام أن الناس أصبحوا يتجنبون النظر إليه طويلًا، وأن بعضهم يتوقف عن الحديث عندما يقترب منهم.

قال الرجل بعد أن جلس:

- يا شيخ فاضل، أريد أن أسألك عن أمر يشغل أهل القرية.

وضع الشيخ كأسه على الطاولة.

- اسأل.

- ما حقيقة ما كان يقوله عاشور عن منتجاته؟ وهل كنت تعرف أنه يخيف الناس حتى يشتريها؟

تصلبت ملامح الشيخ للحظة، ثم قال:

- وما علاقتي أنا بما يبيعه عاشور؟ لكل إنسان عمله ومسؤوليته. قال الرجل:

- لم أقل إنك تبيعها، لكنك كنت تحضر بعض مجالسه، وكان الناس يسمعون كلامك ويثقون بك.

أجاب الشيخ بنبرة حاول أن يجعلها واثقة:

- أنا لا أتحمل مسؤولية كل ما يفعله الآخرون.

نهض الرجل ببطء، ثم قال:

- ربما. لكن من يتحدث أمام الناس بصفته صاحب علم، عليه أن يكون أكثر حرصًا على ما يقوله، لأن كلماته قد تدفع إنسانًا إلى الخوف، أو تحرمه من العلاج، أو تجعله يصدق أن مصيبته سببها شخص بريء.

لم يرد الشيخ.

تابع الرجل:

- نحن لا نطلب منك أن تعرف كل شيء، لكننا نريد منك ألا تجعل ما لا تعرفه حقيقة مؤكدة في عقول الناس.

ثم غادر.

ظل الشيخ فاضل جالسًا في مكانه، ينظر إلى كأس الشاي الذي برد بين يديه. كان قد اعتاد أن يأتيه الناس حاملين أسئلتهم ومخاوفهم، وأن يغادروا وهم يعتقدون أنهم حصلوا

على أجوبة. أما اليوم، فقد بدأ بعضهم يأتون بأسئلة لا تكفيها العبارات الغامضة، ولا تسكتها نبرة الصوت المرتفعة.

وكان أكثر ما أزعجه أن اسم عامر عاد يتردد في تلك الأحاديث.

في المساء، اجتمع عدد من سكان «عين النسر» أمام المركز الثقافي الذي أعيد افتتاحه بعد حادثة الحريق. لم يكن الاجتماع رسميًا، ولم يوجه أحد دعوة مكتوبة إليه، لكن الناس جاؤوا لأنهم شعروا بأن القرية تقف أمام لحظة لا يمكن تجاهلها.

كان عامر يجلس قرب النافذة، وإلى جانبه الطبيب كمال و عائشة وبعض شباب القرية. وعلى الطاولة أمامهم أوراق ودفاتر ونسخ من منشورات قديمة كان عاشور يروج فيها لمنتجاته.

دخل رجل غاضب وقال:

- الآن ظهرت الحقيقة! لقد خدعنا عاشور، ويجب أن يدفع ثمن كل ما فعله.

وقال آخر:

- بل يجب أن نذهب إليه جميعًا ونستعيد أموالنا بالقوة.

ارتفعت الأصوات، وكادت القاعة تتحول إلى ساحة خصام. رفع عامر يده طالبًا الهدوء.

- أرجوكم، اجلسوا قليلًا. لقد انتظرنا طويلًا حتى تظهر الحقيقة، فلا تجعلوا الغضب يفسد ما بدأناه.

قال أحد الحاضرين:

- وهل تريدنا أن نسكت بعد كل ما حدث؟

أجابه عامر:

- لا أطلب منكم السكوت، بل أطلب أن نميز بين المطالبة بالحق والانتقام. هناك مخالفات ظهرت في طريقة تسويق بعض المنتجات، وهناك إجراءات قانونية بدأت بالفعل. من تضرر فليحتفظ بما لديه من فواتير ووثائق، وليقدم شكواه إلى الجهات المختصة. أما أن نتهمه بكل مصيبة وقعت في القرية، فذلك ليس عدلًا.

تدخل رجل من الصف الأخير :

- لكننا نعرف أنه كان يخيف الناس، ويقول لهم إنهم سيصابون بالمكروه إن لم يشتروا منه !

قال عامر :

- إذا ثبت ذلك، فيجب أن يتحمل مسؤوليته وفق القانون. لكن هل يعني هذا أننا نستطيع أن ننسب إليه الحريق أيضًا؟

صمت الرجل.

واصل عامر :

- لقد احترق جزء من المركز الثقافي، وفقدنا كتبًا جمعناها بجهد سنوات. كانت لدينا شكوك، وكانت لدينا مخاوف، لكن التحقيقات لم تثبت أن عاشور هو من تسبب في الحريق. لا يجوز أن نحول الشك إلى إدانة، حتى لو كنا نختلف معه أو نرفض ما فعله.

نظر الطبيب كمال إلى الحاضرين ثم قال:

- الأمر نفسه ينطبق على الصحة. لا يجوز أن نثبت خطأ شخص في مسألة، ثم نعتبر كل ما يتعلق به خطأ بالضرورة. نحن نحتاج إلى الأدلة، لا إلى مشاعرنا وحدها.

قالت عائشة:

- وربما تكون هذه أول مرة يفهم فيها بعض الناس أن السؤال ليس عيبًا، وأن الاعتراف بعدم المعرفة أفضل من تصديق أي شخص يقدم نفسه بوصفه مالكًا للحقيقة.

التفت إليها عامر مبتسمًا.

- هذا ما نحاول أن نتعلمه جميعًا.

ساد القاعة هدوء مختلف.

لم يكن هدوء الخوف الذي اعتادته القرية، بل هدوء أشخاص بدأوا يفكرون فيما سمعوه، ويحاولون التمييز بين الحقيقة والرغبة في الانتقام.

رفع رجل مسن يده وقال:

- أريد أن أعترف بشيء.

التفت الجميع إليه.

قال بصوت متردد:

- عندما مرض حفيدي، ذهبت به إلى من قالوا إنه يستطيع حمايته من العين. دفعت المال، ولم يتحسن حاله. كنت خائفًا، ولم أعرف ماذا أفعل. واليوم أفهم أن خوفي جعلني أصدق كلامًا لم أطلب عليه دليلًا .

لم يسخر منه أحد.

قال الطبيب كمال:

- لا تلُم نفسك لأنك خفت. المهم أن نعرف كيف نتصرف عندما يتكرر المرض. نطلب المساعدة الطبية، ونبحث عن السبب، ولا نؤخر العلاج بسبب وعود لا نملك ما يثبت صحتها.

خفض الرجل رأسه، ومسح عينيه بطرف كمه.

وفي تلك اللحظة، شعر عامر أن شيئًا مهمًا يحدث داخل القرية. لم تكن المسألة انتصارًا شخصيًا له، ولم يكن الهدف أن يصفق الناس لأفكاره. لقد بدأ بعضهم يعترفون بأخطائهم دون أن يخجلوا، وهذه خطوة قد تكون أصعب من اتهام الآخرين.

في اليوم التالي، جلس عاشور وحده في محله بعد أن غادر آخر زبائنه. أخرج من درج الطاولة دفترًا قديمًا سجل فيه

أسماء بعض المشترين والمبالغ التي دفعوها. قلب صفحاته ببطء، وتوقف عند اسم امرأة كانت تأتي إليه كل شهر تقريبًا. تذكر يوم دخلت عليه وهي تبكي لأن ابنها كان مريضًا، وكيف أخبرها أن ما يحدث قد يكون نتيجة حسد شديد، ثم أقنعها بشراء منتج لم يكن لديه دليل على قدرته على حمايتها.

لم يكن يتذكر اسم المرض الذي أصاب الطفل، لكنه تذكر وجه الأم حين خرجت من المحل، وقد بدت أكثر خوفًا مما كانت عليه عند دخولها.

أغلق الدفتر بقوة.

كان يستطيع أن يخدع نفسه كما فعل مرات كثيرة، فيقول إن الناس هم الذين طلبوا منه تلك المنتجات، وإنه لم يجبر أحدًا على الشراء. لكنه لم يستطع تجاهل حقيقة أخرى بدأت تطارده: لقد عرف أن الناس خائفون، واستعمل خوفهم ليبيعهم ما لا يستطيع إثبات وعوده بشأنه.

ومع ذلك، لم يكن مستعدًا للاعتراف بسهولة.

قال لنفسه :

- أنا لست وحدي المسؤول. هناك من صدقني، وهناك من شجعني، وهناك من كان يأتي إليّ ويطلب مني أن أخبره بما سيحدث له.

لكن صوتًا آخر في داخله رد عليه :

- وهل ثقة الناس بك تعفيك من مسؤوليتك؟

نهض من مكانه، وفتح باب المحل، ثم نظر إلى الطريق الخالي. لأول مرة منذ سنوات، لم يعرف ماذا يقول إذا دخل عليه زبون جديد وسأله عن شيء يخشاه.

أما الشيخ فاضل، فقد أصبح موضع أسئلة كثيرة. لم يعد حضوره كافيًا لإسكات المترددين، ولم تعد عباراته الغامضة تمنح الجميع الطمأنينة التي اعتادوها.

في أحد الأمسيات، أوقفه شاب قرب المسجد بعد انتهاء الصلاة، وقال له :

- يا شيخ، أريد أن أسألك سؤالًا، وأرجو أن تجيبني بوضوح.

نظر إليه الشيخ.

- تفضل.

- عندما يأتيك إنسان خائف ويخبرك أن بيته مسكون، أو أن ابنه مصاب بالعين، أو أن جاره يتمنى له الشر، هل تساعده على البحث عن الحقيقة، أم تزيد خوفه؟

تغير وجه الشيخ.

- أنت تتحدث في أمور لا تعرفها.

قال الشاب:

- لهذا أسأل. لأنني لا أعرف، ولا أريد أن أتهم أحدًا بغير دليل.

ثم أضاف:

- إذا كنت تعرف الحقيقة، فأخبرنا بها. وإذا كنت لا تعرف، فلماذا لا تقول ذلك للناس؟

لم ينتظر الشاب جوابًا، بل انصرف بهدوء.

بقي الشيخ فاضل واقفًا للحظات، يراقب خطواته حتى اختفى عند منعطف الطريق.

كانت الأسئلة تتكاثر، وكل سؤال منها يكشف ثغرة في جدار صنعه من الهيبة والخوف. ولم يكن يخشى أن يتهمه الناس بالخطأ فحسب، بل كان يخشى أن يكتشفوا أنهم قادرون على التفكير دون الرجوع إليه في كل صغيرة وكبيرة.

بعد أيام، دعا عامر عددًا من الشباب إلى المركز الثقافي، واقترح تنظيم لقاء جديد تحت عنوان:

«كيف نحمي عقولنا من الخداع؟.»

لم يضع صورة عاشور على الإعلان، ولم يذكر اسم الشيخ فاضل، ولم يحول اللقاء إلى محاكمة علنية لأي شخص.

كتب على اللوحة الكبيرة في مقدمة القاعة ثلاث عبارات: الخوف ليس دليلًا. والشهرة ليست برهانًا. والادعاء لا يصبح حقيقة لمجرد أن كثيرين يصدقونه.

ثم وقف أمام الحاضرين وقال:

- لسنا هنا لنثبت أن شخصًا واحدًا سيئ، بل لنتعلم كيف نمنع تكرار ما حدث. قد يخطئ الإنسان لأنه لا يعرف، وقد

يصدق الخرافة لأنه خائف، وقد يستغل شخص آخر ذلك الخوف لمصلحته. لكن الطريق إلى التغيير يبدأ عندما نتوقف عن التسليم بكل ما نسمع.

رفعت عائشة يدها وسألت:

- وماذا نفعل عندما لا نستطيع التأكد من صحة الكلام؟

أجاب عامر:

- نقول إننا لا نعرف بعد، ثم نبحث. لا عيب في انتظار الدليل، ولا عيب في تغيير رأينا عندما تظهر الحقيقة. العيب أن نحول ظنوننا إلى أحكام على الناس، أو أن نستغل حاجتهم إلى الطمأنينة لنحصل منهم على المال أو النفوذ.

قال الطبيب كمال :

- وفي المسائل الصحية، يجب أن نعود إلى المختصين، وألا نسمح للخوف بأن يحرم المرضى من العلاج.

ثم أضاف عامر :

- وفي مسائل الدين، علينا أن نرجع إلى العلم الموثوق، لا إلى من يدعي امتلاك أسرار الغيب. احترام الإيمان لا يعني تصديق كل من يتحدث باسمه، كما أن احترام الموتى لا يعني استغلال قبورهم لتخويف الأحياء.

كانت القاعة تستمع إليه باهتمام. بعض الوجوه بدت نادمة، وبعضها مترددة، لكن أحدًا لم يصرخ هذه المرة مطالبًا بإسكاته.

وعندما انتهى اللقاء، اقترب منه رجل كان قد دافع عن عاشور بشدة في الماضي.

قال الرجل:

- يا عامر، ربما كنا نظلمك عندما اتهمناك بأنك تريد هدم تقاليد القرية.

أجابه عامر:

- لا أريد هدم ما يحفظ كرامة الناس ويجمعهم على الخير. أريد فقط ألا يتحول التقليد إلى وسيلة لإخافة إنسان أو ابتزاز آخر.

مد الرجل يده وصافحه.

لم تكن المصافحة إعلانًا عن انتصار نهائي، لكنها كانت علامة على أن بعض الجدران بدأت تتصدع.

في تلك الليلة، عاد عامر إلى منزله متعبًا. وجد على مكتبه رسالة قصيرة لا تحمل اسم صاحبها.

فتحها وقرأ:

«لقد انكشف بعض الوهم، لكن لا تظن أن كل شيء انتهى. هناك من خسر المال، وهناك من خسر مكانته، وهناك من يخشى أن تظهر حقائق أخرى. احذر، فالحقيقة لا تزعج

المخدوعين وحدهم، بل تزعج أيضًا الذين استفادوا من بقائهم مخدوعين.»

قرأ عامر الرسالة مرة ثانية، ثم نظر إلى النافذة.

كان الليل هادئًا، والقرية غارقة في سكونها المعتاد. لكن ذلك السكون لم يعد يعني أن الناس لا يفكرون، أو أن الأسئلة قد ماتت.

طوى الرسالة ووضعها داخل دفتره، ثم كتب تحتها:

«حين ينكشف الوهم، لا تنتهي المعركة، بل تبدأ مرحلة أصعب؛ مرحلة التمييز بين الحقيقة والانتقام، وبين الاعتراف بالخطأ وصناعة اتهامات جديدة.»

أغلق الدفتر، وأطفأ المصباح.

في الخارج، مر رجل مسرعًا في الطريق، ثم اختفى خلف البيوت القديمة.

لم يعرف عامر من كان، ولا لماذا كان يسير بتلك السرعة. لكنه أدرك أن ما حدث في «عين النسر» لم يكن نهاية الحكاية. لقد سقط جزء من الستار، وبدأ الناس يرون ما وراءه، غير أن الحقيقة الكاملة ما زالت تنتظر من يملك الشجاعة لقولها.

وفي «عين النسر»، حيث اعتاد الخوف أن يتكلم بدلًا من الناس، بدأ العقل يستعيد صوته.

الفصل العشرون:
البيت الذي سكنه الخوف

في الطرف البعيد من القرية، حيث تنتهي البيوت المتلاصقة وتبدأ الحقول الممتدة نحو التلال، كان هناك بيت صغير تتآكل جدرانه بفعل الرطوبة، وتغطي سقفه القديم ألواح من القرميد الباهت. لم يكن البيت مختلفًا عن غيره من بيوت الفقراء، غير أن الناس أحاطوه بحكايات غريبة، حتى صار بعضهم يمر بالقرب منه مسرعًا، ويتجنب آخرون النظر إلى نوافذه، وكأن وراءها سرًّا لا ينبغي لأحد أن يقترب منه.

كان ذلك بيت نصيرة، الأرملة التي عاشت سنوات طويلة تكافح من أجل ابنها الوحيد، سالم، الذي بلغ الخامسة عشرة من عمره.

مات زوجها قبل أعوام، فوجدت نفسها وحيدة في مواجهة الحياة، تحمل مسؤولية تربية ابنها وتوفير لقمة العيش له. لم تكن تملك أرضًا ولا مالًا ولا سندًا سوى ماكينة خياطة قديمة ورثتها عن أمها، وإرادة صلبة جعلتها تقاوم الفقر كما تقاوم شجرة وحيدة رياح الشتاء.

كانت تستيقظ قبل طلوع الشمس، تُعد الفطور لابنها، ثم تجلس أمام ماكينة الخياطة، تصلح ملابس النساء، وتخيط الفساتين للأطفال، وترتق ما تمزق من الثياب. كانت أصابعها تتحرك فوق القماش بخفة، بينما يدور في رأسها سؤال واحد:

كيف أضمن لسالم مستقبلًا أفضل من هذا البؤس الذي أعيشه؟

لم تكن نصيرة كثيرة الاختلاط بالناس، لا تكبرًا ولا احتقارًا لأحد، بل لأنها تعلمت، بعد وفاة زوجها، أن بعض الألسنة أشد قسوة من الفقر نفسه. كانت تفضل الصمت على الجدال، والعمل على القيل والقال، لكنها لم تكن تعلم أن صمتها سيصبح يومًا دليلًا ضدها في عيون الذين لا يبحثون عن الحقيقة.

1- الحكاية التي ولدت من لا شيء

بدأت الحكاية في شتاء بارد، حين مرضت امرأة من جاراتها، ثم لحقتها امرأة ثانية بعد أيام قليلة. كانت الأولى تعاني الحمى، أما الثانية فاشتكت من آلام في جسدها لم يعرف أهلها سببها في البداية.

وفي مجتمع لم يتعلم بعض أفراده البحث عن الأسباب الحقيقية للأمراض، تحولت المصادفة إلى لغز، واللغز إلى شبهة، والشبهة إلى اتهام.

في أحد الأيام، اجتمعت مجموعة من النساء أمام بيت أم الخير، وهي امرأة اشتهرت بترديد الحكايات القديمة، وكان حديثهن يدور حول المرض الذي أصاب الجارات.

قالت امرأة وهي تخفض صوتها:

- ألا تلاحظن أن المصائب بدأت منذ عادت نصيرة إلى الخروج من بيتها؟ ردت أخرى باستغراب:

- وما علاقة نصيرة بالمرض؟ إنها امرأة مسكينة لا تؤذي أحدًا.

هزت أم الخير رأسها، ثم قالت بنبرة من يعرف أسرارًا لا يعرفها غيره:

- أنتن لا تعرفن كل شيء. هناك أمور لا تُقال أمام الناس، وأنا سمعت حكايات عنها منذ زمن.

اقتربت منها النساء، وارتسم الفضول على وجوههن.

سألتها إحداهن:

- أي حكايات؟

ترددت أم الخير قليلًا، ثم ألقت كلمتها التي ستغير حياة امرأة بريئة:

- يقولون إن نصيرة منحوسة، وإن كل من يقترب منها تصيبه المصائب!

ساد الصمت لحظات، ثم انطلقت الأسئلة والهمسات.

- ومن قال ذلك؟ وهل حدث شيء يؤكد هذه الحكاية؟ وهل هناك دليل؟

لكن أم الخير لم تجب عن أي سؤال. اكتفت بتحريك رأسها، وكأنها تحمل سرًّا خطيرًا لا تستطيع كشفه.

وهكذا وُلد الاتهام من دون دليل، وانتقل من فم إلى آخر، حتى أصبح في نظر بعض الناس حقيقة لا تحتاج إلى برهان.

لم يسأل أحد عن طبيعة المرض، ولم يفكر أحد في استشارة الطبيب، ولم يبحثوا عن تفسير علمي لما حدث. كان من الأسهل أن يجدوا شخصًا يحمّلونه مسؤولية خوفهم، بدل أن يعترفوا بجهلهم بأسباب ما يجري حولهم.

وكانت نصيرة، بحكم وحدتها وفقرها وغياب الزوج الذي يدافع عنها، هدفًا سهلًا لهذه الحكاية.

2- المرأة التي صارت تخاف من الناس

في البداية، لم تكن نصيرة تعرف شيئًا عما يُقال عنها. كانت تلاحظ فقط أن بعض النساء توقفن عن زيارتها، وأن أخريات أصبحن يتحدثن معها ببرود لم تعهده منهن. كانت إحدى زبوناتها تأتي بقطعة قماش لتخيط لها ثوبًا، ثم تتركها عند الباب وتقول:

- سأعود لاحقًا يا نصيرة.

لكنها لا تعود .

وأخرى كانت تسلم عليها من بعيد، ثم تتراجع حين تقترب منها.

وفي أحد الأيام، جاءت امرأة تطلب منها إصلاح فستان ابنتها، لكنها حين رأت نصيرة تخرج من البيت، تراجعت خطوة إلى الوراء وقالت:

- لا داعي، لقد غيرت رأيي.

نظرت إليها نصيرة باستغراب.

- هل حدث شيء؟ هل أخطأت في حقك؟

ارتبكت المرأة، ثم أجابت:

- لا، لا شيء... لكنني مشغولة.

غادرت مسرعة، تاركة نصيرة واقفة عند الباب، تتساءل عما فعلته حتى أصبحت وجوه الناس تتغير كلما رأوها.

في المساء، دخل سالم إلى البيت، فرأى أمه جالسة أمام ماكينة الخياطة، لكنها لم تكن تعمل. كانت تنظر إلى قطعة قماش بين يديها، وكأنها تحاول أن تقرأ فيها جوابًا عن سؤال يؤلمها.

قال:

- أمي، لماذا لا تخيطين اليوم؟ رفعت رأسها وابتسمت ابتسامة باهتة.

- ليس لدي عمل كثير يا بني.

جلس بجانبها وسألها:

- وهل نفد عملك فجأة؟ كنت تعملين حتى منتصف الليل، والآن لا يأتي أحد.

حاولت أن تبدو هادئة.

- ربما لم يعد الناس بحاجة إلى الخياطة كما كانوا من قبل.

لكن سالم لم يقتنع. كان قد لاحظ، هو الآخر، أن بعض الجارات يتهامسن حين يمر بالقرب منهن، وأن بعض الأمهات ينادين أبناءهن ليبتعدوا عنه.

لم يكن يعرف السبب، لكنه كان يشعر بأن شيئًا سيئًا يحدث لأمه، وأن الجميع يعرفونه إلا هو.

اقترب منها وقال:

- أمي، هل فعلت شيئًا أغضب الناس؟

توقفت يدها عن الحركة.

نظرت إليه طويلًا، ثم قالت:

- لا يا بني. كل ما فعلته أنني عشت، وعملت، وحاولت أن أربيك بالحلال.

ثم أضافت بصوت خافت:

- ولكن الناس أحيانًا لا يحتاجون إلى سبب حتى يظلموا إنسانًا.

لم يفهم سالم كل ما تقصده، لكنه أحس بأن أمه تخفي ألمًا أكبر من قدرتها على الكلام.

3- في المدرسة... حين يصبح الظلم لعبة

كان سالم تلميذًا هادئًا، لا يحب المشاجرات، ويقضي معظم أوقاته بين الدراسة ومساعدة أمه في بعض أعمال البيت. لم يكن غنيًا، لكنه كان نظيف الثياب، حسن السلوك، يحلم بأن يصبح طبيبًا حتى يساعد الفقراء الذين لا يجدون المال للعلاج. غير أن الشائعات التي طاردت أمه بدأت تتسلل إلى حياته المدرسية.

في أحد الأيام، وبينما كان يجلس في ساحة المدرسة مع مجموعة من زملائه، اقترب منه تلميذ يُدعى خالد، وقال بابتسامة ساخرة:

- هل صحيح أن أمك تعرف أسرارًا غريبة؟

رفع سالم رأسه.

- أي أسرار؟

ضحك خالد، والتفت إلى رفاقه.

- لا تتظاهر بأنك لا تعرف! يقولون إن أمك تجلب النحس، وإن الناس يمرضون بسببها!

انفجر بعض التلاميذ بالضحك، بينما ظل سالم صامتًا، يحاول أن يستوعب الكلمات التي سمعها.

قال بصوت مرتجف:

- أمي لا تؤذي أحدًا. إنها خياطة تعمل لتطعمني وتعلمني، ولا شأن لها بما تقولون.

رد خالد:

- إذن لماذا يخاف منها الناس؟

نهض سالم غاضبًا.

- ومن قال لك إنهم يخافون منها؟ وهل رأيت دليلًا على كلامك؟

تدخل تلميذ آخر وقال:

- لا نعرف، لكن أمهاتنا يتحدثن عن ذلك.

كانت تلك العبارة أشد إيلامًا من الشتائم نفسها .

لم يكن أحد منهم قد رأى شيئًا، ولم يكن لديهم دليل، لكنهم كانوا يرددون ما سمعوه في بيوتهم، كما يردد الأطفال الكلمات التي لا يفهمون معناها.

دفع خالد كتف سالم وقال:

- احذر، ربما ينتقل إليك نحس أمك!

لم يتمالك سالم نفسه، فدفعه بقوة، واندلع شجار بينهما، حتى تدخل المعلم وفصل بين التلميذين.

اقتادهما إلى الإدارة، وبعد أن هدأت الأمور، سأل المعلم سالم:

- لماذا ضربت زميلك؟

أجاب سالم وعيناه تلمعان بالدموع:

- لأنه أهان أمي يا أستاذ.

- وهل كان يستحق الضرب؟

صمت سالم لحظة، ثم قال:

- لا أعرف. لكنني لم أستطع أن أسمعه يصف أمي بما ليست عليه.

تنهد المعلم، ثم قال:

- كان عليك أن تدافع عنها بالكلام، لا بيدك.

رفع سالم رأسه وقال:

- وهل يسمع الناس الكلام يا أستاذ؟ إنهم لا يعرفون أمي، ومع ذلك يحكمون عليها. كيف أقنعهم بالحقيقة إذا كانوا لا يريدون سماعها؟

لم يجد المعلم جوابًا سريعًا.

كان يعرف أن المشكلة أكبر من شجار بين تلميذين؛ إنها مشكلة مجتمع يورث أبناءه أحكامًا جاهزة، ثم يعاقبهم حين يكررونها.

وقبل أن يغادر سالم، قال له المعلم:

- تذكر يابني، ليست كل كلمة يقولها الناس حقيقة، وليس كل ما يتناقله الكبار يستحق التصديق.

احتفظ سالم بهذه العبارة في قلبه، لكنه كان يعلم أن العودة إلى البيت لن تكون سهلة.

4 - السؤال الذي مزق قلب الأم

عاد سالم إلى البيت في ذلك اليوم، وألقى حقيبته قرب الباب، ثم دخل إلى الغرفة التي كانت أمه تخيط فيها ثوبًا لإحدى الزبونات. لاحظت نصيرة أن وجهه شاحب، وأن عينيه حمراوان.

سألته:

- ما بك يا بني؟

هل أنت مريض؟

لم يجب. اقتربت منه، ووضعت يدها على كتفه.

- سالم، تحدث إليّ. هل حدث شيء في المدرسة؟

انفجر فجأة:

- لماذا يتحدث الناس عنك بهذه الطريقة يا أمي؟

تجمدت نصيرة في مكانها.

- بأي طريقة؟

- يقولون إنك امرأة منحوسة، وإنك سبب مرض الجارات، وإن الناس يجب أن يبتعدوا عنك! شعرت نصيرة وكأن الأرض انسحبت من تحت قدميها. كانت تعرف أن شيئًا ما يتغير حولها، لكنها لم تتصور أن الشائعة وصلت إلى المدرسة، وأن ابنها أصبح يدفع ثمنًا لم يرتكبه.

جلست ببطء على الكرسي، وأمسكت بيديه.

- ومن قال لك هذا؟

- زملائي. وهم يقولون إن أمهاتهم أخبرنهم بذلك.

أغمضت عينيها، وسقطت دمعة على خدها.

لم تبكِ لأنها اتُّهمت؛ فقد عرفت أن الظلم قد يلاحق الإنسان حتى وهو بريء. لكنها بكت لأن ابنها صار يحمل في قلبه جرحًا لم يكن ينبغي له أن يعرفه في هذه السن.

قال سالم:

- أجيبي عن سؤالي يا أمي. هل فعلت شيئًا لا أعرفه؟ هل هناك سر تخفينه عني؟

فتحت عينيها بسرعة، ونظرت إليه بدهشة وألم.

- حتى أنت تسألني هذا السؤال؟

ارتبك سالم.

- أنا لا أتهمك يا أمي، لكنني أريد أن أفهم.

نهضت نصيرة، واتجهت إلى صندوق خشبي قديم في زاوية الغرفة، ثم أخرجت منه صورة لزوجها الراحل. مسحت الغبار عنها، وأعادت وضعها في مكانها.

قالت:

- أبوك، رحمه الله، لم يترك لي مالًا كثيرًا، لكنه ترك لي شيئًا أهم من المال: اسمي وكرامتي. أقسم لك أنني لم أؤذِ إنسانًا في حياتي، ولم أستخدم يومًا شيئًا لإلحاق الضرر بأحد. كل ما أعرفه هو هذه الماكينة، وهذا الإبرة، وهذا الخيط.

أشارت إلى أدواتها، ثم أضافت:

- بهذه اليدين أطعمك، وبهما أريد أن أراك رجلًا متعلمًا، لا يحتاج إلى أحد. فهل يعقل أن تكون اليد التي تخيط للناس ثيابهم هي نفسها التي يتهمونها بإيذائهم؟

أطرق سالم رأسه، ثم ارتمى في حضنها.

- سامحيني يا أمي. لم أكن أشك فيك، لكنني تعبت من كلامهم.

ضمته نصيرة بقوة، وقالت:

- لا تعتذر يا بني. أنت لم تختر هذه الحكاية، ولم تصنعها. لكن عليك أن تتعلم كيف تواجهها.

ثم همست:

- أخشى فقط أن يأتي يوم يصبح فيه الناس أكثر تصديقًا للكذب من استعدادهم لسماع الحقيقة.

5- الشيخ الذي وجد في الخوف فرصة

لم تتوقف الشائعة عند حدود النساء والأطفال، بل وصلت إلى رجل كان يتخذ من جهل الناس مصدرًا لنفوذه.

كان يُدعى الشيخ فاضل، ويعيش في منزل في طرف القرية. لم يكن طبيبًا، ولم يدرس علم النفس، لكنه كان يزعم أنه

يعرف أسرار المرض وأسباب المصائب، ويستطيع أن يميز بين الحسد والسحر والنحس بمجرد النظر إلى وجه الإنسان.

كان الناس يقصدونه حين يعجزون عن فهم ما يحدث لهم، فيستقبلهم بملامح جادة، ويطرح عليهم أسئلة كثيرة، ثم يمنحهم تفسيرات غامضة تجعلهم يعتقدون أنه يعرف ما لا يعرفه غيره.

وحين وصلت إليه حكاية نصيرة، وجد فيها فرصة جديدة لتثبيت مكانته. في مساء أحد الأيام، دخلت عليه أم الخير برفقة امرأتين.

قالت:

- جئنا نستشيرك في أمر نصيرة.

رفع الشيخ عينيه عن مسبحته.

- ماذا بشأنها؟

قالت أم الخير:

- هناك نساء مرضن، والناس يتحدثون عن أمور غريبة. وقد أصبحت نصيرة موضع شك في القرية.

ابتسم الشيخ ابتسامة خفيفة، ثم قال:

- لا تتعجلن الحكم. بعض الأمور لا تظهر حقيقتها من أول مرة.

سألته إحدى المرأتين:

- هل تعتقد أنها تؤذي الناس؟

هز رأسه ببطء.

- أنا لا أتهم أحدًا، لكنني أقول إن الحذر واجب.

كانت عبارته غامضة، لكنها أدت الغرض الذي أراده. خرجت النساء من عنده وهن أكثر اقتناعًا بأن الشائعة تستند إلى شيء خفي، مع أنه لم يقدم لهن دليلًا واحدًا.

وحين سألته امرأة أخرى في اليوم التالي عن نصيرة، قال لها:

- لا تقتربي كثيرًا منها حتى تتضح الأمور.

انتشرت العبارة بسرعة، وتحولت على ألسنة الناس إلى اتهام جديد:

«حتى الشيخ فاضل حذر منها!»

وهكذا اكتسبت الخرافة قوة إضافية، لا لأنها أصبحت أكثر صدقًا، بل لأن رجلًا اعتاد الناس الرجوع إليه لم يضع حدًّا لها، وإنما ترك الغموض يغذيها.

لم يكن الشيخ بحاجة إلى إثبات شيء؛ كان يكفيه أن يترك الناس خائفين، فكلما ازداد خوفهم، ازداد تعلقهم به.

6 - الليلة التي أغلق فيها سالم النافذة

توالت الأيام، وأصبح البيت الصغير معزولًا عن بقية القرية. لم تعد النساء يزرن نصيرة إلا نادرًا، وصارت طلبات الخياطة قليلة، حتى بدأت تواجه صعوبة في شراء حاجيات البيت.

وكانت كلما خرجت لقضاء حاجة، شعرت بنظرات تلاحقها، وهمسات تتوقف فجأة حين تقترب.

أما سالم، فقد تغير هو الآخر. صار قليل الكلام، يتجنب رفاقه، ويعود من المدرسة مباشرة إلى البيت. لم يعد يحكي لأمه عن أحلامه، ولا عن الدروس التي يحبها، ولا عن الجامعة التي كان يتمنى أن يدرس فيها يومًا.

في إحدى الليالي، هبت رياح قوية، وبدأت قطرات المطر تضرب زجاج النافذة.

كانت نصيرة تخيط ثوبًا تحت ضوء مصباح ضعيف، بينما جلس سالم يراجع دروسه. وفجأة، سمعا طرقًا على الباب.

توقفت نصيرة عن العمل.

تبادل الاثنان نظرة سريعة.

عاد الطرق، هذه المرة أقوى.

نهض سالم واتجه نحو الباب، لكن أمه أوقفته.

- انتظر. لا تفتح قبل أن تعرف من الطارق.

اقتربت من النافذة، وأزاحت الستار قليلًا.

لم ترَ أحدًا، فالظلام كان كثيفًا والمطر يحجب الرؤية.

سألت بصوت مرتفع:

- من هناك؟

لم يجب أحد.

ثم سمعا ضحكة قصيرة، أعقبها صوت شاب يقول:

- احذروا البيت الذي تسكنه المنحوسة! ثم ابتعدت خطوات مسرعة.

فتح سالم الباب فجأة وخرج إلى الفناء، لكنه لم يجد أحدًا.

كان الطريق خاليًا إلا من آثار أقدام محتها مياه المطر.

عاد إلى الداخل غاضبًا، وأغلق الباب بقوة.

- لن أسكت بعد اليوم! سأعرف من يفعل هذا، وسأجعل الجميع يعرفون الحقيقة!

اقتربت منه نصيرة، وأمسكت بذراعه.

- لا يا بني. لا تجعل غضبك يقودك إلى ما لا تحمد عقباه.

- وهل أتركهم يهينونك؟ هل أتركهم يحولون حياتنا إلى جحيم؟

قالت بحزن:

- الدفاع عن الحق لا يعني أن نفقد عقولنا. إنهم يريدون أن يرونا خائفين وغاضبين، لأنهم عندئذ لن يسمعوا منا شيئًا.

نظر إليها طويلًا، ثم سألها:

- وكيف سنعيش يا أمي؟ كيف أذهب إلى المدرسة وأنا أسمع الإهانات؟ وكيف تخرجين إلى السوق والناس يتهامسون خلفك؟

كانت تعرف أن الصبر وحده لا يكفي دائمًا، وأن الحقيقة تحتاج أحيانًا إلى من يخرج بها من الصمت إلى العلن.

قالت أخيرًا:

- سنعيش بالعمل، ونتمسك بالحقيقة، ولن نؤذي أحدًا. لكنني أريد منك أن تتعلم، وأن تفهم كيف يفكر الناس، وكيف تتحول الكلمة الكاذبة إلى سجن يعيش فيه الأبرياء.

ثم نظرت إلى النافذة التي ارتجفت تحت ضغط الرياح.

- هذا البيت يا سالم لم يكن مخيفًا يومًا. نحن لم نختر أن نسكن الخوف؛ هم الذين حملوه إلينا، ثم تركوه خلف الباب.

7- عودة عامر... وبداية المواجهة

في صباح اليوم التالي، كان عامر عائدًا من زيارة أحد أقاربه حين لمح سالم جالسًا وحده قرب جدار المدرسة، يحمل كتابًا مفتوحًا لكنه لا يقرأ.

كان عامر قد عاد إلى القرية بعد سنوات من الدراسة الجامعية، وأصبح معروفًا بين الشباب بأنه لا يقبل تفسير الأحداث بالخرافات، ولا يتردد في مناقشة الأفكار التي يتعامل معها الناس وكأنها حقائق لا تقبل الشك.

اقترب منه وجلس إلى جانبه.

- ما بك يا سالم؟ أراك شارد الذهن.

أغلق سالم الكتاب.

- لا شيء يا أستاذ عامر.

ابتسم عامر.

- عندما يقول الإنسان «لا شيء» وهو يحمل هذا الحزن في عينيه، فغالبًا هناك أشياء كثيرة لا يريد الحديث عنها.

ظل سالم صامتًا لحظات، ثم قال:

- هل تعتقد أن الإنسان يمكن أن يكون سببًا في مرض الآخرين من دون أن يفعل لهم شيئًا؟

نظر إليه عامر باهتمام.

- ماذا تقصد؟

تردد سالم، ثم حكى له ما يجري في القرية، وكيف اتُّهمت أمه بأنها تجلب النحس، وكيف صار زملاؤه يسخرون منه بسبب الشائعات التي يسمعونها في بيوتهم.

استمع عامر حتى النهاية، ولم يقاطعه.

ثم سأله:

- هل قدم أحد دليلًا على أن أمك تسببت في مرض أي امرأة؟

أجاب سالم:

- لا.

- هل فحص طبيب النساء المريضات وحدد سبب مرضهن؟

- لا أعرف، لكنني لم أسمع أن أحدًا فعل ذلك.

- وهل رأى أحد أمك تؤذي إنسانًا؟

هز سالم رأسه.

- لا.

صمت عامر قليلًا، ثم قال:

- إذن لدينا شائعة، لا حقيقة مثبتة. ولدينا نساء مريضات يحتجن إلى معرفة أسباب مرضهن، لا إلى اتهام جارة فقيرة. ولدينا امرأة تُعاقب اجتماعيًا من دون محاكمة، وفتى يُهان في المدرسة لأنه ابنها.

رفع سالم عينيه، وكأن أحدًا للمرة الأولى وضع ما يحدث له في كلمات واضحة.

قال:

- لكن الناس يصدقون الحكاية، يا أستاذ. أحيانًا أشعر أن الجميع لا يريدون معرفة الحقيقة.

أجابه عامر:

- لأن الحقيقة قد تتطلب منهم الاعتراف بأنهم أخطؤوا، أما الخرافة فتعفيهم من التفكير. عندما يمرض إنسان، فإن البحث عن السبب يحتاج إلى معرفة وصبر. لكن اتهام امرأة بأنها منحوسة لا يحتاج إلا إلى لسان يطلق التهمة، وعقول تستقبلها من دون سؤال.

ثم أضاف:

- أخطر ما في الخرافة أنها لا تكتفي بسرقة عقل صاحبها، بل تجعله يظلم الآخرين وهو يعتقد أنه يحمي نفسه.

سأل سالم بصوت خافت:

- وهل تستطيع مساعدتنا؟

أجاب عامر بحزم:

- لن أستطيع أن أُجبر الناس على تغيير أفكارهم في يوم واحد، لكننا نستطيع أن نبدأ بالسؤال. سنعرف من أطلق الشائعة، وما الدليل الذي يستند إليه، وهل جرى البحث عن أسباب الأمراض فعلًا. وسنطالب الناس بأن يتوقفوا عن إيذاء أمك، لأن كرامة الإنسان ليست لعبة في أيدي المتحدثين.

نهض سالم، وقد بدا في عينيه شيء من الأمل.

لكن عامر أوقفه قبل أن يغادر.

- اسمعني جيدًا يا سالم. لا ترد الإهانة بإهانة، ولا تجعل أحدًا يستدرجك إلى العنف. سنواجه الكذب بالحقيقة، والادعاء بالسؤال، والخوف بالمعرفة.

ثم نظر نحو الطرف البعيد من القرية، حيث يقف بيت نصيرة وحيدًا.

- أحيانًا لا يحتاج البيت إلى أشباح كي يصبح مخيفًا؛ يكفي أن يسكنه الظلم، وأن يتواطأ الصمت على إبقاء بابه مغلقًا.

8- السر الذي لم يكن سرًّا

في ذلك المساء، قرر عامر زيارة نصيرة.

وصل إلى بيتها قبيل الغروب، فوجدها تجلس أمام ماكينة الخياطة، بينما كان سالم يساعدها في ترتيب الأقمشة.

نهضت نصيرة مرتبكة حين رأته.

- أهلًا يا بني، تفضل. لم أكن أتوقع زيارتك.

جلس عامر، ثم قال بهدوء:

- جئت لأطمئن عليك، ولأفهم ما يحدث. لقد سمعت أن بعض الناس يتهمونك بأمور خطيرة.

انخفض بصر نصيرة.

- لا أعرف لماذا اختاروني. لم أؤذِ أحدًا، ولم أدخل في شؤون أحد. كل ما أريده هو أن أعيش بسلام وأربي ابني.

قال عامر:

- هل حدث خلاف بينك وبين إحدى النساء قبل ظهور هذه الشائعة؟

فكرت قليلًا، ثم قالت:

- قبل أشهر، اختلفت مع أم الخير حول ثوب تأخرت في تسليمه بسبب مرض أصابني. غضبت يومها وقالت إنها لن تتعامل معي مرة أخرى. لكنني لم أتصور أن خلافًا بسيطًا يمكن أن يصل إلى هذا الحد.

تبادل عامر و سالم نظرة سريعة.

سألها:

- وهل هددتك أو اتهمتك بشيء في ذلك الوقت؟

أجابت:

- لا أتذكر أنها قالت شيئًا واضحًا، لكنها غادرت غاضبة.

لم يشأ عامر أن يتسرع في اتهام أم الخير، فوجود خلاف لا يثبت أنها أطلقت الشائعة. لكنه أدرك أن هناك خيطًا يستحق البحث.

سأل نصيرة عن النساء المريضات، فعرفتهن واحدة واحدة، وذكرت له أسماءهن والأيام التي بدأت فيها الأعراض.

دوّن عامر المعلومات، ثم قال:

- سأحاول أن أفهم ما حدث، لكنني أريد منك أمرًا واحدًا: لا تصدقي الشائعة، ولا تسمحي لها بأن تقنعك بأنك مذنبة.

ابتسمت نصيرة ابتسامة حزينة.

- أنا أعرف نفسي يا بني، لكنني لا أستطيع أن أمنع الناس من الكلام.

قال عامر:

- ربما لا نستطيع منع كل لسان من الكلام، لكننا نستطيع أن نمنع الكذب من أن يتحول إلى قانون يحكم حياة الناس.

وقبل أن يغادر، التفت إلى سالم وقال:

- استمر في دراستك. لا تجعل جهل الآخرين يسرق مستقبلك.

خرج عامر من البيت، بينما بقي سالم واقفًا عند الباب يراقبه حتى اختفى في الطريق.

لأول مرة منذ أسابيع، شعر أن هناك من يقف إلى جانبهم، وأن البيت الذي ظن أنه محاصر من جميع الجهات ربما كان ينتظر شخصًا يفتح نافذته على الحقيقة.

لكن عامر كان يعلم أن مهمته لن تكون سهلة.

فالشائعة التي انتشرت في القرية لم تعد مجرد كلام عابر؛ لقد أصبحت جزءًا من اعتقاد بعض الناس، وأصبحت لكل واحد منهم مصلحة في استمرارها: امرأة تريد أن تثبت أنها كانت على حق، ورجل يستمد نفوذه من خوف الآخرين، وأناس يخشون الاعتراف بأنهم ظلموا إنسانة بريئة.

وكان عليه أن يواجه الجميع بالحقيقة، من دون أن يسمح للخوف بأن يتحول إلى عداوة جديدة.

في تلك الليلة، أضاء مصباح بيت نصيرة حتى ساعة متأخرة.

جلست الأم تخيط، وجلس ابنها يدرس، بينما كانت الرياح تمر بين أشجار الحقول. لم يتغير شيء في البيت؛ الجدران هي الجدران، والنافذة هي النافذة، وماكينة الخياطة القديمة ما زالت تصدر صوتها المعتاد. لكن شيئًا واحدًا تغير.

لم يعد سالم يعتقد أن الصمت هو الحل الوحيد، ولم تعد نصيرة تشعر بأنها وحدها تمامًا.

أما عامر، فقد أدرك أن معركته ضد الخرافة لن تكون مجرد محاضرات يلقيها في المركز الثقافي، ولا نقاشات يخوضها مع شباب القرية.

لقد أصبحت المعركة الآن قضية إنسانية حقيقية، لها وجه امرأة بريئة، ودموع فتى في الخامسة عشرة، وبيت صغير سكنه الخوف لأن عقولًا كثيرة أغلقت أبوابها أمام الحقيقة.

وكان السؤال الذي يطارد عامر قبل أن ينام:

كم من الأبرياء يجب أن يُظلموا قبل أن يتعلم الناس أن الشائعة ليست دليلًا، وأن الخوف ليس علمًا، وأن الإنسان لا يصبح مذنبًا لمجرد أن الآخرين قرروا اتهامه؟

لم يكن يعرف الجواب بعد.

لكنه كان يعرف أن بيت نصيرة لن يبقى طويلًا أسير الصمت.

ففي القرية التي اعتادت أن تصدق الحكايات قبل أن تبحث عن أدلتها، كان هناك شاب قرر أن يسأل، وأن يشكك، وأن يواجه.

ولم تعد نصيرة تشعر بأنها وحدها تمامًا.

وكان ذلك، في حد ذاته، بداية الخطر على كل من بنى سلطته فوق جهل الناس.

الفصل الحادي والعشرون:
محاكمة الأفكار

لم يكن عامر يؤمن بأن الأفكار الخاطئة تُهزم بالصراخ، ولا بأن الخرافات تتراجع بمجرد السخرية ممن يصدقونها. فقد أدرك، منذ عودته إلى قريته «عين النسر»، أن بعض المعتقدات تتسلل إلى العقول في هدوء، ثم تستقر فيها سنوات طويلة، حتى يصبح التشكيك فيها أشبه بالاعتداء على أصحابها.

كان يرى أن المشكلة الحقيقية لم تكن في وجود الجهل وحده، بل في تحول الجهل إلى يقين، وفي أن يعتاد الناس تصديق الحكايات دون أن يسألوا عن مصدرها، أو يبحثوا عن دليل يثبت صحتها.

وفي إحدى الأمسيات، بينما كان يجلس في قاعة المركز الثقافي مع مجموعة من الطلاب والشباب، خطرت له فكرة مختلفة عن كل الأنشطة التي اعتادوا تنظيمها.

نهض من مكانه، وأخذ يتأمل الوجوه المحيطة به، ثم قال:

- ما رأيكم أن ننظم معرضًا ثقافيًا لا يشبه المعارض المعتادة؟ معرضًا لا نعرض فيه الكتب والصور فقط، بل نعرض فيه الأفكار نفسها، ونضعها أمام أسئلة العقل وأدلة الواقع.

رفع أحد الطلاب رأسه وسأله:

- ماذا تقصد يا أستاذ عامر؟

ابتسم عامر وقال:

- أقصد أن ننظم معرضًا بعنوان «**محاكمة الأفكار**». نختار فيه مجموعة من المعتقدات الشائعة في مجتمعنا، ثم نناقشها بهدوء. لا نبحث عن الأشخاص الذين يؤمنون بها، ولا نسعى إلى إحراج أحد، وإنما نريد أن نعرف: ما الدليل الذي يدعم هذه الفكرة؟ وما الدليل الذي ينقضها؟ وهل يكفي أن تتكرر الحكاية على ألسنة الناس حتى تصبح حقيقة؟

ساد الصمت لحظات، ثم قال طالب يجلس في الصف الأخير:

- ولكن بعض الناس قد يغضبون. هناك معتقدات توارثوها عن آبائهم وأجدادهم، وقد يعتبرون مناقشتها إهانة لهم.

أجابه عامر بجدية:

- نحن لا نحاكم الآباء والأجداد، ولا نقلل من احترامهم. فكثير منهم عاشوا في ظروف صعبة، ولم تكن المعلومات والوسائل العلمية متاحة لهم كما هي اليوم. نحن نحترم الإنسان، لكننا لا نمنح كل فكرة حصانة من السؤال. فالفكرة التي تخاف من النقاش، ماذا يبقى لها عندما تواجه الحقيقة؟

تبادل الطلاب النظرات، وبدأ الحماس يظهر على وجوههم.

قالت عائشة، التي كانت تجلس قرب النافذة وتحمل دفترها الأزرق:

- أرى أن نخصص لكل فكرة لوحة مستقلة. نكتب فيها المعتقد، ثم نذكر الأدلة التي يستند إليها أصحابه، وبعد ذلك

نعرض ما لدينا من معلومات علمية أو شواهد واقعية تساعد على التحقق منه.

التفت إليها عامر وقال:

- اقتراح ممتاز يا عائشة. لكن علينا أن نكون منصفين. لا نعرض الفكرة بطريقة ساخرة، ولا نختار أضعف حجج أصحابها لننتصر عليهم. يجب أن نفهم الفكرة أولًا، ثم نختبر الأدلة المتعلقة بها.

وأضاف أحد الطلاب:

- ويمكن أن نخصص ركنًا للأسئلة التي يخجل الناس من طرحها.

ابتسم عامر وقال:

- هذا هو جوهر المعرض. نريد أن يتعلم الناس أن السؤال ليس عيبًا، وأن الاعتراف بعدم المعرفة ليس ضعفًا، بل هو بداية الطريق إلى المعرفة.

وهكذا بدأت الاستعدادات.

1- الفكرة التي تصنع الخوف

بعد أيام من العمل، امتلأت قاعة المركز الثقافي باللوحات والملصقات والكتب. تولى الطلاب تقسيم المعرض إلى أركان، واختار كل فريق فكرة شائعة يبحث في أصلها، والأدلة التي

يستند إليها الاعتقاد بها، والوسائل التي يمكن استخدامها للتحقق منها.

كان أول ركن بعنوان: «هل كل مصيبة دليل على وجود شخص يحسدنا؟» عرض الطلاب مجموعة من الحالات التي يربط فيها بعض الناس بين المرض أو تعثر الرزق أو فشل مشروع وبين الحسد أو أعمال السحر، دون أن يبحثوا عن الأسباب الأخرى المحتملة.

وقف شاب أمام اللوحة وقال:

- أعرف رجلًا تعطلت تجارته بعد خلاف مع أحد جيرانه، وهو مقتنع بأن جاره سحره. أليس من الممكن أن يكون محقًا؟

أجابه الطالب المسؤول عن الركن:

- نحن لا نستطيع إثبات ادعائه أو نفيه بمجرد وقوع الخلاف وتعطل التجارة. علينا أن نسأل:

- هل توجد أدلة موثوقة تربط بين الأمرين؟ وهل درس الرجل أسباب خسارته؟ ربما ارتفعت الأسعار، أو أخطأ في حساباته، أو تغيرت ظروف السوق. لا يجوز أن نستبدل البحث عن الأسباب باتهام شخص دون دليل.

تدخل عامر، الذي كان يتابع النقاش من مسافة قريبة، وقال:

- لاحظوا أمرًا مهمًا: عندما يقع حدثان متقاربان في الزمن، لا يعني ذلك بالضرورة أن أحدهما تسبب في الآخر. قد يخسر

إنسان عمله بعد مشاجرة، لكن هذا لا يثبت أن المشاجرة هي سبب خسارته، فضلًا عن أن تثبت وجود سحر أو مؤامرة.

سأله رجل مسن كان يتابع الحديث باهتمام:

- وهل تريدون منا أن ننكر كل ما لا نراه بأعيننا؟

أجابه عامر باحترام:

- لا يا عمّي، لسنا هنا لنطلب من أحد أن يتبنى رأينا دون تفكير. نحن نريد فقط أن نفرق بين الإيمان الشخصي وبين الادعاءات التي تُنسب إليها نتائج محددة في حياة الناس. فإذا ادعى شخص أنه يعرف الغيب، أو يستطيع تحديد من تسبب في مرض إنسان أو خراب بيته، فمن حقنا أن نسأله عن الدليل. ومن واجبنا ألا نتهم بريئًا بناءً على كلام لا نستطيع التحقق منه.

هز الرجل رأسه، ثم قال:

- ربما تكون المشكلة أننا نبحث أحيانًا عن تفسير سريع لكل ما يحدث لنا.

أجابه عامر:

- وهذا ما يجعل الخوف بابًا واسعًا يستغله بعض الناس.

كانت تلك أول لحظة شعر فيها عامر بأن المعرض بدأ يحقق غايته. لم يغادر الرجل مقتنعًا بكل ما سمع، لكنه غادر وهو يحمل سؤالًا لم يكن يطرحه من قبل.

وكان السؤال، في نظر عامر، بداية التغيير.

2- الشيخ الذي يعرف كل شيء!

في الركن الثاني، وضع الطلاب لوحة كبيرة كتبوا عليها:

«هل يستطيع إنسان أن يعرف ما سيحدث في المستقبل؟»

وتحت العنوان، عرضوا أمثلة عن أشخاص يزعمون معرفة الغيب، أو يدّعون القدرة على كشف أسرار الناس بمجرد النظر إليهم، أو يتنبؤون بمصائب محددة ثم يفسرون كل نتيجة بما يخدم ادعاءاتهم.

تقدم شاب وقال:

- لكن بعض المشعوذين يخبرون الناس بأشياء عن حياتهم، فيندهشون لأنها تبدو صحيحة.

كيف نفسر ذلك؟

أجابته عائشة:

- قد يستخدم بعضهم أسئلة عامة تصلح لكثير من الناس، ثم يراقبون ردود أفعالهم، أو يجمعون معلومات عنهم من محيطهم. وقد يتذكر الشخص التوقع الذي صادف أن تحقق، وينسى التوقعات الكثيرة التي لم تتحقق.

ثم أضافت:

- والأهم من ذلك كله أننا لا نستطيع الحكم على ادعاء من خلال قصة واحدة. يجب أن نعرف ما الذي قيل بالضبط، ومتى قيل، وهل يمكن التحقق منه بصورة مستقلة.

وقف أحد الحاضرين، وكان رجلًا معروفًا في القرية بتردده على المشعوذين، وقال بنبرة غاضبة:

- أنتم شباب لم تجربوا الحياة. هناك أمور لا يفهمها إلا من عاشها.

لقد ذهبت إلى رجل أخبرني أن ابني سيصاب بمكروه، وبعد أيام مرض ابني!

لم يسخر أحد من كلامه، ولم يضحك الطلاب.

تقدم عامر نحوه وقال:

- أتفهم خوفك على ابنك، وأعرف أن مرض الأبناء أمر يؤلم الآباء كثيرًا. لكن دعني أسألك: كم مرة أخبرك ذلك الرجل بأمور لم تقع؟ وهل قال لك شيئًا محددًا يمكن التحقق منه قبل وقوعه؟ وهل توجد أدلة تثبت أن كلامه تسبب في المرض أو كشفه مسبقًا؟

تردد الرجل قليلًا، ثم قال:

- لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة.

أجابه عامر:

- نحن لا نطلب منك أن تتخلى عن قناعاتك في لحظة واحدة. نطلب منك فقط ألا تسمح لأحد باستغلال خوفك. فالذي يدعي امتلاك معرفة خاصة قد يستخدمها أحيانًا للسيطرة على الناس، وجعلهم يعودون إليه كلما واجهوا مشكلة.

ثم أشار إلى اللوحة وأضاف:

- ليس كل من يتحدث بثقة يعرف الحقيقة، وليس كل من يثير الخوف يمتلك سرًا.

تأمل الرجل العبارة طويلًا، ثم ابتعد عن الركن دون أن ينطق بكلمة.

راقبه أحد الطلاب وقال لعامر:

- هل تعتقد أنه اقتنع؟

أجابه عامر:

- لا أدري. ليس من الضروري أن يقتنع اليوم. يكفينا أن نكون قد فتحنا نافذة صغيرة في جدار اليقين الذي بناه حول هذه الفكرة.

3- حين يتحول الاعتقاد إلى تهمة

كان الركن الثالث أكثر حساسية من سابقيه، فقد تناول الشائعات التي تلاحق بعض الأشخاص في القرية، وكيف يمكن لمعتقد غير مثبت أن يتحول إلى حكم ظالم.

وضعت عائشة في مقدمة الركن لوحة كُتب عليها: «من يملك الحق في اتهام إنسان دون دليل؟» وعلى الجدار المقابل، عرض الطلاب أمثلة افتراضية عن امرأة مرضت جارتها بعد زيارتها، ورجل خسر تجارته بعد خلاف مع أحد أقاربه، وطفل أصيب بالخوف ليلًا، فاتهم بعض الناس أسرته بأنها تخفي سرًا خطيرًا.

لم يذكر الطلاب أسماء حقيقية، ولم يسمحوا بتحويل المعرض إلى منبر لتصفية الحسابات.

توقف أحد الزوار أمام صورة امرأة وحيدة، ثم قال:

- أعرف امرأة في قريتنا تشبه هذه الحالة. الناس يتجنبونها لأنهم يعتقدون أنها تجلب النحس.

سأله عامر:

- وهل يوجد دليل على أنها تسببت في مرض أحد أو ألحقت الضرر بجيرانها؟

أجاب الرجل:

- لا يوجد دليل واضح، لكن الناس يتحدثون عنها منذ سنوات.

قال عامر:

- وهل يمكن أن يصبح الكلام صحيحًا لمجرد أن الناس كرروه سنوات طويلة؟

صمت الرجل.

تابع عامر:

- تخيل أن امرأة فقدت زوجها، واضطرت إلى تربية أبنائها وحدها، ثم بدأ بعض الناس يتهمونها بأنها سبب مصائبهم. ماذا يبقى لها من كرامة إذا أصبح كل مرض يصيب جيرانها دليلًا ضدها؟ وكيف تستطيع الدفاع عن نفسها أمام اتهام لا يقوم على برهان؟

تدخلت عائشة قائلة:

- إن تكرار الشائعة قد يجعلها تبدو مألوفة، لكنه لا يحولها إلى حقيقة. وقد يصدقها الناس لأنهم يسمعونها من أشخاص يثقون بهم، لا لأن لديهم دليلًا عليها.

ثم أضافت بصوت هادئ:

- أحيانًا لا يحتاج الظلم إلى سكين. تكفي كلمة تتكرر كل يوم حتى يعيش إنسان بريء محاصرًا بالخوف والعار.

ساد الصمت في القاعة.

كان عامر يعلم أن بعض الحاضرين سيستحضرون في أذهانهم نساءً ورجالًا تعرضوا للظلم بسبب شائعات القرية. لكنه تعمد ألا يذكر أسماءهم، لأن هدف المعرض لم يكن فضح المخطئين، بل تعليم الجميع كيف يتجنبون ظلم الآخرين.

قال أخيرًا:

- حين نحاكم إنسانًا بالشائعة، فإننا لا نبحث عن الحقيقة، بل نصنع ضحية جديدة.

4- هل يكفي أن يقول الجميع ذلك؟

في منتصف القاعة، خصص الطلاب ركنًا بعنوان: «قوة الجماعة وضعف الدليل.»

كان هذا الركن من أكثر الأركان إثارة للنقاش، لأنه تناول عادة شائعة في «عين النسر»: الاعتقاد بأن ما يتفق عليه معظم الناس لا بد أن يكون صحيحًا.

وقف أحد الطلاب أمام مجموعة من الزوار وقال:

- لو قال لكم عشرة أشخاص إن بيتًا مهجورًا مسكون بالأرواح، فهل يعني ذلك أن البيت مسكون فعلًا؟

أجاب رجل بسرعة:

- إذا اتفقوا جميعًا، فلا بد أنهم رأوا شيئًا !

ابتسم الطالب وسأله:

- وهل شاهد كل واحد منهم الأمر بنفسه، أم أن بعضهم سمعه من بعض؟

تردد الرجل.

تابع الطالب:

- ربما رأى شخص ظلًا في الليل، ففسره بطريقة معينة، ثم نقل قصته إلى آخرين. وبعد سنوات، قد يروي الناس الحكاية نفسها، لكنهم ينسون أن أصلها كان مجرد تفسير محتمل لشيء لم يفهمه أحد.

اقترب عامر من المجموعة وقال:

- ليست المشكلة في أن نتبادل القصص، فالحكايات جزء من تراث المجتمعات وذاكرتها. المشكلة تبدأ عندما نخلط بين الحكاية والدليل، وبين ما نتخيله وما نستطيع التحقق منه.

ثم التفت إلى الطلاب وسألهم :

- ماذا نفعل عندما نجد أن أغلب الناس يؤمنون بفكرة لا نجد لها دليلًا كافيًا؟

أجابت عائشة:

- نبحث عن الأدلة، ولا نكتفي بعدد المصدقين بها.

وقال طالب آخر:

- ونسأل عن مصدر المعلومة، وكيف ظهرت، وهل توجد تفسيرات أخرى للحدث نفسه.

وأضاف ثالث:

- وإذا اكتشفنا أننا أخطأنا، نعترف بالخطأ بدلًا من البحث عن أعذار للدفاع عنه.

ابتسم عامر وقال:

- الآن بدأتم تفهمون معنى المعرض. إننا لا نريد عقولًا ترفض كل شيء، ولا عقولًا تصدق كل شيء. نريد عقولًا تعرف كيف تزن الأمور، وكيف تميز بين الادعاء والبرهان.

5- ظهور الشيخ فاضل

بينما كان الزوار ينتقلون بين الأركان، لاحظ عامر دخول الشيخ فاضل إلى القاعة.

كان حضوره مفاجئًا، فقد اعتاد الرجل أن يتجنب اللقاءات التي تتناول الخرافات والمعتقدات الشعبية بالنقد، خاصة بعد أن بدأت أسئلة الشباب تثير القلق في القرية.

دخل الشيخ بخطوات بطيئة، وألقى نظرة طويلة على اللوحات، ثم توقف أمام الركن الذي تناول ادعاءات معرفة الغيب.

كان وجهه متجهمًا، وعيناه تنتقلان بين العبارات المكتوبة وكأن كل واحدة منها موجهة إليه شخصيًا.

اقترب منه عامر وقال باحترام:

- أهلًا بك يا شيخ فاضل. يسعدنا حضورك.

أجابه الشيخ ببرود:

- سمعت أنكم جعلتم من معتقدات الناس مادة للسخرية، فجئت لأرى بنفسي.

قال عامر:

- لم نسخر من أحد، ولن نفعل. هذا المعرض ليس محاكمة للأشخاص، بل محاكمة للأفكار. أنت مرحب بك لتناقش أي فكرة ترى أننا لم نعرضها بصورة عادلة.

رفع الشيخ حاجبيه وقال:

- ومن أنتم حتى تحاكموا أفكار الناس؟

أجابه عامر بهدوء:

- نحن طلاب علم ومعرفة، ولسنا قضاة على الناس. نعرض الادعاءات على الأدلة، ونقبل النقد كما نطلب من الآخرين قبول النقد. إذا كان لدينا خطأ، فمن حقك أن توضحه لنا بالدليل.

اقترب بعض الزوار، وشعر الطلاب أن نقاشًا مهمًا على وشك أن يبدأ.

أشار الشيخ إلى إحدى اللوحات وقال:

- أنتم تتحدثون عن الأدلة وكأن الإنسان يستطيع أن يعرف كل شيء بعقله.

أجابه عامر:

- لم نقل إن العقل يعرف كل شيء، يا شيخ. العقل نفسه يعلمنا أن معرفتنا محدودة، وأن علينا أن نفرق بين ما نعرفه

وما نجهله. لكن الاعتراف بجهلنا لا يمنح أي إنسان الحق في ملء الفراغ بادعاءات لا يستطيع إثباتها.

سكت الشيخ لحظة، ثم قال:

- ولكن الناس يحتاجون إلى من يطمئنهم عندما يخافون.

رد عامر:

- نعم، يحتاجون إلى من يطمئنهم، لكنهم يحتاجون أيضًا إلى من يرشدهم إلى العلاج الصحيح، ويقف إلى جانبهم في أزماتهم، ولا يستغل ضعفهم. إذا مرض طفل، فعلينا أن نبحث عن أسباب مرضه ونطلب المساعدة الطبية المناسبة. وإذا خاف ليلًا، فعلينا أن نفهم خوفه ونطمئنه، لا أن نزرع في قلبه اعتقادًا بأن قوة خفية تطارده.

نظر الشيخ إلى عامر نظرة طويلة، ثم قال:

- يبدو أنك تريد تغيير القرية كلها.

أجابه عامر:

- لا أريد تغيير الناس بالقوة، ولا أريد أن أفرض عليهم أفكاري. أريد فقط أن يصبح السؤال أمرًا طبيعيًا، وأن يتعلم الناس ألا يسلموا عقولهم لأي شخص لمجرد أنه يتحدث باسم المعرفة أو يزعم امتلاك أسرار لا يعرفها غيره.

لم يرد الشيخ.

استدار نحو أحد الأركان، وبقي يتأمل لوحة كتب عليها :

«من حقك أن تؤمن بما تقتنع به، لكن ليس من حقك أن تظلم الآخرين باسم اعتقادك.»

قرأها مرتين، ثم تابع سيره بصمت.

أما عامر، فلم يشعر بالانتصار، ولم يحاول استغلال صمت الشيخ لإحراجه أمام الحاضرين. كان يعلم أن المواجهة الحقيقية ليست في إسكات الخصم، بل في جعل الإنسان يفكر فيما يسمعه، حتى لو لم يعترف بذلك أمام الآخرين.

6- سؤال لم يكن في الحسبان

وقبل انتهاء المعرض بقليل، وقف طفل لم يتجاوز الثانية عشرة أمام إحدى اللوحات، ثم رفع يده مترددًا.

اقتربت منه عائشة وسألته:

- هل تريد أن تسأل عن شيء؟

قال الطفل:

- أبي يقول إن من يسأل كثيرًا عن الأمور التي اعتاد الناس تصديقها، قد يجلب المتاعب لنفسه. فهل السؤال شيء سيئ؟

نظرت عائشة إلى عامر، الذي اقترب وجلس أمام الطفل حتى أصبح في مستوى عينيه.

قال له:

- هل تعرف كيف يبدأ الإنسان التعلم؟

هز الطفل رأسه نافيًا.

أجابه عامر:

- يبدأ بسؤال. عندما يسأل الطفل عن سبب المطر، أو كيف تنمو النباتات، أو لماذا يمرض الإنسان، فإنه يفتح بابًا للمعرفة. السؤال ليس عدوًا للإيمان ولا عدوًا للمجتمع. السؤال وسيلة لفهم العالم، بشرط أن نطرحه بأدب، وأن نبحث عن الإجابة بصدق.

قال الطفل:

- وماذا لو لم نجد الإجابة؟

ابتسم عامر:

- نقول إننا لا نعرف بعد، ثم نواصل البحث. ليس من العيب أن نعترف بجهلنا، لكن العيب أن ندعي معرفة شيء لا نعرفه، ثم نطلب من الآخرين تصديقنا دون دليل.

ابتسم الطفل، ثم قال:

- عندما أعود إلى البيت، سأخبر أبي بما تعلمته اليوم.

ربت عامر على كتفه وقال:

- أخبره بما فهمته، واستمع إليه أيضًا. لا تجعل اختلافكما سببًا للشجار. فالحوار الحقيقي لا يعني أن ينتصر أحدنا على الآخر، بل أن نحاول معًا الاقتراب من الحقيقة.

ابتعد الطفل بخطوات سريعة، بينما بقيت عائشة تراقبه حتى خرج من القاعة.

قالت لعامر:

- ربما يكون هذا الطفل أصغر زوار المعرض، لكنه طرح أهم سؤال فيه.

أجابها عامر:

- لأن مستقبل القرية يبدأ من الأطفال الذين يتعلمون أن عقولهم ليست سجنًا، وأن السؤال ليس جريمة.

7- نهاية المعرض وبداية المحاكمة الحقيقية

مع اقتراب المساء، بدأ الزوار يغادرون المركز الثقافي. لم يتفق الجميع مع ما عرضته اللوحات، ولم يتخلَّ بعضهم عن معتقداته القديمة، لكن شيئًا مختلفًا حدث في تلك الأمسية. كان الناس يتناقشون بدلًا من الاكتفاء بتبادل الاتهامات. بعضهم عاد إلى ركن معين لقراءة الأدلة مرة أخرى، وآخرون طلبوا من الطلاب مصادر المعلومات التي اعتمدوا عليها. حتى الذين أبدوا اعتراضهم على المعرض لم يجدوا فيه أسماءً لأشخاص يسخر منهم، ولا عبارات تهين تقاليدهم، بل أسئلة تطلب منهم التفكير.

جلس عامر في القاعة بعد انصراف معظم الحاضرين، يساعد عائشة وبقية الطلاب على جمع الأوراق وترتيب الكتب.

قال أحد الطلاب، وقد بدا عليه التعب:

- كنت أظن أننا سننهي المعرض اليوم، لكنني أشعر أننا فتحنا نقاشًا لن ينتهي قريبًا.

أجابه عامر:

- وهذا ما نريده. ليست غايتنا أن تنتهي الأسئلة بانتهاء المعرض، بل أن تبدأ في البيوت والمدارس والمقاهي، وأن تصبح جزءًا من حياة الناس.

قال طالب آخر:

- هل تعتقد أن الخرافات ستختفي من القرية يومًا ما؟

توقف عامر عن جمع الأوراق، ونظر إلى النوافذ التي بدأت العتمة تتسلل منها، ثم قال:

- ربما لا تختفي كلها، وربما تظهر خرافات جديدة بأسماء مختلفة. لكن المجتمع الذي يتعلم التفكير يصبح أقل قابلية للخداع. فالمعرفة ليست بابًا ندخله مرة واحدة ثم ننتهي، بل طريق طويل يحتاج إلى الصبر والتواضع والشجاعة.

اقتربت عائشة منه، وقد حملت دفترها الأزرق، وقالت:

- كتبت اليوم عبارة أريد أن أضيفها إلى سجل المعرض.

سألها:

- وما هي؟

فتحت دفترها وقرأت :

«ليست أخطر الأفكار تلك التي يختلف الناس حولها، بل تلك التي يمنعون أنفسهم من مناقشتها خوفًا من اكتشاف خطئهم.»

ابتسم عامر وقال:

- اكتبيها في الصفحة الأولى من سجلنا.

ثم أضاف بعد لحظة من الصمت:

- لكن تذكري أن علينا نحن أيضًا أن نراجع أفكارنا. فليس كل ما نعارضه خطأ، وليس كل ما نؤمن به صحيحًا لمجرد أننا نؤمن به. إذا أردنا أن نحارب الخرافة، فعلينا أولًا أن نحارب الغرور الذي يجعلنا نظن أننا لا نخطئ.

أغلقت عائشة دفترها، بينما كان آخر الطلاب يطفئ الأنوار.

خرج عامر من المركز الثقافي، ومشى في الطريق المؤدي إلى ساحة القرية.

كانت «عين النسر» هادئة كعادتها، والمنازل القديمة تقف على جانبي الطريق، فيما كانت أصوات بعض الرجال تتعالى من المقهى القريب.

لكنه شعر بأن شيئًا صغيرًا قد تغير.

لم تتبدل القرية في ليلة واحدة، ولم تسقط المعتقدات القديمة أمام لوحة أو نقاش، غير أن بعض الأسئلة بدأت تتحرك في العقول التي اعتادت الصمت.

وتذكر عامر كلمات جده، حين قال له يوم غادر القرية إلى الجامعة: «إن الإنسان قد يعيش عمره كله بين الناس، لكنه لا يعرف حقيقة ما حوله ما لم يتعلم كيف ينظر ويسأل ويفكر.»

توقف لحظة، ثم رفع عينيه نحو السماء.

لقد فهم أخيرًا أن «**اغتيال العقل**» لا يحدث دائمًا بالقوة أو بالسلاح؛ فقد يحدث عندما يُمنع الإنسان من السؤال، أو عندما يُخيفه الآخرون من التفكير، أو عندما يتنازل بإرادته عن حقه في البحث عن الحقيقة.

أما استعادة العقل، فلا تبدأ بمعركة ضد الأشخاص، بل بلحظة شجاعة يقرر فيها الإنسان أن يسأل:

ما الدليل؟

وكان ذلك السؤال، في «عين النسر»، أول شاهد في محاكمة طويلة لم تنتهِ بعد.

الفصل الثاني والعشرون:

اعتراف الشيخ فاضل:
حين انهار جدار الخرافة

كان المساء ينسحب ببطء عن قرية «عين النسر»، تاركًا وراءه ظلالًا طويلة تتسلل بين الأزقة الضيقة. في ذلك اليوم، لم يكن عامر يبحث عن خصومة، ولم يكن يريد أن ينتصر على رجل أمام الناس، بل كان يريد أن ينتصر للحقيقة التي ظلت سنوات طويلة حبيسة الخوف والصمت.

بعد تفكير طويل، قرر أن يطلب لقاءً خاصًا مع الشيخ فاضل، الرجل الذي التف حوله كثير من أهل القرية، وصدقوا أقواله حتى صاروا يخشون مخالفة أوامره. كان عامر يعرف أن المواجهة لن تكون سهلة، فالرجل الذي اعتاد أن يراه الناس صاحب أسرار لا يمكن أن يعترف بسهولة بأنه أخطأ، وأن كثيرًا مما كان يقدمه لهم على أنه علاج لم يكن سوى أوهام تستغل آلامهم وضعفهم.

أرسل عامر إليه رسالة قصيرة جاء فيها:

«يا شيخ فاضل، أريد أن ألقاك بعيدًا عن أعين الناس. لدي أسئلة لا أريد أن تبقى بلا جواب. لا أبحث عن إهانتك، بل عن الحقيقة. وأعتقد أن الوقت قد حان لكي نتحدث بصراحة.»

جاء الرد بعد ساعات قليلة:

«تعال بعد صلاة المغرب. سأكون في البيت.»

كان بيت الشيخ فاضل يقع في طرف القرية، بعيدًا عن الضوضاء. وحين وصل عامر، وجد الرجل جالسًا في غرفة

صغيرة، أمامه مصباح خافت وفنجان قهوة لم يلمسه. بدا أكبر سنًا مما كان يبدو عليه في مجالس الناس، وكانت التجاعيد حول عينيه أعمق، وكأن السنوات التي قضاها في إخفاء أسراره قد تركت آثارها على وجهه.

رفع الشيخ رأسه وقال بصوت حاول أن يجعله ثابتًا:

- أهلًا يا عامر. سمعت أنك أصبحت تحب كثرة الأسئلة، حتى إن بعض الناس يقولون إنك تريد تغيير عادات القرية كلها.

جلس عامر بهدوء، ثم أجاب:

- أنا لا أريد تغيير الناس بالقوة يا شيخ، ولا أريد أن أحرمهم من معتقداتهم الصحيحة. أريد فقط أن يتعلموا كيف يميزون بين الحقيقة والوهم، وبين العلم والخرافة، وبين النصيحة الصادقة والاستغلال.

ابتسم الشيخ ابتسامة باهتة.

- وهل جئت لتعلمني الدين والعلم؟ لقد عشت عمري كله بين الناس، أعرف أسرارهم ومخاوفهم أكثر مما تعرفها أنت.

نظر إليه عامر مباشرة وقال:

- ربما تعرف مخاوفهم فعلًا، لكن هل كنت تساعدهم على تجاوزها، أم كنت تزيدها حتى يظلوا محتاجين إليك؟

اختفت الابتسامة من وجه الشيخ.

- ماذا تقصد؟

- أقصد الأطفال الذين أخافوهم بكلامك عن الأرواح، والمرضى الذين منعتهم من الذهاب إلى الأطباء، والنساء اللواتي اتهمتهن بعض الناس بالنحس والحسد، والأسر التي دفعت لك المال لأنها ظنت أنك وحدك قادر على إنقاذ أبنائها.

ساد الصمت.

تحرك الشيخ في مقعده، ثم قال بحدة:

- الناس هم الذين يأتون إليّ! لم أجبر أحدًا على المجيء إلى بيتي.

أجابه عامر:

- صحيح، لم تجبرهم على المجيء بأيديهم، لكنك كنت تعرف كيف تجعلهم يخافون من البقاء بعيدًا عنك. كنت تقول للأب إن ابنه يتبعه شيء خفي، وللأم إن مرض طفلتها قد يكون بسبب عين حاسدة، وللرجل إن خسارته في تجارته نتيجة عمل سُحر له. وحين يسمع الإنسان مثل هذا الكلام وهو خائف، فإنه يصبح مستعدًا لتصديق أي شيء.

خفض الشيخ عينيه.

- كنت أقول ما أعتقده أحيانًا.

- وأحيانًا أخرى؟ لم يجب.

أخرج عامر دفترًا صغيرًا من جيبه ووضعه فوق الطاولة.

- هذا الدفتر يحتوي على أسماء بعض الأشخاص الذين طلبوا مساعدتك، وما حدث لهم بعد ذلك. لا أريد أن أتهمك بشيء

لم تفعله، لكنني أريد منك أن تشرح لي لماذا كنت تطلب من بعضهم ألا يخبروا الأطباء بما يحدث لأبنائهم، ولماذا كنت تمنع بعض الفتيات من مواصلة الدراسة بحجة أن العلم قد يفسدهن، ولماذا كنت تصر على أن كل من يخالفك إنما يعاند قوى لا يفهمها.

نظر الشيخ إلى الدفتر، ثم إلى عامر.

- من أين حصلت على هذه المعلومات؟

- من أصحابها. بعضهم تحدث إليّ بعد أن أدرك أن الخوف الذي عاش فيه لم يكن حقيقة. وبعضهم لا يزال يخشى أن يتكلم، لأنه يعتقد أنك قادر على إيذائه.

ضرب الشيخ بيده على الطاولة.

- أنا لست ساحرًا كما تتهمونني !

لم يرفع عامر صوته.

- لم أقل إنك ساحر. قلت إنك استعملت الخوف لتسيطر على عقول الناس. والفرق بين الأمرين أنك ربما لا تملك أي قوة خارقة، لكنك كنت تعرف كيف تجعل الآخرين يعتقدون أنك تملكها.

ارتجفت يد الشيخ قليلًا، فمدها نحو فنجان القهوة، ثم أعادها من دون أن يشرب.

للمرة الأولى، شعر أن الشاب الجالس أمامه لا يخاف منه، ولا يريد أن يستبدل سلطته بسلطة أخرى. كان عامر يطلب منه شيئًا واحدًا: أن يتكلم.

قال الشيخ بعد لحظة طويلة:

- ماذا تريد مني بالضبط؟

أجابه عامر:

- أريد الحقيقة يا شيخ فاضل. الحقيقة كاملة، حتى لو كانت مؤلمة.

هل كنت تعرف أنك تخدع الناس؟

أغمض الشيخ عينيه، وأسند ظهره إلى الجدار. بدا كأنه يصارع شيئًا في داخله، ثم أطلق زفرة طويلة وقال:

- لا أعرف من أين أبدأ.

قال عامر:

- ابدأ من البداية.

- الاعتراف الأول: كيف بدأت الحكاية؟

ظل الشيخ صامتًا برهة، ثم بدأ يتحدث بصوت خافت:

- لم أولد شيخًا، ولم أكن أملك علمًا يجعلني مختلفًا عن بقية الناس. كنت شابًا فقيرًا، أعيش مثل غيري، وأبحث عن مكانة بين أهل القرية. كنت أرى الناس يذهبون إلى رجال يظنون

أنهم يعرفون أسرار الغيب، فيجلسون أمامهم بخوف واحترام، ويقدمون لهم المال والهدايا، ويطيعون كلامهم من دون نقاش.

توقف قليلًا، ثم تابع:

- في البداية، كنت أستمع إلى الحكايات مثل الآخرين. سمعت عن الحسد والسحر والجن، وعن أشياء لا يستطيع أحد أن يثبتها. ومع مرور الوقت، اكتشفت أن الناس لا يحتاجون دائمًا إلى دليل؛ أحيانًا يكفي أن تخيفهم حتى يصدقوك.

قال عامر بحزن:

- وماذا فعلت عندما اكتشفت ذلك؟

أطرق الشيخ رأسه.

- بدأت أقلد أولئك الرجال. كنت أسمع شكوى شخص، ثم أقول له إن مشكلته قد تكون بسبب الحسد. فإذا وافقني، واصلت الحديث. وإذا بدا خائفًا، أخبرته أن الأمر يحتاج إلى متابعة. لم أكن أعرف الغيب، لكنني تعلمت كيف أقرأ وجوه الناس، وكيف أستفيد من الكلمات التي يقولونها، وكيف أجعلهم يربطون كل مصيبة بما أقوله لهم.

- وهل كنت تؤمن بما تقوله؟

- في بعض الأحيان كنت أصدق أوهامي أنا أيضًا. وفي أحيان أخرى كنت أعرف أنني لا أملك دليلًا، لكنني كنت أخشى أن أفقد المكانة التي صنعتها لنفسي.

رفع عامر رأسه وقال:

- إذن، لم تكن المشكلة في جهل الناس وحده، بل في استغلالك لهذا الجهل.

لم يعترض الشيخ.

- نعم. لقد استغليت خوفهم، وهذا ما يؤلمني الآن أكثر من أي شيء آخر.

- الاعتراف الثاني: الطفل الذي تأخر علاجه

تغيرت ملامح الشيخ عندما ذكر عامر الطفل الذي عانى نوبات من الخوف ليلًا، والذي أحضره والده إليه بعدما أقنعه بعض أهل القرية بأن ابنه يتعرض لأذى خفي.

قال عامر:

- أتذكر ذلك الطفل؟

أجاب الشيخ بسرعة:

- نعم، أتذكره.

- قلت لوالده إن شيئًا يتبعه، وطلبت منه أن يحضره إليك، وأن يحتفظ بالأمر سرًا. لماذا؟

مسح الشيخ جبينه بيده، ثم قال:

- كان الطفل يستيقظ مذعورًا، ويبكي، ويرفض النوم وحده. جاءني أبوه خائفًا، وكان يريد جوابًا سريعًا. بدل أن أقول له

إن هذه النوبات قد تكون مرتبطة بالخوف أو باضطراب النوم أو بأسباب صحية تحتاج إلى فحص، قلت له إن الأمر قد يكون بسبب شيء لا يراه الناس.

اشتد صوت عامر:

- وهل كنت تعرف أن كلامك قد يزيد خوف الطفل؟

- لم أفكر في ذلك كما ينبغي.

- بل كان عليك أن تفكر! فالطفل لا يعرف كيف يميز بين الحقيقة والخيال. عندما يسمع الكبار يتحدثون عن شيء يطارده، قد تتحول كلماتهم إلى وحش يسكن رأسه. كان يحتاج إلى الطمأنينة، وربما إلى طبيب يفحص حالته، لا إلى مزيد من الرعب.

انحنى الشيخ إلى الأمام، ووضع يديه فوق ركبتيه.

- أعرف ذلك الآن. لكنني لم أكن أريد أن أخسر الرجل الذي جاءني. كنت أريد أن يشعر أنني أملك حلًا لمشكلته.

- وهل قدمت له حلًا حقيقيًا؟

هز الشيخ رأسه ببطء.

- لا.

كانت الكلمة قصيرة، لكنها بدت ثقيلة في الغرفة.

تابع الشيخ:

- طلبت منه أن يعود إليّ، وأعطيته كلامًا يطمئنه لبعض الوقت، ثم يعود الخوف في الليل. وكلما عاد، ازداد اعتقاده بأن المشكلة كبيرة، وازداد اعتماده عليّ. لم أفهم أنني كنت أضع الخوف في قلب الطفل، ثم أبيع أباه كلمات يظنها علاجًا.

قال عامر:

- الاعتراف مهم، لكنه لا يمحو ما حدث. ذلك الطفل كان يستحق أن يحميه الكبار، لا أن يتنافسوا على تفسير خوفه بطرق تزيد معاناته.

أجاب الشيخ بصوت مكسور:

- أعلم. وأتمنى لو أنني قلت لوالده منذ البداية: خذ ابنك إلى الطبيب، واحتضنه، ولا تجعله ينام وهو يعتقد أن هناك شيئًا يريد إيذاءه.

- الاعتراف الثالث: عائشة وحلم الدراسة

رفع عامر عينيه نحو الشيخ وسأله:

- وماذا عن عائشة؟ الفتاة التي تفوقت في دراستها، وكانت تحلم بالالتحاق بالجامعة لتصبح طبيبة، ثم وجدت نفسها محاصرة بالخوف وكلام الناس؟

تنهد الشيخ طويلًا.

- أعرف أباها. جاءني يستشيرني بشأن سفرها إلى المدينة ومواصلة تعليمها.

- وماذا قلت له؟

- قلت له إن المدينة مليئة بالمخاطر، وإن الفتاة قد تتعرض لأمور لا تستطيع مواجهتها وحدها. لم أقل له إن التعليم حرام، لكنني لم أشجعه على تركها تواصل طريقها أيضًا.

- لماذا؟

سكت الشيخ، ثم قال:

- لأنني كنت أخشى أن تصبح عائشة مثالًا لبقية الفتيات. كنت أعرف أنها ذكية، وأنها إذا درست ونجحت، فستعود بأسئلة كثيرة، وربما تسأل عن الأشياء التي كنت أقولها للناس. كنت أخشى أن يفقد كلامي تأثيره إذا تعلم الناس كيف يفكرون ويبحثون عن الأدلة.

نظر إليه عامر بدهشة ممزوجة بالألم.

- هل تدرك ما تقوله؟ لقد ساهمت في إطفاء حلم فتاة لمجرد أنك خفت من أسئلتها!

قال الشيخ:

- نعم. لم أفكر في مستقبلها كما كان ينبغي. فكرت في نفسي وفي مكانتي بين الناس.

- وماذا لو كانت عائشة ستصبح طبيبة تنقذ الأطفال الذين تخيفهم أنت وأمثالك؟

لم يجد الشيخ جوابًا.

تابع عامر:

- المعرفة لا تجعل الإنسان عدوًا للدين، يا شيخ. والعلم لا يفسد الفتاة لأنها تريد أن تتعلم الطب. كان بإمكانك أن تنصح أباها بحمايتها، ومرافقتها، ومساعدتها على متابعة دراستها، بدل أن تجعل الخوف حجة لإغلاق الباب أمام مستقبلها.

انحنى الشيخ، وأخفى وجهه بين كفيه للحظات.

- لقد أخطأت في حقها. وإذا استطعت أن أصلح شيئًا من هذا الخطأ، فسأفعل.

- الاعتراف الرابع: نصيرة و أم الخير

بعد صمت قصير، قال عامر:

- وماذا عن نصيرة، الأرملة التي اتهمها بعض أهل القرية بالنحس، حتى صار الناس يتجنبونها ويتحدثون عنها أمام ابنها سالم؟ وماذا عن أم الخير التي كانت تنقل الحكايات من بيت إلى آخر؟

رفع الشيخ رأسه.

- لم أتهم نصيرة صراحة بأنها سبب المصائب، لكنني سمحت للكلام أن يستمر. كانت بعض النساء يأتينني ويحدثنني عن خلافاتهن وأمراض أبنائهن، فكنت أستمع إلى قصصهن، وأحيانًا أقول كلامًا غامضًا يتركنه ليفسرنه كما يشأن.

- وكنت تعلم أنهن سيخرجن من عندك وهن يعتقدن أن نصيرة هي السبب؟

- كنت أعرف أن هذا ممكن.

- فلماذا لم توقفهن؟

أجاب الشيخ بعد تردد:

- لأنني كنت أستفيد من خوفهن. عندما يعتقد الناس أن هناك سرًا خفيًا وراء كل مشكلة، يعودون إليّ طلبًا للتفسير. أما إذا قلت لهم إن المرض يحتاج إلى طبيب، وإن الخلاف يحتاج إلى حوار، وإن الفقر يحتاج إلى عمل وتعاون، فقد لا يعودون إليّ.

شعر عامر بغصة في حلقه.

- هل فكرت يومًا في سالم؟ في طفل يسمع زملاءه يسخرون من أمه، ويعود إلى البيت وهو يحمل كلمات جارحة لا يعرف كيف يرد عليها؟

قال الشيخ:

- لا. لم أفكر فيه.

- هذا هو أخطر ما في الخرافة؛ أنها لا تبقى حبيسة أفكار أصحابها. إنها تتحول إلى ظلم حقيقي، وإلى عزلة، وإلى أطفال يدفعون ثمن أكاذيب لم يقترفوها.

أطرق الشيخ رأسه.

- لقد ظلمنا نصيرة، وظلمنا ابنها. وأنا واحد ممن ساهموا في ذلك بالصمت، ولو لم أكن صاحب الاتهام الأول.

قال عامر:

- إذن، يجب أن تكون شجاعًا بما يكفي لتقول الحقيقة أمام الناس، لا هنا فقط.

- الاعتراف الخامس: المال الذي جاء من الخوف

كان عامر قد ترك للشيخ وقتًا طويلًا ليتحدث، لكنه شعر أن هناك سؤالًا لم يُطرح بعد.

قال:

- هل أخذت المال من الناس مقابل هذه الممارسات؟

تردد الشيخ، ثم أجاب:

- نعم.

- هل كنت تطلب منهم المال لأنك تقدم علاجًا تعرف أنه نافع، أم لأنك كنت تخشى أن يبتعدوا عنك؟

قال الشيخ:

- في البداية كنت أقبل ما يقدمونه لي، ثم بدأت أطلب المال أحيانًا. كنت أقول لنفسي إنني أساعدهم، وإن من حقي أن آخذ مقابل وقتي. لكنني كنت أعرف في داخلي أنني لا أستطيع أن أضمن لهم ما أعدهم به.

- هل أعدت التفكير في أولئك الذين باعوا أشياء من ممتلكاتهم أو استدانوا من أجل دفع المال لك؟

أغمض الشيخ عينيه.

- نعم، وأشعر بالخجل كلما تذكرتهم. بعضهم كان فقيرًا، ومع ذلك كان يأتي بما يستطيع لأنه يخشى أن يصيب أبناءه مكروه. كنت أرى الخوف في وجوههم، لكنني لم أكن أتوقف لأفكر في مقدار ما يأخذونه من قوت أسرهم ليقدموا لي المال.

قال عامر:

- حين يستغل الإنسان حاجة الآخرين، فإنه لا يأخذ أموالهم فقط، بل يأخذ من وقتهم وطمأنينتهم، وربما من صحتهم أيضًا.

رد الشيخ:

- لا أستطيع أن أغير الماضي، لكنني أستطيع أن أبدأ بإعادة ما أقدر عليه إلى أصحابه، وأن أعترف بأنني لم أكن أملك المعرفة التي أوهمتهم أنني أملكها.

كانت تلك أول مرة يتحدث فيها الشيخ عن رد الحقوق بدل البحث عن مبررات.

- الاعتراف السادس: لماذا كنت تخاف من عامر؟

أخرج الشيخ منديلًا من جيبه، ومسح به عينيه، ثم قال:

- هل تعرف يا عامر لماذا لم أحب عودتك إلى القرية بعد دراستك الجامعية؟

أجابه عامر:

- لأنك كنت تعرف أنني لن أقبل كل ما تقوله من دون سؤال؟

هز الشيخ رأسه.

- نعم. عندما عدت، رأيت فيك شيئًا لم أكن أريد أن أراه في شباب القرية. كنت تسأل عن الدليل، وتطلب تفسيرًا منطقيًا، ولا تتردد في قول: لا أعرف. أما أنا، فقد بنيت مكانتي على أن أبدو وكأنني أعرف كل شيء.

ثم أضاف بصوت خافت:

- كنت أخشى أن يجلس الناس إليك كما كانوا يجلسون إليّ، وأن يسألوك عن مشكلاتهم بدل أن يأتوا إلى بيتي. كنت أظن أنني إذا حافظت على خوفي من الأسئلة، فسأحافظ على مكاني.

قال عامر:

- أنا لا أريد مكانك، يا شيخ. ولا أريد أن يصبح الناس أتباعًا لي بدل أن يكونوا أتباعًا لك. أريدهم أن يتعلموا التفكير بأنفسهم، وأن يعرفوا أن الاعتراف بالجهل ليس عيبًا، وأن السؤال ليس جريمة، وأن من يملك الحقيقة لا يخشى مناقشتها.

رفع الشيخ رأسه وقال:

- لكن الناس اعتادوا عليّ. بعضهم لن يصدق أنني كنت مخطئًا، وبعضهم سيقول إنك أجبرتني على هذا الاعتراف.

أجابه عامر:

- لهذا يجب أن تتحدث أمامهم بنفسك. لا يكفي أن تعترف لي في غرفة مغلقة، ثم تعود غدًا إلى المجلس وتكرر الحكايات نفسها. الحقيقة التي تبقى سرًا قد تخفف عن ضميرك، لكنها لا تحمي الناس من استمرار الخداع.

- الاعتراف الأخير: حين سقط القناع

طال الصمت بين الرجلين.

كان المصباح الصغير يرسل ضوءًا مرتعشًا على الجدار، بينما كانت أصوات القرية تصل إليهما خافتة من بعيد. نهض الشيخ فاضل، ومشى ببطء نحو النافذة، ثم وقف ينظر إلى الأزقة التي عرفها طوال حياته.

قال من دون أن يلتفت:

- كنت أظن أن الناس سيحترمونني ما داموا يخافونني. لم أفهم أن الخوف قد يجعل الإنسان يطيعك، لكنه لا يجعله يحترمك حقًا.

عاد إلى مقعده، ثم نظر إلى عامر بعينين دامعتين.

- سأقول لك الحقيقة التي أخفيتها طويلًا:

لم أكن أملك أسرارًا كما ادعيت، ولم أكن أعرف الغيب، ولم تكن لديّ قدرة خارقة على كشف أسباب المرض أو الفشل أو المصائب. كنت أسمع قصص الناس، وأستعمل كلمات غامضة، وأربط الأحداث بعضها ببعض، ثم أترك لهم أن يملؤوا الفراغ بخوفهم.

ابتلع ريقه، وتابع:

- عندما كان طفل يمرض، كنت أجد من يصدق أن وراء مرضه أمرًا خفيًا. وعندما تتأخر فتاة عن الزواج، كنت أجد من يبحث عن تفسير غامض. وعندما يخسر رجل ماله، كنت أجد من يظن أن أحدًا استهدفه. لم أكن أملك دليلًا على تلك التفسيرات، لكنني كنت أقدمها أحيانًا كما لو أنها حقائق.

ثم وضع يديه على وجهه وقال:

- لقد أخطأت في حق الناس. جعلت بعض الآباء يخافون على أبنائهم من أشياء لا دليل عليها، وكنت سببًا في تأخر بعضهم

عن طلب العلاج المناسب. وساهمت في نشر الشك بين الجيران، وفي ظلم نصيرة، وفي إضعاف حلم عائشة. أخذت المال من أناس كانوا يحتاجون إليه أكثر مني، وتركتهم يعتقدون أن خلاصهم مرتبط بي.

توقف عن الكلام، وكأن الكلمات الأخيرة استنزفت ما بقي في داخله من قوة.

ثم رفع رأسه وقال:

- يا عامر، اكتب ما تشاء عن هذا الاعتراف، لكن لا تجعلني بطل الحكاية. أنا رجل أخطأ، وربما لن أستطيع إصلاح كل ما أفسدته. أريد فقط أن أجد الشجاعة لأقول للناس إنهم لا يحتاجون إلى الخوف مني، ولا من غيري، وإن عليهم أن يسألوا ويتعلموا ويبحثوا عن الحقيقة.

نظر عامر إليه طويلًا، ثم قال:

- لن أكتب أنك وحش، ولن أكتب أنك لم تخطئ. سأكتب أنك إنسان استسلم للخوف والطمع وحب المكانة، ثم بدأ يرى نتائج أفعاله. لكن الاعتراف الحقيقي لا يكتمل بالبكاء، ولا بالكلمات التي تقال في لحظة ضعف. إنه يبدأ عندما تتحمل مسؤولية ما فعلت.

سأل الشيخ:

- وماذا تريدني أن أفعل؟

أجابه عامر بحزم:

- غدًا، سنجمع أهل القرية في المركز الثقافي. ستقف أمامهم وتقول ما قلته لي. ستوضح لهم أنك لا تعرف الغيب، وأنك لا تستطيع تشخيص الأمراض أو علاجها بالخرافات، وأن من يعاني مرضًا يحتاج إلى مختص، وأن الفتاة التي تريد الدراسة لا ينبغي أن تُحرم من حلمها بسبب أوهام الآخرين. وستعتذر لنصيرة وابنها، و لعائشة ووالدها، ولكل شخص أسأت إليه.

أطرق الشيخ رأسه، ثم قال:

- سأفعل.

- وهل أنت مستعد لأن يرفضك بعض الناس بعد ذلك؟

أجاب بعد لحظة من التردد:

- لا أعرف. أخاف من ذلك، لكنني تعبت من العيش خلف قناع لا أستطيع خلعه.

ابتسم عامر ابتسامة خفيفة، وقال:

- الشجاعة ليست أن تتظاهر بأنك لا تخاف، بل أن تتوقف عن إيذاء الآخرين بسبب خوفك.

نهض عامر استعدادًا للمغادرة، لكنه توقف عند الباب حين سمع الشيخ يناديه:

- يا عامر ! التفت إليه.

قال الشيخ بصوت خافت:

- هل تعتقد أن الناس يمكن أن يسامحوني؟

أجابه عامر:

- هذا حقهم، وليس لي أن أجيب عنهم. قد يسامحك بعضهم، وقد يحتاج آخرون إلى وقت طويل، وقد يرفض بعضهم مسامحتك. لكنك لا تستطيع أن تطلب الصفح قبل أن تعترف بحقوق من ظلمتهم، وتحاول إصلاح ما تستطيع إصلاحه.

ثم فتح الباب وخرج.

- صباح الحقيقة

في صباح اليوم التالي، استيقظت «عين النسر» على خبر لم تعتد سماعه.

الشيخ فاضل، الرجل الذي ظل سنوات يتحدث بثقة عن أسرار لا يراها غيره، سيقف أمام أهل القرية ليعترف بأخطائه.

تجمع الناس في المركز الثقافي، بعضهم جاء بدافع الفضول، وبعضهم جاء غاضبًا، وآخرون لم يصدقوا أن الشيخ يمكن أن يتراجع عن كلامه.

وقفت نصيرة في آخر القاعة، وإلى جوارها ابنها سالم.

وجلست عائشة قرب والدها، بينما حضر والد الطفل الذي عانى نوبات الخوف، وجاء آخرون يحملون أسئلة ظلت تؤرقهم سنوات.

دخل الشيخ فاضل بملابس بسيطة، من دون مظاهر توحي بأنه جاء ليقدم عرضًا جديدًا. صعد إلى المنصة، وأمسك بطرفها بكلتا يديه.

ظل صامتًا لحظات، ثم قال:

- يا أهل «عين النسر»، لم أجمعكم اليوم لأطلب منكم أن تصدقوني، بل لأقول لكم إنكم صدقتموني في أشياء لم يكن لديّ دليل عليها. لقد أخطأت عندما فسرت بعض الأمراض والمصائب بتفسيرات لا أستطيع إثباتها، وأخطأت عندما سمحت للخوف بأن يقود كلامي، وأخطأت عندما جعلت بعضكم يعتقد أن خلاصه لا يكون إلا بالعودة إليّ.

بدأ الهمس ينتشر في القاعة.

تابع الشيخ:

- لم أكن أعرف الغيب، ولم أملك قدرة على كشف أسرار لا يعلمها البشر. وفي بعض المواقف، كنت أستغل خوف الناس وحاجتهم إلى الأمل، بدل أن أساعدهم على البحث عن الحل الصحيح. أعتذر لكل أسرة تأخرت في طلب العلاج بسبب كلامي، ولكل أب ازداد خوفه على ابنه، ولكل فتاة أُغلقت أمامها أبواب العلم بسبب أفكار ساهمت في نشرها.

ثم التفت نحو نصيرة.

- وأعتذر لك يا نصيرة. لم أدافع عنك حين كان الناس يتهمونك بما لا دليل عليه، وسمحت لكلام الخرافة أن يجرحك ويجرح ابنك. لم تكوني مسؤولة عن مصائب الآخرين، ولم يكن من حق أحد أن يجعل حياتك سببًا لكل ما يحدث حوله.

لم تستطع نصيرة إخفاء دموعها، لكنها لم تتكلم.

ثم نظر الشيخ إلى عائشة ووالدها.

- وأعتذر لكما. لم يكن ينبغي أن أساهم في جعل الخوف حاجزًا بين فتاة متفوقة وحلمها. العلم ليس عدوًا للإنسان، والسؤال ليس فسادًا، والبحث عن الحقيقة لا ينتقص من إيمان أحد.

انخفض رأس الشيخ، ثم قال:

- لا أطلب منكم أن تنسوا ما حدث، ولا أطلب منكم أن تعودوا إلى الثقة بي كما كنتم. أطلب فقط أن تتعلموا من أخطائي، وألا تسمحوا لأي إنسان، مهما علت مكانته، بأن يجعل عقولكم رهينة لكلامه. اسألوا عن الدليل، واستشيروا أهل الاختصاص، ولا تتخذوا قراراتكم تحت ضغط الخوف.

ساد الصمت في القاعة.

لم يصفق أحد في البداية. لم يكن المشهد احتفالًا بانتصار، بل مواجهة مؤلمة مع سنوات من التصديق والسكوت. بعض الحاضرين أنزلوا رؤوسهم، لأنهم تذكروا كيف شاركوا في نشر

حكايات عن جيرانهم، وبعضهم نظر إلى الشيخ بغضب، فيما بدا على آخرين أنهم بدأوا يفهمون كيف يمكن للخوف أن يتحول إلى سلطة.

أما عامر، فكان واقفًا قرب النافذة، يراقب الوجوه.

لم يشعر بأنه هزم الشيخ فاضل، بل شعر أن القرية بدأت تخطو أولى خطواتها للخروج من السجن الذي صنعته لنفسها.

اقترب منه أحد الشبان وهمس:

- هل انتهت المشكلة الآن؟

أجابه عامر:

- لا. الاعتراف يفتح الباب، لكنه لا يمشي بنا إلى نهايته. علينا أن نتعلم، وأن نراجع ما نسمعه، وأن نحمي أبناءنا من الخوف، وأن نمنح كل إنسان حقه في السؤال.

وفي تلك اللحظة، رفعت عائشة رأسها وقالت بصوت:

- سأعود إلى حلمي. سأدرس الطب، وسأحاول أن أساعد الأطفال الذين لا يجدون من يفسر خوفهم إلا بالخرافة.

ابتسم عامر لها، بينما وضع والدها يده على كتفها، وكأنه أدرك متأخرًا أن حماية ابنته لا تعني إغلاق الأبواب أمامها، بل إعدادها لتواجه العالم بالعلم والوعي.

وفي آخر القاعة، كان سالم يمسك بيد أمه نصيرة. لم تختفِ جراحهما بكلمات الشيخ، لكن شيئًا تغير؛ فقد سمع

الناس اعتذارًا علنيًا، ولم تعد الاتهامات القديمة تبدو حقائق لا يجوز المساس بها.

خرج أهل «عين النسر» من المركز الثقافي، وكل واحد يحمل في داخله سؤالًا جديدًا.

أما الشيخ فاضل، فقد بقي جالسًا على المنصة بعد انصراف الجميع، يحدق في الكرسي الذي اعتاد أن يجلس عليه الناس أمامه بخوف.

لأول مرة منذ سنوات، لم يكن أحد ينتظر منه تفسيرًا للغيب.

ولأول مرة، لم يكن الصمت الذي يحيط به علامة على الهيبة.

كان صمتًا يطالبه بأن يواجه نفسه.

وفي «عين النسر»، لم يكن أخطر ما حدث أن الشيخ فاضل اعترف بأخطائه، بل أن أهل القرية بدأوا يدركون أن العقل لا يُغتال دفعة واحدة؛ بل يُغتال كلما خاف الإنسان من السؤال، وكلما سلّم تفكيره لغيره، وكلما صدّق الحكاية لأن قائلها يملك سلطة، لا لأن لديه دليلًا.

ومنذ ذلك اليوم، بدأ عامر معركة جديدة؛ لم تكن معركة ضد رجل واحد، بل ضد كل فكرة تجعل الخوف بديلًا عن المعرفة، وكل صوت يطلب الطاعة بدل التفكير.

فقد أدرك أن تحرير القرية لا يبدأ بإسقاط الشيخ من مكانه، وإنما بتحرير العقول التي صنعت له ذلك المكان.

وهكذا بدأت «عين النسر» تستعيد حقها في السؤال.

البداية. لم يكن المشهد احتفالًا بانتصار، بل مواجهة مؤلمة مع سنوات من التصديق والسكوت. بعض الحاضرين أنزلوا رؤوسهم، لأنهم تذكروا كيف شاركوا في نشر حكايات عن جيرانهم، وبعضهم نظر إلى الشيخ بغضب، فيما بدا على آخرين أنهم بدأوا يفهمون كيف يمكن للخوف أن يتحول إلى سلطة.

الفصل الأخير:
اغتيال العقل

مرّ عام كامل منذ عودة عامر إلى «عين النسر». لم تتغير القرية كلها، ولم تختف الخرافات من بيوتها، ولم يصبح كل سكانها قادرين على التمييز بين الدليل والشائعة. ما زال بعض الناس يعلقون قطع القماش فوق أبوابهم، وما زال آخرون يفسرون المصائب بتفسيرات لا تقوم على دليل، وما زالت الأمهات يخشين على أبنائهن من كلام الجيران.

لكن شيئًا جديدًا بدأ يظهر.

صار بعض المرضى يسألون عن الطبيب قبل أن يطلبوا العلاج من أي شخص آخر. وأصبح عدد من الآباء يسمحون لبناتهم بمواصلة الدراسة. وبدأ المعلمون ينظمون لقاءات حول القراءة والتفكير النقدي، فيما تحولت غرفة صغيرة في المدرسة القديمة إلى مكتبة مؤقتة.

أما عائشة، فقد بدأت سنتها الجامعية الأولى.

وكانت ترسل إلى أمها رسائل تخبرها فيها عن دروسها، وعن زميلاتها، وعن الصعوبات التي تواجهها.

أما جعفر، والد الطفل ياسر، فقد أصبح يشارك في اللقاءات الصحية، ويحدث الناس عن ضرورة طلب العلاج في الوقت المناسب. ولم ينسَ ابنه.

كان يحمل صورته في محفظته، ويشعر بالألم كلما تذكر الأيام الأخيرة من حياته. لكنه قرر أن يجعل من تجربته تحذيرًا للآخرين، لا سرًا يخفيه خوفًا من كلام الناس.

وفي مساء ربيعي، اجتمع سكان القرية في الساحة القريبة من شجرة الزيتون.

كان عامر قد دعاهم إلى لقاء مفتوح بمناسبة إعادة افتتاح المكتبة.

وقف أمامهم، وفي يده دفتر جده القديم.

قال:

- عندما عدت إلى هذه القرية، كنت أظن أن مشكلتنا هي الخرافات وحدها. لكنني اكتشفت أن الأمر أعمق من ذلك. المشكلة تبدأ حين نخاف من السؤال، وحين نعتبر الاعتراف بالخطأ هزيمة، وحين نسمح لشخص أن يتحكم في قراراتنا لمجرد أنه يدعي معرفة ما لا نعرفه.

نظر إلى الوجوه أمامه.

- الخرافة لا تعيش دائمًا لأن الناس أغبياء. قد تعيش لأنهم خائفون، أو لأنهم لا يجدون من يستمع إليهم، أو لأنهم يبحثون عن تفسير سريع لمصيبة مؤلمة. ولهذا فإن محاربتها تحتاج إلى العلم والعدل والرحمة معًا.

توقف قليلًا، ثم فتح دفتر جده وقرأ:

«أخطر الخرافات ليست تلك التي تجعل الإنسان يخاف من المجهول، بل تلك التي تقنعه بأنه لا يحتاج إلى التفكير.»

أغلق الدفتر.

- حين يتوقف الإنسان عن السؤال، يبدأ عقله في التراجع. وحين يخاف من مراجعة أفكاره، يصبح أسيرًا لها. وحين يسلم قراره لشخص يطالبه بالطاعة العمياء، يكون قد تنازل عن جزء من حريته.

ثم قال بصوت أكثر هدوءًا:

- قد يُقتل العقل دون أن تسيل قطرة دم واحدة. يُقتل حين يُمنع الطفل من السؤال، وحين تُحرم الفتاة من التعليم بسبب خوف لا دليل عليه، وحين يُتهم البريء لأن الناس يحتاجون إلى مذنب، وحين يُترك المريض بعيدًا عن العلاج لأن أحدهم أقنع أسرته بأن المرض سببه أمر غامض لا يحتاج إلى طبيب.

ساد الصمت.

كانت الكلمات تصل إلى بعض الحاضرين كأنها تفتح نوافذ في بيوت مغلقة منذ سنوات.

تابع عامر:

- عنوان هذه الحكاية هو «**اغتيال العقل**»، لكنني لا أريد أن تكون نهايتها موت العقل. أريدها أن تكون بداية عودته.

في تلك اللحظة، تقدم طفل صغير من بين الحاضرين. كان هو نفسه الطفل الذي سأل في المناظرة عن البومة والامتحان.

رفع يده وقال:

- يا عم عامر، هل يعني هذا أننا يجب أن نشك في كل شيء؟

ابتسم عامر.

- لا يا بني. يعني أن نكون فضوليين وعادلين. لا نصدق كل ما نسمعه، ولا نرفض كل ما لا نفهمه. نبحث عن الدليل، ونعترف بما نجهله، ونستمع إلى من يختلف معنا.

سأله الطفل:

- وإذا اكتشفنا أننا كنا مخطئين؟

أجاب عامر:

- نشكر من ساعدنا على معرفة الحقيقة، ثم نغيّر رأينا عندما يكون لدينا سبب وجيه لذلك.

ابتسم الطفل، وعاد إلى مكانه.

في آخر الساحة، كان الشيخ فاضل يقف بعيدًا عن الجمع. لم يتقدم إلى المنصة، ولم يطلب من الناس أن ينظروا إليه. كان يستمع في صمت، وقد بدا على وجهه شيء من الحيرة.

لم يعرف أحد إن كان قد تغير حقًا، أم أنه كان يراجع فقط ما خسره.

لكن عامر لم يجعل من تغيير الشيخ شرطًا لنجاح المشروع. فالعقل لا ينتظر موافقة شخص واحد حتى يبدأ في العمل.

بعد انتهاء اللقاء، دخل الأطفال إلى المكتبة الجديدة، وراحوا يتصفحون الكتب ويكتبون أسماءهم في سجل الاستعارة. اختارت فتاة صغيرة كتابًا عن الفضاء، بينما أخذ طفل آخر كتابًا عن جسم الإنسان.

أما عامر، فوقف عند النافذة يتأمل الساحة.

كانت شجرة الزيتون القديمة كما هي، والبيوت كما هي، والطرقات لم تتغير كثيرًا.

لكن القرية لم تعد كما كانت تمامًا.

لقد تعلم بعض أهلها أن السؤال ليس إهانة، وأن الاعتراف بالخطأ ليس عارًا، وأن احترام الأجداد لا يعني تكرار كل ما فعلوه، وأن المعتقد الذي يطلب من الإنسان أن يعطل عقله يستحق المراجعة.

أخرج عامر دفتر جده، وفتح الصفحة الأخيرة، ثم كتب تحت العبارة القديمة:

«قد يُغتال العقل بالصمت والخوف والتلقين، لكنه يستطيع أن يعود كلما تجرأ إنسان على السؤال، وكلما امتلك آخر شجاعة الاعتراف، وكلما اجتمع الناس على طلب الحقيقة بدلًا من حماية أوهامهم.»

ثم أغلق الدفتر.

وفي الخارج، ارتفعت أصوات الأطفال وهم يختلفون حول كتاب، ويقدم كل واحد منهم حجته، ويضحكون حين يكتشفون أن أحدهم أخطأ في معلومة.

لم يطلب منهم أحد أن يصمتوا.

ولم يعاقبهم أحد لأنهم سألوا.

في تلك اللحظة، شعر عامر أن القرية بدأت تتعلم درسًا بسيطًا، لكنه أصعب من كل الخطب:

إن العقل يحيا حين نملك جميع الإجابات، بل حين نمتلك الشجاعة لمواصلة البحث عنها.

...النهاية

الخاتمة

في نهاية الرحلة، أدرك عامر أن أخطر ما يمكن أن يصيب الإنسان ليس الفقر ولا الجهل وحدهما، بل أن يفقد قدرته على التفكير، فيصبح أسيرًا للخرافات، تابعًا للأوهام، خائفًا من الحقيقة.

لقد تعلّم أن العقل نعمة لا تُصان إلا بالعلم، وأن الإيمان الحقيقي لا يتعارض مع التفكير السليم، وأن مواجهة الخرافة تبدأ بسؤال صغير، ثم شجاعة في البحث عن الجواب.

وهكذا عاد عامر إلى قريته، لا ليحارب أهلها، بل ليوقظ فيهم الرغبة في المعرفة، ويزرع بذور الوعي في عقول أبنائها.

لقد انتهت الحكاية، لكن المعركة لم تنتهِ؛ فاغتيال العقل جريمة تتكرر كلما استسلم الإنسان للخرافة، واستعادته تبدأ حين يجرؤ على التفكير.

عمارة عبدالمالك

تحليل رواية
«إغتيال العقل»

أولًا: التعريف بالرواية

تُعدّ رواية «**إغتيال العقل**» عملًا أدبيًا اجتماعيًا وفكريًا، يعالج واحدة من أخطر المشكلات التي يمكن أن تواجه المجتمعات، وهي تعطيل العقل، ومصادرة حق الإنسان في التفكير والسؤال، وإخضاعه للخرافة والشعوذة والمعتقدات التي تنتشر دون دليل أو برهان.

تدور أحداث الرواية في قرية جزائرية متخيّلة تُدعى «**عين النسر**»، وهي قرية تشبه في تفاصيلها كثيرًا من القرى التي تتمسك بعاداتها وتقاليدها، غير أن بعض أفرادها يعيشون تحت تأثير الخوف من المجهول، ويجدون في تفسيرات المشعوذين ملاذًا لكل مشكلة أو حادثة غامضة.

في هذا المجتمع، يظهر عامر، الشاب الذي غادر قريته لمتابعة دراسته الجامعية، ثم عاد إليها وهو يحمل أفكارًا جديدة وإيمانًا بقدرة الإنسان على التغيير من خلال العلم والحوار والتفكير النقدي. ومن هنا تبدأ رحلته في مواجهة الجهل والخرافة، ومحاولة تحرير العقول من القيود التي كبّلتها سنوات طويلة.

ثانيًا: دلالة العنوان «إغتيال العقل»

يحمل عنوان الرواية دلالة عميقة تتجاوز المعنى الحرفي للاغتيال. فالاغتيال عادةً ما يرتبط بإنهاء حياة الإنسان، أما في هذه الرواية، فإن المستهدف هو العقل، أي قدرة الإنسان على التفكير والتحليل والتمييز بين الحقيقة والوهم.

إن «اغتيال العقل» لا يحدث بالضرورة عن طريق العنف الجسدي، بل قد يحدث تدريجيًا عندما يُمنع الإنسان من السؤال، ويُطلب منه تصديق كل ما يُقال له دون تمحيص، ويُخيفه المجتمع من المعرفة، أو يُقنعه بأن التفكير المستقل خروج عن المألوف.

وهكذا يصبح العنوان مفتاحًا لفهم الرسالة المركزية للرواية؛ فالمشكلة ليست في وجود المعتقدات الشعبية وحدها، وإنما في تحولها إلى سلطة تُعطّل التفكير، وتستغل الخوف، وتمنع الإنسان من البحث عن الأسباب الحقيقية لما يحدث حوله.

ومن الناحية الرمزية، يشير العنوان إلى أن أخطر أشكال الجهل هو ذلك الذي يجعل الإنسان يتخلى بإرادته عن عقله، ويصبح أسيرًا لأفكار لم يختبر صحتها.

ثالثًا: تحليل شخصية عامر

يمثل عامر الشخصية المحورية في الرواية، وهو رمز للوعي والمعرفة والرغبة في الإصلاح.

نشأ في قرية «عين النسر»، وعرف عادات أهلها ومخاوفهم، ثم غادرها لمتابعة دراسته الجامعية. وقد ساعدته تجربته التعليمية على اكتساب القدرة على التحليل والنظر إلى الأمور من زوايا متعددة . وعندما عاد إلى قريته، لم يتعامل مع أهلها باعتبارهم أعداءً أو أشخاصًا لا يفهمون، بل حاول أن يفهم الأسباب التي جعلتهم يؤمنون ببعض المعتقدات الخاطئة. أدرك أن مواجهة الخرافة لا تكون بالسخرية من أصحابها أو إهانتهم، وإنما بالحوار والإقناع وتقديم الأدلة.

ويتجلى دوره الإصلاحي في تنظيم لقاء بالمركز الثقافي تحت عنوان «**كيف نفكر قبل أن نصدق**»، حيث يدعو الحاضرين إلى التمييز بين الحقيقة والإشاعة، وبين الاعتقاد الشخصي والدليل القابل للفحص.

كما تتجسد أفكاره في اقتراح تنظيم معرض ثقافي بعنوان «**محاكمة الأفكار**»، يعرض فيه الطلاب مجموعة من المعتقدات الشائعة، ثم يناقشون الأدلة التي تؤيدها أو تنقضها.

ولم يكن الهدف محاكمة الأشخاص أو السخرية من تراث المجتمع، بل تدريبهم على التفكير المستقل.

إن قوة شخصية عامر تكمن في أنه لا يكتفي برفض الأفكار الخاطئة، بل يسعى إلى بناء بديل يقوم على المعرفة والحوار واحترام الإنسان.

ومع ذلك، فإن نجاحه لا يعتمد على امتلاكه للحقيقة وحده، بل على قدرته على الصبر وفهم البيئة التي يحاول تغييرها.

رابعًا: تحليل شخصية الشيخ فاضل

يمثل الشيخ فاضل أحد أهم عناصر الصراع في الرواية، إذ يرتبط اسمه بممارسات الشعوذة واستغلال خوف الناس من المجهول.

لقد استطاع أن يجد لنفسه مكانة داخل القرية من خلال تقديم تفسيرات غامضة للمشكلات التي يعجز بعض السكان عن فهمها. فحين يمرض طفل، أو يعاني أحدهم الخوف ليلًا، أو تقع حادثة غير مألوفة، يجد الشيخ فرصة لربطها بأسباب خفية لا يستطيع الآخرون التحقق منها.

وتزداد خطورة هذه الممارسات عندما تتحول إلى وسيلة للتحكم في سلوك الناس، وتوجيه قراراتهم، واستغلال ضعفهم النفسي والاجتماعي.

لكن شخصية الشيخ فاضل لا تكتسب أهميتها من كونها خصمًا لعامر فحسب، بل من خلال لحظة الاعتراف التي تشكل نقطة تحول في الأحداث.

فعندما يطلب عامر لقاءه، ويواجهه بالحوار والأسئلة، يصل الصراع إلى مرحلة جديدة، حيث يصبح الشيخ مطالبًا بمواجهة حقيقة أفعاله بدلًا من الاحتماء بالغموض والخوف. ويمثل اعترافه لحظة انكشاف الحقيقة، إذ تتراجع الصورة التي بناها حول نفسه، ويظهر التناقض بين ما كان يدّعيه وما كان يمارسه.

ومن خلال هذه الشخصية، تكشف الرواية كيف يمكن للخوف أن يتحول إلى وسيلة للنفوذ، وكيف يستطيع بعض الأشخاص استغلال حاجة المجتمع إلى التفسير والطمأنينة لتحقيق مصالحهم.

خامسًا: تحليل شخصية عائشة

تمثل عائشة نموذجًا للفتاة التي تطمح إلى التعلم وتحقيق ذاتها، لكنها تصطدم بالقيود الاجتماعية والخوف من المجهول.

إنها فتاة هادئة، محبة للقراءة والكتابة، تحتفظ بدفتر أزرق تدوّن فيه خواطرها وأفكارها.

وقد أنهت دراستها الثانوية بتفوق، وكان حلمها أن تلتحق بالجامعة لدراسة الطب.

غير أن والدها يرفض فكرة سفرها إلى المدينة، بحجة أنها ليست مكانًا آمنًا، ويتأثر في موقفه بنصائح الشيخ فاضل وتحذيراته.

وهنا لا يقتصر الصراع على مستقبل فتاة واحدة، بل يتسع ليطرح قضية حق المرأة في التعليم، وحدود سلطة الأسرة، وتأثير المعتقدات السائدة في اتخاذ القرارات المصيرية. ولا تقدم الرواية والد عائشة بالضرورة بوصفه شريرًا، بل باعتباره أبًا قد يكون مدفوعًا بالخوف والحرص على ابنته، لكنه يسمح لهذه المشاعر بأن تتحول إلى حاجز أمام مستقبلها. وتبرز أهمية شخصية عائشة في أنها تكشف أن «اغتيال العقل» قد يحدث داخل الأسرة أيضًا، عندما يُمنع الأبناء من الاختيار والتعلم، لا بسبب نقص قدراتهم، بل بسبب مخاوف لم تخضع للنقاش العقلاني.

ومن خلال قصتها، تدافع الرواية عن حق الفتاة في التعليم، وعن ضرورة التمييز بين الحماية التي تساعد الإنسان على النمو، والحماية المفرطة التي تسلبه حريته.

سادسًا: شخصية جعفر والطبيب كمال

تضيف شخصية جعفر، والد الطفل المتوفى، بُعدًا إنسانيًا مؤثرًا إلى الرواية؛ فهو أب يعيش ألم الفقد، ويبحث عن تفسير لما حدث لابنه.

وفي لحظات الحزن، يصبح الإنسان أكثر حاجة إلى المواساة، وقد يكون مستعدًا لتصديق أي تفسير يمنحه شعورًا بالراحة أو يضع حدًا لحيرته. ومن هنا تظهر خطورة استغلال المآسي الإنسانية لترويج الخرافات.

وتكشف شخصية جعفر كيف يمكن للحزن، عندما يقترن بغياب التفسير الموثوق، أن يجعل الإنسان عرضة للتأثر بمن يدّعي امتلاك أسرار الغيب.

أما الطبيب كمال، الذي يعود إلى القرية، فيمثل قيمة العلم والمعرفة الطبية في مواجهة التفسيرات غير المستندة إلى دليل.

فهو لا ينظر إلى المرض والخوف باعتبارهما ظواهر ينبغي تفسيرها بالشائعات، بل يدعو إلى البحث عن الأسباب الواقعية، والاستعانة بالتشخيص والمعرفة المتخصصة.

ومن خلال المقابلة بين الشخصيتين، تبرز الرواية الفرق بين الإنسان الذي يبحث عن تفسير قائم على الفحص والدليل، ومن يستسلم لتفسير جاهز لأنه يمنحه إجابة سريعة.

ومع ذلك، فإن القيمة الحقيقية للعلم في الرواية لا تتمثل في ادعاء معرفة كل شيء، بل في الاعتراف بما نعرفه وما نجهله، والاستمرار في البحث بدلًا من ملء الفراغ بالتخمينات.

سابعًا: شخصية نصيرة وابنها سالم

تقدم الرواية من خلال نصيرة وابنها سالم صورة مؤلمة للظلم الاجتماعي الناتج عن الشائعات والمعتقدات الخاطئة.

تعيش نصيرة، وهي أرملة تعمل في الخياطة، على هامش القرية، وتلاحقها إشاعة قديمة تتهمها بأنها مصدر النحس، وأنها سبب الأمراض والمصائب التي تصيب بعض جاراتها، من دون وجود دليل يثبت تلك الادعاءات.

وبمرور الوقت، تتحول الإشاعة إلى حكم اجتماعي يلاحقها ويؤثر في مكانتها بين الناس.

ولا تقف آثار الظلم عند نصيرة، بل تمتد إلى ابنها سالم، الذي يتعرض لكلمات جارحة من زملائه بسبب ما يُقال عن أمه.

وتكشف هذه القصة أن الخرافة ليست مجرد فكرة خاطئة في ذهن شخص ما، بل قد تتحول إلى أداة للإقصاء والتنمر وتدمير العلاقات الإنسانية.

كما توضح أن الإنسان قد يُدان اجتماعيًا دون أن يرتكب ذنبًا، وأن تكرار الاتهام لا يجعله حقيقة.

ومن خلال نصيرة و سالم، تؤكد الرواية أن مقاومة الخرافة ليست دفاعًا عن العقل وحده، بل هي أيضًا دفاع عن كرامة الإنسان وحقه في العيش بعيدًا عن الظلم والوصم الاجتماعي.

ثامنًا: الصراع الأساسي في الرواية

يقوم الصراع في «**إغتيال العقل**» على مواجهة فكرية واجتماعية بين منهجين مختلفين في التعامل مع الحياة.

- المنهج الأول يعتمد على الخوف والتسليم بالتفسيرات الغامضة، ويجعل الإنسان تابعًا لمن يدّعي امتلاك المعرفة المطلقة.

- أما المنهج الثاني فيعتمد على السؤال والبحث والملاحظة، ويفرق بين الاعتقاد والدليل، وبين ما يمكن إثباته وما لا نملك ما يكفي للحكم عليه.

ويظهر هذا الصراع في المواجهة بين عامر والشيخ فاضل، لكنه يتجاوزهما ليشمل الأسرة والمدرسة والمركز الثقافي ومختلف العلاقات داخل القرية.

فالأمر لا يتعلق بشخصين مختلفين في الرأي فحسب، بل بمستقبل مجتمع كامل: هل يواصل أفراده تفسير الأحداث بالخوف والشائعات، أم يتعلمون مواجهة المشكلات بالمعرفة والحوار؟

وتكمن أهمية هذا الصراع في أنه لا يُحسم بمجرد انتصار عامر في حوار أو اعتراف الشيخ فاضل، بل يحتاج إلى تغيير تدريجي في طريقة تفكير الناس، وفي استعدادهم لمراجعة ما اعتادوا تصديقه.

تاسعًا: تحليل المكان والزمان

اختيرت قرية «عين النسر» مكانًا للأحداث، وهو اختيار يخدم طبيعة الموضوع؛ فالقرية فضاء اجتماعي تتداخل فيه العلاقات الأسرية والتقاليد والمعتقدات، وتنتشر فيه الأخبار بسرعة، ويؤثر فيه رأي الجماعة في سلوك الفرد.

لكن «عين النسر» ليست مجرد مكان جغرافي، بل هي صورة رمزية لمجتمع يمكن أن تتصارع داخله قيم المعرفة مع سلطة الموروث غير الممحص.

وتمنح العودة من الجامعة إلى القرية الأحداث بُعدًا إضافيًا، إذ يعود عامر إلى المكان الذي يعرفه جيدًا، لكنه يراه بعين مختلفة بعد تجربته التعليمية.

أما الزمن، فيرتبط بمرحلة التحول التي يمر بها المجتمع، حين تبدأ الأسئلة التي كانت تُعدّ غير مألوفة في الظهور، ويجد الشباب أنفسهم أمام خيارين: الاستسلام لما ورثوه دون نقاش، أو إعادة النظر في بعض الأفكار على ضوء المعرفة والتجربة.

وهكذا يصبح المكان مسرحًا لصراع يتجاوز حدود القرية، ليعبر عن مشكلة إنسانية عامة تتمثل في العلاقة بين الفرد والمجتمع، وبين الموروث والتجديد.

عاشرًا: الرموز والدلالات الفكرية

تتضمن الرواية مجموعة من الرموز التي تعزز رسالتها الفكرية.

1- **العقل:** يرمز إلى قدرة الإنسان على التفكير والتمييز والتحليل، وهو العنصر الذي تسعى الرواية إلى حمايته من التضليل والتعطيل.

2- **الخوف:** يمثل الوسيلة التي يمكن أن تُستغل لإخضاع الإنسان، ومنعه من السؤال، ودفعه إلى قبول تفسيرات لا يملك دليلًا على صحتها.

3- **الجامعة:** ترمز إلى المعرفة واكتساب أدوات التفكير، لكنها لا تعني أن كل متعلم معصوم من الخطأ، بل تمنحه فرصة أوسع لفحص الأفكار ومراجعتها.

4- **المركز الثقافي:** يمثل فضاء الحوار العام، حيث يستطيع الأفراد مناقشة الأفكار بحرية واحترام، بعيدًا عن التهديد والتخويف.

5- **المعرض الثقافي «محاكمة الأفكار»:** يرمز إلى إخضاع المعتقدات للفحص والنقاش بدلًا من محاكمة أصحابها أو التشهير بهم. وتكمن أهميته في تحويل التفكير النقدي من شعار نظري إلى ممارسة تعليمية واجتماعية.

6- **الدفتر الأزرق لعائشة:**

يمثل عالمها الداخلي وأحلامها التي لا تستطيع التعبير عنها بحرية كاملة. كما يرمز إلى المعرفة التي تنمو في صمت، في انتظار الفرصة المناسبة لتتحول إلى فعل.

ومن خلال هذه الرموز، تمنح الرواية أحداثها دلالات تتجاوز الوقائع المباشرة، وتجعل من التفاصيل اليومية وسيلة للتعبير عن أسئلة فكرية وإنسانية أوسع.

الحادي عشر: البعد الاجتماعي والإنساني

لا تقتصر رسالة الرواية على محاربة الشعوذة، بل تمتد إلى نقد مجموعة من الممارسات الاجتماعية التي تساعد على استمرار الجهل والظلم.

- فمن خلال قصة عائشة، تطرح الرواية قضية التعليم وحرية الاختيار.
- ومن خلال قصة نصيرة وابنها سالم، تكشف آثار الشائعات والتنمر والإقصاء الاجتماعي.
- ومن خلال جعفر، تسلط الضوء على هشاشة الإنسان في لحظات الحزن والفقد.
- ومن خلال الطبيب كمال، تؤكد أهمية العلم والبحث عن الأسباب الواقعية.
- أما شخصية عامر، فتجسد مسؤولية المثقف في توظيف معرفته لخدمة المجتمع، لا في التفاخر بها أو احتقار من لم تتح لهم فرص التعلم.

وهنا تبرز قيمة الرواية الإنسانية؛ فهي لا تجعل الجهل صفة ثابتة في فئة معينة من الناس، بل تصوره حالة يمكن أن تنتشر عندما يغيب الحوار، وتضعف المعرفة، ويستغل البعض حاجات الآخرين ومخاوفهم.

الثاني عشر: الأسلوب الفني والسردي

ينتمي العمل، من حيث موضوعه وبنائه العام، إلى الرواية الاجتماعية ذات البعد الفكري والإصلاحي.

ويتيح هذا النوع من السرد الجمع بين الأحداث اليومية والحوار الفكري، وبين قصص الأفراد والقضايا التي تشغل المجتمع.

وتمنح المواجهات الحوارية بين عامر وأهل القرية فرصة لعرض الأفكار المتعارضة، كما تساعد الشخصيات المتنوعة على إظهار النتائج الواقعية للمعتقدات الخاطئة.

وهناك تعزيز التشويق من خلال توزيع المعلومات تدريجيًا، وتأخير كشف بعض الحقائق، وربط الصراع الفكري بمصائر الشخصيات، حتى لا تتحول الرواية إلى مجموعة من المواعظ المباشرة.

كما أن التنوع بين المشاهد العائلية، واللقاءات الثقافية، والمواقف الإنسانية المؤلمة، والمواجهات مع الشيخ فاضل، يساعد على خلق إيقاع سردي متجدد.

ومن الناحية الفنية، تزداد قوة الرواية عندما تُترك الأحداث لتكشف الفكرة، بدلًا من الاكتفاء بشرحها. فحين يرى القارئ أثر الإشاعة في نصيرة، أو أثر الخوف في والد عائشة، أو أثر الفقد في جعفر، فإنه يتفاعل مع القضية من خلال التجربة الإنسانية، لا من خلال الخطاب النظري وحده.

الثالث عشر: الرسالة الفكرية للرواية

تتمثل الرسالة الأساسية لرواية «**إغتيال العقل**» في أن المجتمعات لا تستطيع التقدم إذا جعلت الخوف بديلًا عن المعرفة، أو منعت الإنسان من طرح الأسئلة، أو سمحت بتحويل المعتقدات غير المثبتة إلى أحكام تتحكم في حياة الأفراد.

وتدعو الرواية إلى التمييز بين احترام التراث والاستسلام لكل ما يُنسب إليه، وبين احترام الأشخاص وتصديق جميع أقوالهم، وبين الإيمان المسؤول بالخالق وبين استغلال الدين أو الغموض لتخويف الناس والتحكم فيهم.

كما تؤكد أن العلم لا يعني احتقار البسطاء، وأن التفكير النقدي لا يعني رفض كل شيء، بل يعني فحص الأفكار وفق الأدلة، والاستعداد لتصحيح الخطأ عندما تظهر الحقيقة.

ومن أهم الدروس التي يمكن استخلاصها من الرواية أن الإنسان لا يصبح حرًا بمجرد امتلاكه حق الكلام، بل يحتاج أيضًا إلى امتلاك القدرة على التفكير، وحرية السؤال، والشجاعة اللازمة لمراجعة ما اعتاد عليه.

الرابع عشر: القيمة التربوية للرواية

يمكن أن تكون الرواية مادة مناسبة للنقاش في المدارس والجامعات والمراكز الثقافية، لما تطرحه من قضايا تتعلق بالتفكير النقدي والمسؤولية الاجتماعية.

ومن أبرز القيم التربوية التي تدعو إليها :

- عدم تصديق الشائعات قبل التحقق من صحتها.
- التمييز بين الوقائع والتفسيرات والادعاءات.
- احترام حق الآخرين في السؤال وإبداء الرأي.
- الاعتماد على المعرفة الطبية والعلمية في فهم المشكلات التي تدخل ضمن اختصاصها.
- رفض التنمر والتمييز القائمين على المعتقدات الشعبية غير المثبتة.
- دعم حق الفتيات في التعليم وتطوير قدراتهن.
- تعليم الشباب كيفية مناقشة الأفكار بالحجة والبرهان.
- الاعتراف بحدود المعرفة الإنسانية، وعدم ادعاء امتلاك إجابات مطلقة عن كل شيء.

وتبرز أهمية هذه القيم في أنها لا تخص قرية «عين النسر» وحدها، بل يمكن تطبيقها في مختلف البيئات الاجتماعية التي تواجه تحديات التضليل والخوف والضغط الجماعي.

الخامس عشر: التقييم النقدي العام

تنبع أهمية «**إغتيال العقل**» من اختيارها موضوعًا يمس حياة الناس اليومية، إذ تتناول كيف يمكن لفكرة غير مثبتة أن تتحول إلى مصدر للخوف، وكيف يمكن لشائعة أن تظلم إنسانًا بريئًا، وكيف يمكن لمعتقد متوارث أن يعيق مستقبل فتاة متفوقة.

وتتميز الفكرة المركزية للرواية بإمكان الجمع بين البعد الاجتماعي والبعد النفسي والبعد الفكري، وهو ما يمنحها مساحة واسعة لبناء شخصيات مختلفة، لكل منها دوافعها ومخاوفها ومشكلاتها.

كما أن شخصية عامر تمنح العمل محورًا واضحًا للصراع، في حين تكشف الشخصيات الأخرى أن آثار الخرافة ليست واحدة؛ فهي قد تؤدي إلى استغلال الناس، أو حرمانهم من التعليم، أو ظلم الأبرياء، أو زيادة معاناة من فقدوا أحباءهم.

ولقد حافظت الرواية على التوازن بين الرسالة الفكرية والبناء الروائي.

وألا تتحول الشخصيات إلى مجرد رموز تمثل الخير والشر، بل ينبغي أن تتمتع بقدر من التعقيد الإنساني، وأن تكون قراراتها منسجمة مع تجاربها ومصالحها ومخاوفها.

كما حاولنا أن نطور الشخصيات تدريجيًا، وأن يكون التحول في مواقف أهل القرية نتيجة لأحداث وأدلة وتجارب مقنعة، لا نتيجة لموعظة واحدة أو مواجهة قصيرة.

وحاولنا أيضًا أن نميز من خلال الرواية بين نقد الشعوذة والخداع من جهة، واحترام معتقدات الناس الدينية والثقافية من جهة أخرى؛ فهدفها الأقوى ليس الدخول في صراع مع المجتمع، بل مساعدته على التمييز بين المعتقد المشروع والادعاء الذي يُستغل للإضرار بالآخرين.

وكلما ارتبطت الأفكار بالأحداث والمواقف الإنسانية، ازدادت الرواية قدرة على التأثير في القارئ، وتحولت رسالتها من خطاب مباشر إلى تجربة أدبية تبقى في الذاكرة.

خاتمة التحليل

إن رواية «**إغتيال العقل**» ليست مجرد حكاية عن قرية تنتشر فيها الخرافة، ولا مجرد مواجهة بين شاب متعلم ومشعوذ يستغل مخاوف الناس، بل هي محاولة أدبية لطرح سؤال جوهري: ماذا يحدث للإنسان عندما يتوقف عن التفكير، ويسلم عقله للآخرين؟

من خلال عامر، تدعو الرواية إلى المعرفة والحوار والشجاعة الفكرية، ومن خلال الشيخ فاضل تكشف مخاطر

استغلال الخوف، ومن خلال عائشة تدافع عن حق الإنسان في التعلم وبناء المستقبل، ومن خلال نصيرة و سالم تحذر من الظلم الذي تصنعه الشائعات، ومن خلال عاشور تحذر من الانتهازية واستغلال الناس، ومن خلال جعفر والطبيب كمال تبرز ضرورة التعامل الواعي مع الألم والمرض والفقد.

وتتجمع هذه الخيوط في رسالة واحدة: إن تحرير الإنسان يبدأ بتحرير تفكيره، وإن بناء مجتمع واعٍ لا يتحقق بإهانة الناس أو السخرية من موروثهم، بل بتعليمهم كيف يسألون، وكيف يبحثون، وكيف يميزون بين الحقيقة والوهم.

فالعقل لا يُغتال في لحظة واحدة، بل قد يُغتال كلما أُسكت سؤال، أو قُمعت فكرة، أو فُرض الخوف على الحقيقة. ولا يستعيد الإنسان حريته كاملة إلا عندما يتعلم أن يفكر، وأن يتحقق، وأن يمتلك الشجاعة لمراجعة أفكاره.

وهذه هي الرسالة التي تمنح رواية «**إغتيال العقل**» قيمتها الفكرية والاجتماعية، وتجعلها دعوة إلى مجتمع يحترم الإنسان، ويصون كرامته، ويجعل المعرفة أساسًا للفهم، والحوار طريقًا للإصلاح، والعقل أداةً لتمييز الحقيقة من الوهم.

عمارة عبدالمالك

فهرست

العنوان	الرقم
إهداء ----------	05
كلمة المؤلف----------	06
مقدمة الرواية ----------	08
التعريف بأبطال رواية «اغتيال العقل» ----------	20
الفصل الأول: القرية التي تخاف السؤال ----------	35
الفصل الثاني: وصية الجد قبل الرحيل ----------	55
الفصل الثالث: عودة الغريب ----------	69
الفصل الرابع: الشيخ فاضل ----------	78
الفصل الخامس: أول مواجهة ----------	89
الفصل السادس: الفتاة التي أرادت أن تتعلم ----------	112
الفصل السابع: موت لا يريد أحد تفسيره ----------	140
الفصل الثامن: تجارة الخوف ----------	156
الفصل التاسع: دفتر الجد ----------	180
الفصل العاشر: اعتراف في الظلام ----------	211
الفصل الحادي عشر: الشائعة التي سبقت الحقيقة ---	231
الفصل الثاني عشر: ليلة الحريق ----------	252
الفصل الثالث عشر: الطبيب الذي عاد إلى قريته ------	278
الفصل الرابع عشر: شهادة جعفر ----------	296
الفصل الخامس عشر: سقوط القناع الأول----------	310
الفصل السادس عشر: مواجهة تحت شجرة الزيتون ---	335

الفصل السابع عشر: الرسالة المجهولة ----------	340
الفصل الثامن عشر: امتحان العقل ----------	350
الفصل التاسع عشر: حين انكشف الوهم ----------	365
الفصل العشرون: البيت الذي سكنه الخوف----------	382
الفصل الحادي والعشرون: محاكمة الأفكار ----------	408
الفصل الثاني والعشرون: اعتراف الشيخ ----------	429
الفصل الأخير: اغتيال العقل ----------	455
الخاتمة ----------	462
تحليل الرواية----------	463